

الملاح وتجارته بالمغرب الإسلامي

من القرن الرابع إلى التاسع الهجري / العاشر إلى الخامس عشر الميلادي

د/ صلاح أحمد عيد خليفة

استاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب - جامعة ليبيا



إهداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

العلم وتجارته بالمغرب الإسلامي

من القرن الرابع إلى التاسع الهجري / العاشر إلى الخامس عشر الميلادي

دكتور

صالح أحمد عبد خليفة

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب - جامعة المنيا

الملح وتجارته بالمغرب الإسلامي

من القرن الرابع إلى التاسع الهجري/العشر إلى الخامس عشر

دكتور

صلاح أحمد عيـد خليفة

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب-جامعة المنيا

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونصلى ونسلم على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)
رسول الله أشرف الخلق وسيد المرسلين وبعد ،

إن موضوع البحث وهو " الملح وتجارته بالمغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن التاسع الهجري/ العاشر إلى الخامس عشر الميلادي " لم تأت فكرته من فراغ أو كان كصيد الخاطر وإنما جاءت نتيجة أسباب دفعتني للكتابة فيه دفعا أولها : عدم معرفتي بمدى تواجد هذه المادة في بلاد المغرب من عدمه وقد حضرت يوما من أيام ندوة التاريخ الإقتصادي للعالم العربي ولفت نظري أستاذين متخصصين في تاريخ المغرب يتناقشان ويتحاجان في وجود الملح وعدم وجوده ببلاد المغرب ولم يتوصلا إلى نتيجة مقنعة على الأقل بالنسبة لظروف الندوة والوقت وهو ما دفعني إلى الاهتمام بهذا الموضوع لأنني لم أخرج بكثير أو على الأقل بفكرة مقنعة عن الملح في بلاد المغرب خاصة وأن الحديث عن الملح بين المتناقشين لم يكن أساسيا بل كان على أطراف موضوع قدمه أحدهما في الندوة وهو عن مدينة تمبكتو المالية، فوضعت الموضوع في ذهني وقلت نبحث فيه لعل الأمر يتضح لنا ، وبعد الندوة اشتريت كتابا ظننت أنه سيكفييني مؤنة البحث في هذا الموضوع وهو كتاب متخصص في الملح وعنوانه " تاريخ الملح في العالم " لمؤلفه كير لانسكي الأمريكي وقرأت الكتاب ورغم جدية العرض وثراء معلوماته وطرافتها ورغم استفادتي العظيمة من هذا الكتاب إلا أنه -وعلى غير المتوقع والمأمول فيه- لم يسعفني بما أحتاج إليه من معلومات وصدمت لتجاهله الذي يكاد يكون تاما للملح بعالم الإسلام في العصور الوسطى وكأنه لا يعرف شيئا عن هذه الحقبة التاريخية مسقطا إياها عن عمد أو عن تجاهل من خطته في الكتاب إلا من نتف نذره يحتاج إليها احتياجا شديدا من أجل السياق ، ولكن في الغالب كانت المعلومات تسعفه ليتخطى هذه الحقبة التاريخية ويقفز قفزات واسعة عابر بها من العصور القديمة إلى العصور الحديثة غير ملتفت إلى هذه المادة موضوع كتابه في الحضارة الإسلامية رغم أنه طوف بتاريخ العالم أجمع قديمة وأوسطه وحديثه راصداً فيه الملح وتاريخه عند أمم الأرض قاطبة في ستة وعشرين فصلا مستفيضا في الحديث عن الأمم القديمة كالصين والفراعنة واليونانيين وأوربا الوسيطة بكافة شعوبها ثم الأمم والشعوب الحديثة الأوربية وغيرها ثم أمريكا وطنه وتاريخها مع الملح في وجوده واستخراجه واستعماله ودوره في العادات والتقاليد وأهميته لهذه الأمم دون أن يفرد فصلا عن عالم الإسلام في العصر الوسيط أو

حتى يهتم خلال السياق بالملح في هذا العالم ولو من قبيل مراعاة الترتيب التاريخي ، فقلت في نفسي لعل غيره قام بهذا المجهود وإذا لم يجعله من موضوعات كتابه فبحثت فلم أجد أحدا كتب عن الملح في الحضارة الإسلامية ولا بلدانها في العصر الوسيط ، ورجعت إلى موقع أشهر معهد متخصص في الملح في العالم على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) على أجد المعلومات عن الملح في العالم الإسلامي وبلداته في العصر الوسيط وهو www.saltinstitute.org فوجدت نفس التجاهل رغم أن الموقع يحتوى على معلومات قيمة عن الملح في كل بلدان العالم قديماً وحديثاً وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بهذا المعدن . وهنا تراحمت الأسئلة في فكري لماذا هذا التجاهل ؟! ألم يكن عالم الإسلام في العصر الوسيط جزءاً من العالم ؟! بل كان هو الجزء الهام . بل الأهم باعتراف المنصف وغير المنصف من المستشرقين ؟! أفقدت المصادر التي يمكن أن تعطى هؤلاء المعلومات الكافية لدراسة تاريخ هذه المادة في عالم الإسلام الوسيط ؟ ومن ثم أسقطوها من خططهم البحثية ؟ أم كان عدم اهتمامهم بهذه الحقبة التاريخية عن جهل بتاريخ ومصادر هذا العالم ؟ أم كل ذلك عن تجاهل متعمد إسقاطاً لهذه الحقبة التاريخية وطمساً لهوية حضارة زاهرة وتقليلاً بل محاولة التعتيم على دورها في الحضارة الإنسانية ونسفه إن أمكن ذلك ؟ وغيرها من التساؤلات التي كان يجب أن أصل إلى إجابات شافية لها ، فبدأت القراءة المتوسعة في مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية ومراجعتها فوجدت معلومات غزيرة عن الملح في العالم الإسلامي تواجداً أو استخراجاً وتجارة ما لا أستطيع بمفردي الكتابة فيه لأنه يحتاج إلى وقت طويل أو على الأقل فريق عمل من المتخصصين حتى يمكن كتابة تاريخ الملح في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، ولكن وبحكم التخصص الدقيق تابعت القراءة المتأنية في مصادر تاريخ المغرب والأندلس في هذا الموضوع فخرجت في النهاية بهذه الأوراق مقتصراتاً فيها على تاريخ الملح في المغرب الإسلامي معنوياً إياها بالعنوان الذي صدرت به هذه المقدمة دارساً فيه الملح تعريفاً كعنصر هام في غذاء الإنسان وعرجت على الاهتمام الزائد في الإسلام بهذا العنصر معالجا ذلك من خلال القرآن والسنة مبيناً في النهاية أهمية هذه المادة في حياة المسلمين مركزاً على الشواهد من التاريخ على بلاد المغرب على كافة الأصعدة وبالذات الحياتية والسياسية . ثم درست في عنصر خاص أماكن تواجد الملح في بلاد المغرب من خلال مسح جغرافي للمغرب من مشرقه إلى المحيط الأطلسي . وتحدثت بعد ذلك عن كيفية استخراج المسلمين في المغرب للملح وتقديمهم في هذا الأمر شارحاً الطرق التي استخدموها في سبيل أن

يصل الملح لمستهلكيه فى الداخل والخارج، ومن هذه النقطة انطلقت لدراسة تاريخ الملح بسبلاد المغرب محدداً لها فترة الازدهار الكبرى من القرن الرابع إلى القرن التاسع الهجرى موضحا تجارتها الداخلية وازدهارها وكيف فاض إنتاج الملح عن هذه السوق مما دفع المغاربة لتصديره إلى الخارج بعد أن لمسوا حاجة المجاورين فى المتوسط والسودان الغربى إليه فاندفعوا فى تجارتها الخارجية التى رصدتها على محورين فقط وهى تجارة الملح بين المغرب وأوروبا وتجارة الملح بين المغرب وبلاد السودان لسبب بسيط هو غنى عالم الإسلام فى المشرق ومصر والأندلس بالملح آنذاك بحيث لم يكن فى حاجة إلى ملح المغرب ، خاتماً البحث بمردود اهتمام المسلمين بالمغرب بهذه المادة بحثاً واستخراجاً وتجارة على بلاد المغرب وأوروبا والسودان واضعاً فى النهاية النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

"""""" والله أسأل التوفيق والرشاد """"""

التمهيد

أ- التعريف بالملح:-

الملح اسم لمواد كيميائية تنتج عن تفاعل عناصر مختلفة بعنصر الكلوريد فيتكون عندنا مجموعة من الأملاح ذات الأهمية للأحياء على الأرض وبعضها شائع ومشهور ومستعمل بكثرة وهو كلوريد الصوديوم ورمزه الكيميائي "NaCl" وهولنوع الذي يؤكل مباشرة صخورياً كان أو متبلوراً أو جريشاً كان أو ناعماً وهو ملح الطعام في حين أن بقية الأملاح مثل كلوريد الماغنسيوم ورمزه الكيميائي " $MgCl_2$ " وكلوريد البوتاسيوم ورمزه الكيميائي "KCl" يؤكل مخلوطاً مع مواد أخرى وينسب معينة ^(١) . في حين هناك أملاحاً أخرى إما مره أو لاذعة لها استخدامات أخرى . وما يعنينا من هذه الأملاح هو ملح الطعام أو كلوريد الصوديوم تلك المادة الهامة في حياة الإنسان والحيوان من أجل مواصلة الحياة على وجه البسيطة ، إذا اكتشف حديثاً أهمية هذه المادة للجهازين الهضمي والتنفسي وبدونها لا يستطيع الجسم الاستفادة من الأوكسجين ولا تنتقل الإشارات العصبية ولا تتحرك العضلات بما في ذلك أهم عضلة وهي عضلة القلب ^(٢) . والجسم الطبيعي للبالغ يحتوى على ٢٥٠ جرام من الملح ويفتقد الجسم كثيراً منها عند بذل المجهود وعند العرق لأي سبب من الأسباب ولهذا يحتاج الإنسان تعويض هذا النقص باستمرار وإلا أختل توازن الإنسان وأرتبك عمل أجهزته وأحس بأوجاع في الرأس وغثياناً دائماً ^(٣) وإذا .

(١) فيحتوي حليب الأطفال مثلاً بالإضافة إلى كلوريد الصوديوم على نوعين من الأملاح هما كلوريد الماغنسيوم وكلوريد البوتاسيوم . راجع مارك كيرلانسكي : تاريخ الملح في العالم "الأمبراطوريات، المعتقدات ، ثورات الشعوب والاقتصاد العالمي" ، ترجمة أحمد حسن مغربي ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٢٠ الكويت أكتوبر سنة ٢٠٠٥ ص ١٠ .

(٢) كيرلانسكي : المرجع السابق ص ١١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(٣) نفسه .

استمر النقص والحرمان من الملح لمدة طويلة ربما أدى ذلك إلى الموت ^(١) ، فالمالح إذا كالماء يشكل حاجة بيولوجية لكل من البشر والدواب وتتأوله باستمرار وانتظام من ضرورات البقاء ^(٢) . ومن هنا أيضا كانت غريزة الإنسان تدفعه للبحث عن هذه المادة التي أدرك أهميتها واستخراجها والاحتفاظ بها لاستعمالها في أطعمته إذ لا يصلح طعام إلا بها .

ومع التقدم في الحياة وتطور أحوال الإنسان اكتشفت ميزات متعددة للمالح فكما استطاع الإنسان بفضل ربه أن يحفظ حياته ونزريته بوصوله إلى أسباب الحياة ومواردها الأساسية اللازمة له ومنها المالح ، استطاع كذلك أن يكتشف ما أودعه الله تعالى من خصائص هذه المواد ما يفيد في استمرار حياته وتقدمها فاستخدم المالح منها كمادة حافظة لأطعمته خوف التغير والفساد وذلك قبل أن يكتشف التبريد ، فارتفعت قيمته عند الإنسان وازداد اهتمامه بها ونتج عن ذلك اكتشافات متواصلة لفوائد هذه المادة فاستشرى استعمالها في شتى المجالات وعلى كافة الأصعدة الزراعية والصناعية فضلاً عن استعمالاتها المنزلية والطبية بما أكد نفاسة هذه المادة وقيمتها العالية وأكدته لنا الإحصائيات الحديثة لاستعمالات هذه المادة والتي بلغت مائة وواحد استخدام بأكثر من أربعة عشر ألف طريقة ^(٣) .

فلا غرابة إذاً أن يكون المالح أساساً متيناً في عادات وتقاليد ومعتقدات الشعوب القديمة ومحوراً للصراع التجاري بين العديد من القوى البحرية الأوروبية في الحصول عليه في العصور الوسطى وسبباً في استقلال بعض البلدان عن محتليها في العصور الحديثة كالهند من بريطانيا بعد أن اختاره غاندي ليكون مدخلاً للاستقلال ^(٤) وأخيراً أن يكون المالح مظهراً في الجغرافيا التاريخية لبعض البلدان التي انتشر فيها المالح ومناجمه مثل سالزبورج النمساوية وهالشتات الألمانية ومعنى اسم المدينتين واحد وهو "مدينة المالح" ^(٥) .

(١) وبالأذات في المناطق الحارة التي يعد الحرمان من المالح فيها مشكلة حادة لكثرة العرق وانخفاض استهلاك اللحوم والأسماك بوجه عام راجع ١- ج. هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية، تقديم محمد عبد الغني سعودي، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المشروع القومي للترجمة رقم ٣٣، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة سنة ١٩٩٨ ص ٩٢

(٢) كيرلاتسكي : المرجع السابق ص ١٠

(٣) كيرلاتسكي: المرجع السابق ص ٢٦٨ وما بعدها

(٤) راجع المرجع السابق ص ١٢٩ وما بعدها

ولكن السؤال الآن أين المسلمون من هذه المادة ، معرفة واستخراجاً واستخداماً ؟

ب- المسلمون والملح :-

إن المسلمين الذين برعوا منذ أن بعث الرسول محمد (ﷺ) في معرفة الأرض والسماء بتفكيرهم الخالص فيهما بأمر من الله تبارك وتعالى ليتعرفوا على قدرته في خلقه وآياته المتفرد بها المنتشرة في الكون أى أن النظر فيها له معنى دينى عميق، فالسماء وارتفاعها بلا عمد والشمس وأحوالها والقمر ومنازله والنجوم وأفلاكها دلائل صدق وشواهد عدل على وجود الخالق وقدرته العظيمة وعلمه الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن هذه البداية كذلك كان تقدم المسلمين في علوم اتصلت بهذه الآيات كعلم الفلك أو الهيئة وحساب المتلثات والرياضيات إلخ.

أما الأرض التى يعيش عليها المسلم فأنه قد أمرهم -جل في علاه- أن يسيروا فيها ويمشوا فى مناكبها من أجل الرزق والتفكير فى مظاهرها المختلفة من مياه متمثلة فى البحار والمحيطات وما تحمله على ظهرها وما تخبئه فى بطنها وما ينبت قعرها وما يرسو على جوانبها إلخ ومن يابسة وما يميزها من تضاريس من جبال وهضاب عالية وتلال مرتفعة وسهول ممتدة وأودية منشقة ... إلخ تلك اليابسة التى أودع الله فيها سبحانه أقاتها وقدر فيها ما يلزم للحياة عليها للإنسان والحيوان والأحياء عامة . قال تعالى (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْهَا حَبْلٌ مِّن مَّوَدِّعِهِ) (١)

وفطر الله سبحانه الإنسان على التفاعل مع تلك الأرض التى يعيش عليها فعرفه كيف يستغلها لحياته ويسخرها لمصلحته وتطويع ما أودعه الله فيها من نعم ظاهرة وباطنة لاستمرار حياته ، ومن هنا كان اهتمام المسلم بالأرض ظاهرها وباطنها ، بحرها ويابسها عبادة لله واستغلالاً لما سخره الله لهم (٢)، فساحوا فى الأرض راكبين البحر والمحيط قاطعين الصحارى والقفار ، تجاراً

(١) سورة فصلت: آية ١٠.

(٢) عن تيسير الله السموات والأرض ما فيهن للإنسان راجع الآيات فى سور: الأعراف آية ٥٤ ، الرعد ٢ ، إبراهيم ٣٢-٣٣ ، النحل ١٤، ١٢ ، الحج ٣٦-٣٧ ، ٦٥ ، العنكبوت ٦١ ، لقمان ٢٠ ، الزخرف ١٣ ، الجاثية ١٢-١٣.

وحجاجا وعلماء وهم الذين قال شاعرهم^(١) بعد أن اتسعت دولتهم شرقاً وغرباً واتصلوا بكل أجزاء المعمورة بطريقة أو بأخرى :

فنحن الناس كل النا	س في البر والبحر
لنا الدنيا بما فيها	من الإسلام والكفر
نصطاف على الثلج	ونشتو بلد التمر

وعليه فقد سبق المسلمون غيرهم في ميدان الرحلات ونبغوا في علم الجغرافيا ، فوصفوا الكرة الأرضية وبسطوها بالطول والعرض محددين أماكنها وأصقاعها وأقاليمها ومدنها ، جبالها وسهولها . بحارها وأنهارها ، وبحيراتها وعجائبها ، واصفين كل ذلك وصفاً دقيقاً ، طبيعة وحياة لإحيائها من البشر وغيرهم معتمدين في كل ذلك على الرحلة والمشاهدة لما خلق الله وأمرهم أن يتفكروا فيه ، وتعدى اهتمام المسلمين بالأرض وظاهرها إلى باطنها لكشف أسرارها واستخراج كنوزها في البحر والبر على حد سواء ومن هنا كان النبوغ الإسلامي في علم الأرض أو الجيولوجيا فكانوا "أعظم من أرسى الأساس الحقيقي لعلم الجيولوجيا من الأقدمين وأغزرهم فيه إنتاجاً"^(٢) "لأنهم خبروا كنوزها من معادن وجواهر"^(٣) وأماكن تواجد كل منها ويرعوا في استخراجها رغم ضعف الإمكانيات المادية مستخدمين كل ذلك في بناء حضارة مادية يشهد بازدهارها الشرق والغرب وذلك لما عرفوا من خصائصها الطبيعية والكيميائية ولذا يقال أن علم الجيولوجيا عند المسلمين تداخل مع علم الكيمياء^(٤) ، وذلك العلم الذي ارتبط عند المسلمين بالمعادن والتعدين وصناعة الألوان والدواء وكذلك صناعات عديدة أخرى .

وفي دائرة الاهتمام بالأرض وتكويناتها والمعادن وخواصها ، كان اهتمام المسلمين بمعدن الملح "مستفيدين في التعرف على هذه المادة وخصائصها وكيفية استخراجها من الكتاب والسنة المطهرة اللذين ربطا المسلمين بآيات خالقهم في الأرض أولاً ووضع لهم أهمية هذا المعدن في

(١) أبو منصور عبد الملك الثعالبي : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، جـ ٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٣ ط ٢ ص ٣٥٥ .

(٢) مصطفى محمود سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى، مكتبة الأسرة ، القاهرة سنة ٢٠٠٦ ص ٢٩٠ .

(٣) وقد عدد شاعرهم هذه المعادن في قصيدة دلت على تلك الخبرة وهذا العلم الواسع بما تحويه الأرض من معادن وغيرها دلت على قدرته ووحدانيته راجع الملحق رقم (١) .

(٤) مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ص ٢٩١ .

حياتهم ثانيا . فالقرآن الكريم أشار إلى نوعين من البحار في أكثر من موضع ^(١) هما البحر العذب و البحر الملح وتمثل الأول في الأنهار والثاني في البحار والمحيطات الكبرى وما استوى الصنفان في نوعية الماء ونفعه للإنسان فالأول عذب فرات حلو للشاربين والثاني ملح أجاج شديد الملوحة والتي قد تصل إلى المرارة والحرقة قال تعالى: " وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاج " ^(٢) ومن فضله وكرمه على الإنسان أن حجز بينهما بقدرته رغم أنه جعلهما مختلطين يصب العذب في الملح في لقاء حميم بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر فلا الملح يعذب ولا العذب يفسد بالملح أبداً وذلك ببرزخ قدرته إلى يوم القيامة قال تعالى: (وَهَؤُلَئِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أجاج وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً) ^(٣) قال تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) ^(٤) (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) ^(٥) كل ذلك منه سبحانه على عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، عالمهم وجاهلهم ومصدق بها عند رؤيتها مقراً شاكراً لنعمة ربه ومكذب بها جحوداً ونكراناً .

وأودع الله تعالى في كلا البحرين الخيرات المشتركة بينهما وكذلك المميّزة لكل منهما فإذا كان الإنسان يستخرج من البحرين الأسماك بكافة أنواعها قال تعالى " وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً " ^(٦) . فإنه سبحانه وتعالى منحه من البحر الملح خيرات لا يتحصل عليها من العذب إذ أجمع المفسرون ^(٧) على أن اللؤلؤ والمرجان المشار إليهما في سورة الرحمن في قوله (يَخْرُجُ

(١) راجع سورة الفرقان آية ٥٣ ، سورة فاطر آية ١٢ ، سورة الرحمن آية ١٩ .

(٢) سورة فاطر آية ١٣ .

(٣) راجع سورة الفرقان آية ٥٣ .

(٤) راجع سورة الرحمن الآية ١٩

(٥) سورة الرحمن الآية ٢٠

(٦) فاطر آية ١٢ .

(٧) راجع محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ ٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة سنة ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م الطبعة الأولى ص ٤٤٩ ، جـ ٤ ، ص ٥٧٢ ، جـ ١٢ ص ١٢١ ، جـ ١٨ ص ٥٧ ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ٧، دار أحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ص ٨٦ ، جـ ١٠ ص ٨٦ ، جـ ١١ ص ١٢ ، ١٢ ، جـ ١٦ ص ١٧ ، ٢٩ ص ١٦٣ ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن

مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَرْجَانُ^(١) لَا يَسْتَخْرِجَانِ إِلَّا مِنَ الْبَحْرِ الْمَلْحِ وَفَهُمَا صَحِيحاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَاطِرٍ (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لِنَبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٢) فَاجْتَمَعَ الْبَحْرَانِ فِي خَيْرِيَةِ اللَّحْمِ الطَّرِيَةِ وَانْفَرَدَ الْمَلْحُ بِالْخَيْرَاتِ مِنَ الْحَلِيِّ الْمَلْبُوسَةِ كَالْخَوَاتِمِ فِي الْأَصَابِعِ وَالْأَسُورَةِ فِي الذَّرَاعِ وَالْقَلَادَاتِ فِي الْعُنُقِ وَالْخَلَائِلِ فِي الْقَدَمِ^(٣) وَهِيَ فِي الْغَالِبِ مِمَّا تُصْنَعُ فِي مَانَتِهَا كُلِّهَا أَوْ بَعْضُهَا مِنَ اللَّوْثِ وَالْمَرْجَانِ وَكَذَلِكَ خَصَّ اللَّهُ الْبَحْرَ الْمَلْحَ بِحَمْلِ السُّفُنِ وَجَرِيَانِهِ فِيهَا تَمْخِرُ عِبَابَهُ مِنْ شَاطِئِ إِلَى آخِرِ لِلتَّجَارَاتِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَابْتِغَاءِ فَضْلِ اللَّهِ (وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لِنَبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٤) وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْخَيْرَاتِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمَلْحِ وَمَا اخْتَصَّ بِهِ دُونَ الْعَذْبِ مَادَّةَ الْمَلْحِ الَّتِي تَتَكُونُ بِطَرِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ عَلَى السَّوَاوِلِ أَوْ تِلْكَ الَّتِي يَسْتَخْلَصُهَا الْإِنْسَانُ بِنَاءً عَلَى خَبَرَاتٍ وَثَرَاتٍ مَعْرِفِي فِي تِلْكَ الصَّنَاعَةِ لِيُؤَكِّدَ تِلْكَ الْخُصُوصِيَّةَ .

كَمَا لَفَتَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ انْتِبَاهَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا أَوْدَعَهُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا مِنْ نِعَمٍ وَخَيْرَاتٍ فِي الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ وَمِنْهَا الْمَلْحُ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرِّعْدِ (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَّجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٥) أَفَكَلِمَةُ الْقِطْعِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ مَتَّجَانِسَةً الصِّفَاتِ فِي أَنْحَائِهَا وَاخْتَلَفَتْ مَكُونَاتُ تَرْبَتِهَا ، إِذْ جَعَلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِطْعٌ تَتَمَيَّزُ إِحْدَاهَا عَنِ الْأُخْرَى وَتَخْتَلِفُ صِفَاتُهَا عَنْ أُخْتِهَا بَلْ وَتَضَادُّ فِي مَظَاهِرِهَا الْخَارِجِيَّةِ وَمَكُونَاتِهَا الْدَاخِلِيَّةِ وَذَلِكَ رَغْمَ تَجَاوُرِ هَذِهِ الْقِطْعِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ^(٦) قَدْ فَسَّرُوا الْقِطْعَ

العظيم، حـ ٣، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ط ٢ ص ٣٤٠، ح ٧ ص ٤٩٣، وغيرها .

(١) آية رقم ٢٢

(٢) آية رقم ١٢

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن حـ ١٤ ص ٣٣٥ .

(٤) فاطر آية ١٢ .

(٥) آية ٤

(٦) راجع : الطبري : جامع البيان، حـ ١٦ ص ٣٣٣، ٣٣٢، ٣٣١ . ابن كثير : تفسير، حـ ٤ ص ٤٣١ .

المتجاورات على اثنتين فقط فقالوا بأنها العذبة والسبخة أى المالحة^(١) مقصرين كل منها على صفات تخص ما تخرجه الأرض من نبات وزروع وجنات من عديمها وخصوا العذبة منها بالنفع والصلاحية للزراع والغرس فى حين خصوا الأرض السبخية بالملوحة واستخراج الملح دون النبات والزراع حسبما جاءت به لغتهم فيقال أسبخ الرجل أى استببط الماء المالح أو بسط الملح ليجف أو كانت لها فوائد أخرى فيقال أملحت الإبل أى صارت إلى سبخة أو ماء مالح ويقال أملحت الإبل أى أطعمتها الملح أو أرعيتها فى سبخة^(٢) أى أن السبخات كانت لها منافع أخرى غير استخراج الملح ومنها رعى الحيوانات^(٣) التى تحتاج أصلاً للملح وهوما يدل فهم عميق وخبرة أعمق بآيات الله فى الكون وهوما يؤكد لنا عملياً إشارة عقبة بن نافع الفهري إلى سبخة القيروان واتخاذها مرعى للإبل^(٤) وكذلك تنازع بين جماعة يمتلكون أراضى محيطة بسبخة وبين شخص ادعى ملكيتها لها دونهم فاستفتوا فى ذلك الفقهاء الذين أفتوهم بعدم جواز ملكها له دونهم لكونها ملكية عامة ومنفعة لأهل القرية فضلاً عن إنه لم يأت بشهود من القرية بل من خارجها^(٥)

(١) يقول ابن منظور السبخة أرض ذات ملح وجمعها سباح وقد سبخت سبخاً فهي سبخة والمكان يسبخ فينبت الملح وتسوخ فيه الأقدام والسبخة هي الأرض التي تملوها الملوحة راجع محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري: لسان العرب ، حـ٣، دار صادر ، بيروت ، بدون صـ٢٤.

(٢) راجع فى هذه المعاني ابن منظور: لسان العرب، حـ٢ صـ٥٩٩، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع: كتاب الأفعال، عالم الكتب بيروت سنة ١٩٨٣ ط١، حـ٢ صـ١٢٤، ١٢٧، ٢٠٩، ١٧٤، ١٦٣، حـ٣ صـ١٦٣.

(٣) وذلك لما يثبت فى هذه الأرض السبخة من أشجار وشجيرات تصلح لرعى الإبل والحيوانات كافة وسميت أغلبها باسم النجيل وأنواعه كثيرة ومتعددة مثل التليث، الغث، الحر، الحرض، الحيهل، الغويل، الشويلاء والقضام راجع : ابن منظور: المصدر السابق حـ٢ صـ١٢١، ١٧٥، حـ٤ صـ١٧٧، حـ٧ صـ١٣٣ حـ١١ صـ١٨٤ ٣٤٥، ٤٩٤، ٣٧٤، حـ١٢ صـ٤٨٧ على التوالي .

(٤) راجع صـ٣٠ من البحث .

(٥) راجع : أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي : فتاوى ابن رشد ، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليي ، السفر الثالث ، دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٧ ط١ ، صـ١٥٨٨ ، أبو العباس أحمد بن يحيى الوشريسى : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب ،

وبالرجوع إلى كتب اللغة أيضاً عرفنا أيضاً أن هناك الأرض العرق التي لا تزرع كالسبخية ، وإنما يتحصل منها على الملح كذلك^(١) وأيضاً كانت مرعى للإبل فينقل ابن منظور عن أبي حنيفة قوله " العرق أرض أو قال سبخة تنبت الشجر وقيل استعرقَت الإبل أى أنت ذلك المكان العرق ونقل عن آخرين أن الإبل استعرقَت أى رعت قرب البحر المالح ولذلك قيل عنها إبل عراقية لأنها ترعى فى الأرض العرق نبات الحمض وبقياءه^(٢) .

وجاء فى تفسير قول الله تعالى " بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ " ^(٣) والمرتبطة بالبحر المالح ومنافعه للإنسان وهى متعددة إن من منافعه استخراج الملح ويذكر أن بعض من طعن فى الدين قال إن الله تعالى يقول فى كتابكم " ما فرطنا فى الكتاب من شيء " فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل وغير ذلك ؟ فقيل له فى قوله تعالى " بما ينفع الناس " ^(٤) ، وورد فى تفسير قوله تعالى مخاطباً المحرم " أَهْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا ذُمُّهُ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " ^(٥) إن طعامه أى البحر الملح هو لمالح ولا خلاف بين أهل العلم فى جواز أكله وبيعه وشرائه^(٦)

وجاء فى تفسير قوله تعالى " أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا " إن المرعى هو لنجم والشجر والملح والبقل والعشب واليقطين وغيرها فكل ذلك مرعى لان الملح لا يكون إلا بالماء ولا تكون

حـ ١٠ ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية سنة ١٩٨١ صـ ٨٠.

(١) ابن منظور : المرجع السابق صـ ٤٢٦.

(٢) ابن منظور: لسان، حـ ١٠ صـ ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٤

(٤) الجامع لأحكام القرآن، حـ ٢ صـ ٢ ، حـ ٣ صـ ١٩٦.

(٥) سورة المائدة آية ٩٦

(٦) راجع الطبري : تفسيره ، حـ ١١ ، صـ ٦٣ وما بعدها ، القرطبي: تفسيره، حـ ٦ صـ ٣١٨ ، أبو

محمد الحسين بن مسعود البغوي : معالم التنزيل ، حـ ٣ ، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة

للتنشر سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م صـ ١٠٠

النار إلا بالشجر وهكذا^(١) كما جاء في تفسير قوله " وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ " قيل عن الماعون أنه الماء والملح والنار^(٢) وكل هذا يعنى موروث ثقافى عميق للمسلمين عن الملح.

أما فى السنة الشريفة فقد شددت انتباه المسلمين إلى أهمية الملح كمادة أساسية ضرورية فى حياة الإنسان عامة وطعامه خاصة فورد عن النبى (ﷺ) أنه قال " سيد إدامكم الملح "^(٣) وفى ذلك تنبيه أن الملح شريك فى كل طعام .

بل لا يكون الطعام اللذيذ إلا به ، ولذا جاء فى تفسير هذا الحديث^(٤) أن سيد الشيء هو الذى يصلحه ، فالملاح بذلك يكون سيد الطعام بالضرورة، ولذا ضرب به المثل فيما يصلح أحوال الناس ومعايشهم إذا وجد وتنفسد أحوالهم إذا فقد أو حتى قل ، كما ضرب به الرسول (ﷺ) المثل فى الأنصار والصحابة جميعا رضوان الله عليهم بأنهم " كالملاح فى الطعام "^(٥) إذ بهم صلاح الدين والدنيا بسيرتهم وأفعالهم قاطبة فواجب على المسلم متابعتهم واقتفاء سيرهم والإقتداء بأفعالهم.

(١) القرطبي : تفسيره ، ج ١٩ ص ١٧٩

(٢) البغوي : تفسيره ، ج ١ ص ٥٥٢ .

(٣) راجع : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المشهور بابن ماجه : سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر بيروت ، بدون ، حديث رقم ٣٣٠٦ ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني المعجم الأوسط ، تحقيق طارق بن عوض وآخرون ، دار الحرمين سنة ١٤١٥ هـ - حديث رقم ٩١٠٠ ، جلال الدين السيوطي وآخرون : شرح سنن ابن ماجه ، مكتبة قديمي كتب خاتمة ، كراتشي بدون حديث رقم ٣٣١٥ .

(٤) الإمام شمس الدين أي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد ، ج ١ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرئؤوط ، دار الريان للتراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، مكتبة المنار الكويت سنة ١٤٠٧ هـ ، ط ١٥ ص ١٦٥ .

(٥) راجع : أبو عبد محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي : الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق مصطفى ديب ، بيروت سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ط ١ رقم ٣٥٨٩ ، ٣٤٢٩ ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني : المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الموصل سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م ، حديث رقم ٧٠٩٨ ، ١١٦٨٤ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري : المستدرک على الصحيحين ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م رقم ٦٩٧١ .

أو قيل بأن الملح سيد الإدام لأنه أقل مؤنة وأقرب إلى القناعة على اعتبار وفرته ورخص ثمنه^(١) ومشاركته الدائمة للطعام وخاصة الخبز ولهذا اقتنع به العارفين والزاهدين طعاماً^(٢).
 وورد في السنة أيضاً ما يجوز استعمال الملح وهو مطعوم في غسل الثياب وتنقيتها من الدم وغيره وذلك في حديث المرأة الغفارية التي ركبت بعيراً على حقيبة فحاضت فأصاب الدم الحقيبة فقال لها (ﷺ) "أصلحي نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم أعلى ما أصاب الحقيبة من الدم"^(٣).

كما أن للملح في السنة أهمية طبية دل عليها الرسول (ﷺ) علمياً فيذكر عنه (ﷺ) أنه كان يصلي فسجد فلدغته عقرب في إصبعه فانصرف رسول الله (ﷺ) وقال "لعن الله العقرب ما تدع نبياً ولا غيره" قال الراوي ثم ذعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح ويقرأ "قل هو الله أحد" والمعوذتين حتى سكنت^(٤).

لكل هذا فالملح بمحوريته في الحياة أسن عدم احتكاره أو منعه والتحكم فيه بل جعل كالماء والهواء مشاعاً يتحتم على من يملكه بالإحياء أو الإرث أو الإقطاع عدم منعه ، سواء كان ذلك في ملاحه كبيرة أو كمية صغيرة موجودة في قعر الدار للاستعمال فروى عنه (ﷺ) أنه لما ورد عليه الأبيض بن جمال واستقطعه الملح الذي بسد مأرب فأقطعه إياه فلما ولي قام الأقرع بن حابس التميمي فقال : يا رسول الله أتى قد ورنيت الملح في الجاهلية وهوبأرض بها ماء ومن

(١) راجع شرح سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) ويذكر في ذلك أنه لما ولي يحيى بن أكثم القضاء كتب إليه أخوه عبد الله بن أكثم من مرو وكان من الزهاد الورعين :

لقمة بجريش الملح تأكلها	لذ من ثمرة تحشى بزنبور
وأكلة قربت للهالك صاحبها	كحبة الفخ دقت عنق عصفور

راجع : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي : شعب الإيمان ، تحقيق محمد السعيد بسيوني ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٠ هـ رقم ٥٥٤٥ . كما روى عن ابن عباس أنه قال . قضيم الملح في الجماعة أحب إلي من أكل الفالوذج في الفرقة : راجع البيهقي : المرجع السابق ص ٧٢٦١.

(٣) راجع أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأسدي : سنن أبي داود ، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بدون حديث رقم ٣١٣ ، أبو عبد الله الإمام أحمد بن حنبل الشيباني : سند الإمام أحمد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة قرطبة ، بدون رقم ٢٧١٨٠.

(٤) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٤ ص ١٨٠.

ورده أخذه وهو مثل الماء العد فاستقال رسول الله (ﷺ) الأبيض بن جمال في قطيعته في الملح فقال : قد أفلتت منه على أن تجعله منى صدقة، فقال رسول الله (ﷺ): " هو منك صدقة وهو مثل الماء الرق من ورده أخذه^(١) " ..

وروى أبو داود وغيره^(٢) أن النبي (ﷺ) سئل: يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه قال الماء فقيل: يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه قال (ﷺ): الملح قيل: يا رسول الله ما الشيء الذي لا يحل منعه (أن تفعل الخير خير لك) ، وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله (ﷺ) ما الشيء الذي لا يحل منعه فقال (ﷺ): الماء والملح والنار قالت: يا رسول الله (ﷺ) هذا الماء قد عرفناه فما بال الملح والنار؟ قال يا حميراء من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق ما طيب ذلك الملح^(٣) .

ولأهمية الملح في حياة الناس والاحتياج إليه دوماً مع الماء فإن رسول الله (ﷺ) أبلغ أصحابه عن كيفية الحصول على المياه وترشيح الملح خاصة إذا كانت الأرض عرقاً أى مالحة وذلك عن طريق التصعيد فيروى عن عكرمة عن أبي عباس قال ليس في الأرض ماء إلا ماء نزل من السماء ولكن عروقاً في الأرض تغيره فمن أراد أن يعود الملح عذبا فليصعد الماء من الأرض^(٤).

هكذا تكون الأساس المعرفي عند المسلمين بالنسبة للملح من القرآن والسنة توجيهها وإرشاداً وإعلاماً بأماكن تواجده وأهميته في الحياة بعامة والطعام بخاصة وقد استوعب المسلمون كل هذا وعرفوا كيف يعلو من هذا البناء المعرفي إيماناً منهم بما جاء في كتاب ربهم وعلى لسان نبيهم ثم إدراكاً وخبرة بأهمية الملح في حياتهم العملية بما أوجب عليهم الاهتمام بهذا المعدن كنهه وكيفية تكوينه وأماكن تواجده وكيفية استخراجهِ واستغلاله بما يحتاج إلى مجهود كبير من أجل

(١) راجع ابن ماجة : السنن رقم ٢٤٦٦ راجعه يلفظ آخر عند : أبو داود : السنن رقم ٢٦٦٣ ، محمد بن الترمذي السلمي : الجامع الصحيح سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث بدون رقم ١٣٠١ ، الطبراني : المعجم الكبير رقم ٨٠٦ وغيرهم .

(٢) راجع أبو داود : السنن رقم ١٤٢١ ، ٣٠١٥ ، الإمام أحمد مسنده رقم ١٥٣٨١ ، الطبراني : المعجم الكبير ، رقم ١٨٢٣٧ .

(٣) راجع: ابن ماجه : السنن رقم ٢٤٦٥ ، الطبراني: المعجم الأوسط ، رقم ٦٧٨٠ .

(۴) راجع ابن کثیر: تفسیرہ ج ۷ ص ۹۳.

رصده وتكوينه كتاريخ لهذا المعدن في عالم الإسلام ولكن ساقطصر هنا على إعطاء فكرة عامة عن الملح في حياة المسلمين العلمية والعملية مركزاً بعد ذلك الحديث عن الملح في بلاد المغرب أهمية وتواجدا واستخراجا وتجارة.

وبداية نذكر أن معرفة المسلمين لأنواع الأرضين وقطعها المتجاورات والبحر الملح كان يمكن أن تغنيهم عن البحث والعناء من أجل الحصول على الملح دون النظر إلى صلاحيته للطعام من عدمه فإذا كان قد عرفوا أن الأرض السبخية والأرض العرق هي الأرض التي غلب عليها الملح فملحت وهي تلك التي علاها الملح المكون بفعل التبخر^(١) أو تلك التي يترسب فيها الملح من أزمان بعيدة وأن البحر الملح مصدراً أساسياً لهذه المادة فكان يمكنهم أن يستغلوا هذه المصادر الرئيسية للملح ويأخذوا ما علاها أو في باطنها للاستعمال دون تفكير، ولكنهم درسوا الظاهرة دراسة علمية صحيحة وعلموا ماهية الملح وكيف يتكون؟ وما هي أنواعه؟ فيذكر^(٢) عن اهتماموا بدراسة الأحجار والمعادن المتكونة في الأرض أنهم قالوا "إن الأحجار والأجساد المتكونة في الأرض أصلها رطوبة تجتمع في باطن الأرض من بردها فتطبخها حرارة طبقات الأرض والغمر الذي هي فيه فتتغن وتتجسم حتى تصير جسداً إما من الأجسام الذائبة أو الزرانيخ^(٣) أو الكباريت أو الزجاجات^(٤) أو الأملاح

(١) راجع ما سيأتي ص ٨٣، ٤٧، ٤٤ من البحث .

(٢) أنظر أباعبد الله شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي :كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق A. Mehran . نبيز سنة ١٩٢٣ ص ٥٧.

(٣) جمع زرنيخ وهو: أحد الفلزات ، يحضر من كبريتات الزرنيخ راجع دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ، لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية ترجمة أحمد فؤاد باشا ، عالم المعرفة رقم ٣٠٥ سنة ٢٠٠٤ ص ٢٨٢ . وجاء في لسان العرب لابن منظور (ج ٣ ص ٢١) أن الزرنيخ من زرنيخ وهو عجمي وقال أيضاً أنه من الحجارة ويصلح لأن يتيم به مثل النورة والكحل (المصدر السابق ٢٥١).

(٤) ذكر الرازي عدد كبير من هذه الزجاجات أو الكباريت فوضع فيها الزجاج الأسود والزجاج الأبيض كبريتات الخارصين ، والزجاج الأخضر "كبريتات الحديدوز"، والزجاج الأصفر والزجاج الأحمر والشب أو شب الأمونيوم المتكون من كبريتات البوتاسيوم وكبريتات الأمونيوم المتبلورة مع الماء : راجع الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ، مكتبة الأسرة ، الأعمال العلمية ، القاهرة سنة ٢٠٠٠ ، ص ١٢١ ويذكر هيل (المرجع السابق ص ١٢٤) أن الزجاج كان مصطلحاً يستخدم قديماً للدلالة على بللورات الكبريتات المائية وصار بعد ذلك مرادفاً لحامض الكبريتيك .

والبواريق^(١) وسائر الأحجار والأجساد المعدنية "وزادوا الأمر تفصيلاً بالنسبة للأملاح قائلين "أما أن يذوب بالرطوبات فيصير في عداد المائعات فمنه ما يتكون على سطح الأرض ومنها ما ينبع فيها فالذى يتولد على سطح الأرض الأملاح والشبوب والبورقات وكلها ترابية طينية ثم نضجها في أقل من سنة " ^(٢) وقد عللوا ذلك بالتجربة والمشاهدة قائلين " وعلة تكوينها أن المياه إذا بقيت في البقاع واختلطت بتربتها وعلت بها حرارة المعدن فحللت أكثر الرطوبات فصارت بخاراً فارتفع في الهواء وبقي ما بقي من الرطوبات محبوساً ملاناً فإذا كانت تربة تلك الأرض سبخة غلظ وانعقد بطبخ الحرارة له فيتكون عنه ضروب الأملاح والشبوب والبورقات ^(٣) .

ونتيجة لاتساع الأرض الإسلامية وامتدادها فقد عرف المسلمون وعلمائهم أنواعاً متعددة من ضروب هذه الأملاح وعرفوا خواصها واستعمالاتها فمنه الأندرائي^(٤) وهو صفي الأملاح وألطفها وكيفما أنكسرت حجارته ما انكسرت إلا فصوصاً مربعة الزوايا^(٥)، ثم الداخلى فى الطعام فأجوده الأبيض العطر الرائحة تشبه رائحته البنفسج^(٦) والملح الهندي وهو أبيض^(٧)

^(١) قسم البورق إلى ستة أنواع وهي بورق الجرو والنطروق وبورق الصاغة والتنكر والبورق الزراندنى وبورق التريبت هي المواد التي يدخل في تركيبها عنصر البورون وأهمها $(Na_2B_4O_7)$ وهي مادة بيضاء اللون تنصهر بدرجة حرارة منخفضة بالنسبة للأملاح الأخرى وإذا ما صهرت مع أكاسيد الفلزات الأخرى تعطي خرزاً ملونة ويكون اللون مثل الفلز الذي يدخل في منصهر البوراكس ولا زالت هذه المادة تستخدم في التحليل الكيميائي إلى اليوم . راجع فاضل أحمد الطائي : المرجع السابق ص ١٥٤ ، ص ١٥٧ .

^(٢) الدمشقي : المصدر السابق ص ٧٩ .

^(٣) نفسه

^(٤) وقد صححه أهل اللغة وغيرهم بأنه زرائي وليس أندرائي وقالوا بأنه من الذرارة والذرة هي البياض راجع ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٧٩ ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري : أدب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية مصر سنة ١٩٦٣ ط ٤ ص ٢٩٨ . راجع كذلك على بن بآلى القسطنطيني : خير الكلام في النص عن أغلاط العوام تحقيق حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨٣ ط ٢ ص ١٨ .

^(٥) الدمشقي : المصدر السابق ص ٧٩ .

^(٦) نفسه

^(٧) ويذكر الخوارزمي أن منه نوعاً آخر أسود اللون راجع : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب : مفاتيح العلوم تحقيق فان فلوتن ، تقديم د محمد حسن عبد العزيز ، الذخائر ١١٨ القاهرة سنة ٢٠٠٤ ص ٢٥٩ .

صلب وفيه منافع مذكورة في كتب الطب^(١) والملح السبخى وهولوان متعددة وأنواع فمنه الأبيض والأحمر الدموى المشرق ومنه الأصفر الورسى ومنه الأخضر^(٢) كما عرفوا الملح المر ومصدره كان من الجبال والسباخ أيضا^(٣) وملح النظرون وله نوعان الأبيض والأحمر^(٤) وملح النوشادر وهوشبيه بالنشادر المصنوعة^(٥) وقد أضاف الرازى^(٦) الذى قسم الأملاح إلى عشرة أصناف إلى الأصناف السابقة الملح النفطى^(٧) والملح الصينى وملح النورة^(٨) وملح الرماد^(٩) وملح القلى^(١٠) وكل هذه الأنواع كان لها استخداماتها عند المسلمين وإن كان أكثرها استخداما ملح الطعام الأكثر نقاوة ونفعا مثل الملح الأندرانى سابق الذكر الذى استخدم فى الطعام وحفظ الأشياء بينما استعملت الأصناف الأخرى فى أغراض قليلة^(١١) إما لعدم جودتها ونقاوتها أو عدم تحمل الإنسان لشدة مذاقها من لدونة أو حرقة ومن هنا شاع ألطفها مذاقا وأكثرها تواجدا بين المسلمين وهو ملح الصوديوم المستخدم فى مجالات متعددة ومنها علم الكيمياء إذ استخدمه

(١) الدمشقى: المصدر السابق ص ٧٩

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) المصدر السابق ص ٨٠

(٦) راجع الطائى : أعلام العرب فى الكيمياء ، ص ١٥٤ .

(٧) وله رائحة كرائحة النفط راجع الخوارزمى: كتاب مفاتيح العلوم ، ص ٢٥٩

(٨) النورة فى الأصل من الحجارة ، استخدمه العرب قديما بعد أن يحرق ويسوى منه الكلس راجع : ابن منظور : لسان العرب، ج ٥ ص ٢٤٠ ، وإذا خلط الرماد بالنورة والحصى فهو لجيار أى الجير ، أنظر المصدر السابق ص ١٥٦ .

(٩) وهو ملح أو رماد البلوط ويحتوى هذا الرماد إن كان حديثا على أوكسيد البوتاسيوم وأملاح البوتاسيوم الأخرى . الطائى: المرجع السابق ص ١٥٨

(١٠) وهو مزيج من أوكسيد الصوديوم وهيدروكسيده وكربوناته راجع الطائى: المرجع السابق ص ١٥٨ والقالى تم الحصول عليه من إحراق وصهر نبات الجنبات فى سوريا وهولأشنان واسمه النباتى Salsola Soda ويتكون كيميائيا من حوالى ٨٠% كربونات بوتاسيوم مع حوالى ٢٠% كربونات صوديوم راجع هيل: المرجع السابق ص ١٢٥

(١١) وقد عده الخوارزمى من العقاقير المستعملة فى هذه صناعة الكيمياء ولذلك أورده تحت مسمى "اسماء

الجواهر والعقاقير المستعملة فى هذه الصناعة أى الكيمياء " راجع مفاتيح العلوم ص ٢٥٩

مشاهير علماء المسلمين النابغين في هذا المجال^(١) في العديد من التركيبات الكيميائية وحذقوا استعماله وإبراز فوائده في هذا العلم بما نفَعوا به العالمين فجابر بن حيان مثلاً أول من لاحظ ما يحدث من ترسب كلور الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة^(٢) وهو القائل: "الفضة إذا شمت رائحة الكبريت أسودت وإذا أصابها الملح أبيضت وصفت وزاد حسنها"^(٣) وهو ما يدل على دراسته الجيدة لمعدن الملح وخواصه الطبيعية الكيميائية ويقول عنه صاحب كتاب إعلام العرب في الكيمياء^(٤) أنه قد حضر من تجاربه زيت الزاج أي حامض الكبريتيك وليس ببعيد على من يحضر هذا الحمض أن يحضر حامض الهيدروكلوريك فما هو إلا مزيجاً من تفاعل زيت الزاج مع ملح الطعام^(٥) ويؤكد ذلك محمد غريب جودة^(٦) بقوله "كما توصل إلى تحضير حمض الهيدروكلوريد (روح الملح)^(٧) ممزوجاً بحمض النيتريك وعرف المزيج الناتج عن عملية التحضير باسم ماء الذهب أو الماء الملكي لمقدرته على إذابة الذهب وتمثلت طريقة التحضير المتبعة في تقطير خليط من ملح الطعام "كلوريد الصوديوم" والزاج الأخضر وبلورات ملح كبريتات الحديدوز.

(١) أمثال جابر بن حيان وابن سينا والبيروني والرازي وغيرهم، عن هؤلاء العلماء الأفاضل حياتهم ومؤلفاتهم ونبوغهم واسهاماتهم الفاعلة في الكيمياء وجوانب العلم الأخرى . راجع د/ فاضل أحمد الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ، سليمان فياض : عمالقة العلوم التطبيقية وانجازاتهم العلمية في الحضارة الإسلامية ٢٠١ - ١٠٠٠هـ / ٨٠١ - ١٦٠٠م الأعمال العلمية، مكتبة الاسرة القاهرة سنة ٢٠٠١ ، محمد غريب جودة : عباقرة علماء الحضارة الإسلامية في العلوم الطبيعية والطب ، الأعمال الفكرية ، مكتبة الاسرة سنة ٢٠٠٤م ، مصطفى محمود سليمان ، تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ، ص ١٨٩ وما بعدها ، (٢) الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ص ٤٩ ، محمد عبد الرحمن مرحبا : الجامع في تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت ، باريس سنة ١٩٨٢ ط ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٣) الطائي: المرجع السابق .

(٤) نفسه

(٥) عبد الرحمن مرحبا : الجامع في تاريخ العلوم ص ٣١٩ .

(٦) عباقرة علماء الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الطبيعية والطب - مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية، القاهرة سنة ٢٠٠٤ ص ٦٣

(٧) ووصف هذا الحامض بأنه نوع من المياه الحادة التي تصيب المعادن مرحبا : المرجع السابق ص ٣١٩ .

ولا شك أن هذه المعرفة الجيدة لخصائص هذا المعدن والاهتمام به على المستوى العلمي لإعلان لنا الفوائد القصوى التي اكتشفها علماء المسلمين للملح الذي استخدم بناء عليها في معالجة المعادن الكيميائية ولعل أبلغ دليل على شيوع استخدام الملح في معالجة المعادن بعالم الإسلام الإشارات الهامة التي أتى بها خبير في معالجة المعادن وهوبن يوسف الحكيم الفاسي المغربي الذي تولى أمانة دار السكة في عهد أبي فارس عبد العزيز المريني (٧٦٨ - ٧٧٤هـ/١٣٦٦-١٣٧٢م)^(١) إذ يذكر أن الملح يستخدم في تنقية وغسل الذهب والفضة من الشوائب العالقة بها^(٢) وما أسود منها لا يغسل إلا بالأملح التي تبيض الفضة والذهب وتجعل لونهما نورياً^(٣) كما أكد بأن الملح يستخدم في فصل الذهب عن الفضة بأن يؤخذ الذهب الممزوج بالفضة فيرقق صفائح وتفرش له فرشاة من رقائق الأجر ويذر المخلوط بالملح مناصفة ثم يوضع في إناء من حجر صلد ويوقد عليه في الفرن ، فإن الفضة تصير في جوف ذلك التراب المتخذ "رقاق الأجر" وتبقى صفائح الذهب خالصة وأردف بأن تلك الطريقة تعمل بالشب والملح أيضاً^(٤) وأكثر من هذا أمدنا هذا الرجل أن الملح كان من المواد الأساسية في دار سك العملة فنذكر أن الملح استخدم في هذه الصناعة حيث يستخدم منه نوعاً خاصاً عرف باسم التتكار الذي يحفظ الذهب والفضة من النار وكذلك يعين على سبك الذهب ويلينه ويسبكه في رقق^(٥).

فضلاً عن كل هذا نجد الاستخدام الأكثر في الجوانب الطبية إذ استخدمه المسلمون في العديد من العلاجات مفرداً أو مركباً مع غيره من العقارات فالملح مفرداً كما قال ابن القيم^(٦) يصلح أجسام الناس وأطعمتهم ففيه جلاء وتحليل للعفونات وإذهاب للرطوبات الغليظة وتنشيف لها ، وتقوية للأبدان ومنع من عفونتها وفسادها ، ونفع من الجرب المتقرح ، وإذا أكتحل به قلع اللحم الزائد من العين ومحق الظفرة وجله صغيرة تغطي العين والأندرانى أبلغ في ذلك ، ويمنع الملح

(١) راجع أبا الحسن علي بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس ، دار الشروق القاهرة بيروت ١٩٨٦ ط ٢ ص ١٤ من مقدمة المحقق .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٥١ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٣-٥٤ ، ٨٦ .

(٦) زاد المعاد ج ٤ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

القروح الخبيثة من الانتشار ويحدد البراز أى يلينه، وإذا ذلك بطون أصحاب الاستسقا نفهم، وينقى الأسنان ويدفع عنها العفونة ويشد اللثة ويقويها، ومنافعه كثيرة جدا .

أما استخدامه مع غيره أفاد فى علاج الكثير من الأمراض فإذا شرب الخل مع الملح مثلا نفع ذلك فى أكل الفطر القتال^(١) إذا أضيف إلى ماء الزيتون أو نقع به الزيتون فإن هذا الماء يمنع من تنفط حرق النار ويشد اللثة^(٢) إلخ كما أن الملح مفيد جدا فى علاج اللدغة وخاصة لدغة العقرب وذلك إذا أضيف إلى بذر الكتان ويعمل ذلك بأن فى الملح القوة الجاذبة المحللة ما يجذب من السموم ويحللها^(٣).

ومما يبرز الأهمية القصوى للملح عند المسلمين كثرة استعماله فى الأطعمة مفردا أو يضاف إلى التوابل الأخرى مثل الكمون والكزبرة والكرأوية والفلفل وغيرها ويضاف المخلوط إلى الطعام^(٤) والحديث عن استخدامات الملح فى الطعام يطول - حتى ولو تحدثنا فقط عن بلاد المغرب وأهلها واستخداماتهم للملح - مما يدل على استيعابهم الأهمية لهذه المادة نتيجة للخبرات المكتسبة من ماضيهم وبيئتهم فضلا عن الموروث القرآنى والنبوى عن الملح وأهميته فالملح أصلح طعامهم ويستخدمونه فى عمل ما لذ وطاب من الأطعمة مما لو سردناه هنا ل طال المقام ولكن أكتفى بالقول بأنه لو تصفحنا كتاب الطبخ فى المغرب والأندلس فنأدرا ما نفتقد صفحة لا يذكر فيها استخدام الملح داخلا بمفرده أو مركبا مع تابل آخر مضافا إلى الطعام المطبوخ كما استخدموه قبل أن يظهر التبريد فى حفظ الأشياء وخاصة الأطعمة خشية الفساد والعطب وقد كفانا فى ذلك الشعراء بأشعارهم كدليل مع استخدام الملح فى هذه المهمة فقال أحدهم^(٥) :-
بالملاح نصلح ما يخشى تغييره فكيف بالملاح إن حلت به الغير

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.

(٢) ابن القيم : المصدر السابق ص ٣١٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٢.

(٤) راجع مجهول : كتاب الطبخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، تحقيق أمبروزيو هويشى ميراندا ،

مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلدان التاسع والعاشر مدريد سنة ١٩٦١ ، ١٩٦٢ . ص ٨١

(٥) شهاب الدين محمد بن أحمد الفتح الابشيهي : المستطرف من كل علم مستطرف ، ح ١ ، تحقيق مفيد

محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٢ ط ٢ ص ٧٢

وقال آخر (١)

الملح يصـلـح كل يخشى عليه من الفساد
ما

فاذا الفساد جرى عليه فحكمه حكم الرماد

ولذا كان من الأهمية بمكان أن يحفظ الملح نفسه ولا يعرض مطلقاً إلى ما يفسده فإذا دق الملح فلا يدق إلا في المهراس من الخشب أو الرخام ولا يدق بحال في مهراس من النحاس (٢) ، وإذا حفظ في المنزل فلا بد أن يحتاط عليه جيداً أو لا يبقى مكشوفاً وذلك لأن الهوام والحشرات السوممية تنب بالليل وتتفقد الملح حيثما كان لتتملح به وربما سقط من لعابها عليه أو تحتك فيه فينسلخ من جلدها فيكون من ذلك مضرة عظيمة (٣) ، ولذا أوصى العارفين بالملح أن لا يطرح في الطعام من الملح إلا ما كان مغسولاً أو مغطى محفوظاً (٤) .

وكل هذا مما يبرز الأهمية القصوى للملح في حياتهم ومن ثم صار لا يمنع على أحد اقتداء بسنة نبيهم (ﷺ) فقال فقبيهم (٥) : " الناس شركاء في خمسة أشياء " في الماء لسقائهم ومنافعهم من الاغتسال وغيره مما يرتفق معه ولسقى دوابهم وفي الكلاً الذي ليس في ملك أحد بعينه وأما الملح فليس لأحد أن يحتجز شيئاً من معادنة ووهج النار ليس لأحد أن يمنع من وهج ناره وما كان في المياه من صيد الماء " ومن هنا أيضاً وردت الإشارات التاريخية المتعددة على كثرة استعمال الملح في الأطعمة واستعمله الأغنياء والفقراء ولم تخل مائدة مغربية منه فقد ورد أن الشيعي عبيد الله المهدي (٢٩٦-٣٢٢هـ / ٩٠٨-٩٣٤م) وأهل بيته يستعملون في أطعمتهم

(١) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ح ١ سلسلة تراثنا ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٢٧٨ .

(٢) كتاب الطببخ في المغرب والأندلس ص ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٨٣-٨٤ .

(٥) أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي : كتاب الأموال ، تقديم رضا محمد سالم شحاذة ، مركز إحياء التراث المغربي ، الرباط ، بدون ، ص ٥٥ .

الملح المستخرج من بسكرة^(١). وذكر ابن الصغير^(٢) الملح على مائدة عبد الرحمن بن رستم، كما تعددت الإشارات أنه كان من المواد الرئيسية على موائد العوام وفقراء الناس وزهادهم الذين كانوا لا يأكلون إلا الخبز مع الملح^(٣) كما ملح بعضهم الجراد لأكله^(٤)، ولم يستغنوا عنه حتى عند سفرهم^(٥).

كما كان الملح ضروريا عند المسلمين ببلاد المغرب في العديد من الصناعات مثل صناعة دبغ الجلود المنتشرة في العديد من مدن المغرب الإسلامي كغدامس وفاس وسلا والقيروان... إلخ^(٦) وذلك من أجل تطرية الجلود وتنقيتها وإعدادها للاستعمال كما كان الملح أساسا في

(١) أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، الناشر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة بدون سنة ٥٢، محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض العطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت سنة ١٩٨٠ ط ٢، ص ١١٤.

(٢) أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق ودراسة حسن علي حسن، القاهرة سنة ١٩٨٤ ص ٢٤٢.

(٣) القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ج ٤، تحقيق عبدالقادر الصحراري مطبعة فضالة، المحمدية، الرباط سنة ١٩٧٠ م ص ٨٠، ٤٠٨، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي المعروف بالدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل بن عيسى بن ناجي اللتوخى، ح ٣ تحقيق وتعليق محمد ماضور، سلسلة تراثنا، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٨ ص ٢٧، ٢٨.

(٤) أحمد بن علي المقرئ: جنى الأزهار من الروض المعطار، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية، القاهرة سنة ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٦ م ص ٥٩.

(٥) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ح ٦، تحقيق سعيد أحمد إعراب، مطبعة فضالة المحمدية سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م ص ٢٦.

(٦) راجع عن الدباغة في غدامس.، أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان ح ٤، دار الفكر، بيروت، بدون ص ١٨٧، محمد عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت سنة ١٩٨٠ ط ٢ ص ٤٢٧. وفي فاس راجع على سبيل المثال: الشريف أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ح ١، تحقيق عبد الله كامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء سنة ٢٠٠٦ م ط ٤ ص ١١٤، ١٢٣، ١٦٤، ١٨٥، ح ٣ ص ١٣١، ٤١١، ٤٣٤. وعن سلا راجع، محمد زنبير: المغرب في العصر الوسيط ص ٣٢٠ وعن القيروان راجع: أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي: جامع مسائل

بعض الصناعات كصناعه تمليح الأسماك وتعليبها وتجهيزها للاستهلاك الداخلي وكذلك لتصديرها للخارج فيذكر عن أهل سبتة أنهم كانوا يقدون سمكة موسى ويملحونها ويحملونها إلى البلاد^(١). وأهل تونس الذين كانوا يصطادون أنواعا عجيبة من الأسماك ويحملونها وتبقى صحيحة الجرم طيبة الطعم سنين^(٢) كما شاع في بعض مناطق المغرب الأدنى تمليح السردين الصغير والذي عرف باسم الصير والذي كان يباع في أزيار كبيرة ومحاوليس فخارية صغيرة^(٣) وعرف عن أهل بادس^(٤) وجبيل بني منصور^(٥)

الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج ٣ ، تحقيق محمد حبيب الهيلة، دار المغرب الإسلامي، بيروت سنة ٢٠٠٢ ص ٦٢٩، ج ٤ ، ص ٣٨٨ وما بعدها ، ص ٤٤١.

(١) راجع أبو حامد الغرناطي: المغرب عن بعض غرائب المغرب، تحقيق اينغرد بيخاراثو - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد سنة ١٩٩٢ ص ٧١ ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت ، بدون ص ٢٠١، ٥٣٤.

(٢) ابن سعيد المغربي: كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان فرنيط خيثيس، تطوان سنة ١٩٥٨م، ص ٤٨.

(٣) يحيى بن عمر : أحكام السوق ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب راجعه وأعدّه للنشر فرحات الدشرأوى ، تونس سنة ١٩٧٥ ص ١٢١-١٢٢.

(٤) بادس : مدينة ساحلية من إقليم فاس واقعة بين جبلين عاليين وبجوارها واد يتشكل فيه نهر عندما يهطل المطر ، وأغلب أهلها صيادون ولها قصبة صغيرة ليست شديدة المنعة وفيها يسكن أمير البلد . راجع ابن الوزان الزياني: وصف أفريقيا ، تحقيق عبد الرحمن حميدة مكتبة الأسرة، سلسلة التراث، القاهرة ٢٠٠٥م ، ص ٣٢٧ : ٣٢٩ وهي غير بادس بلاد الزاب التي ذكرها الجغرافيون والرحالة الآخرون راجع ابن حوقل النصيبي : كتاب صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة سنة ١٩٩٨ ، ص ٩٣ ، البكري : المغرب ، ص ٧٤ ، مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب) ، نشر وتطيق د/ سعد زغلول عبد الحميد ، الكويت سنة ١٩٥٨ ص ١٧٥ . الحميري: الروض المعطار، ص ٧٥.

(٥) جبل بني منصور: من جبال الريف المغربي كانت في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي تحت سلطة أمير بادس، وهو بجوار البحر المتوسط يمتد مسافة ١٥ ميلاً طويلاً بعرض أربعة أميال وفيه الغابات والعيون وأهله فقراء يعنون بتربية الماعز ولهم سوق أسبوعي دخله ليون الأفريقي ، راجع ابن الوزان الزياني: وصف أفريقيا، ص ٣٣٢.

صيد أسماك السردين وتمليحها وإعدادها للبيع^(١) واشتهرت مدينة أزموور بالسمك المملح الذي كان يصدر إلى البرتغال.^(٢)

وتتبدى لنا أهمية الملح عند المغاربة لكونه مادة غذائية أساسية في الأزمات السياسية والإقتصادية التي قد تتعرض لها بعض المدن المغربية ففي هذه الأوقات تنقص المواد الغذائية الأساسية كالخبز واللحوم والزيوت والملح بها وتصل إلى حد الندرة عندما تطول الأزمة ويشد الحصار ويزداد الخناق على أهل هذه المدن عندئذ ترتفع الأسعار لاشتداد الطلب وقلة المعروض فعندما تعرض عمر بن حفص هزاردرد (١٥٠-١٥٤هـ/٧٦٧-٧٧٠م) وإلى العباسيين للحصار بالقيروان من قبل الخوراج ضاق أمره وأمر من معه وأهل المدينة حتى أكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم ومات منهم الكثير جوعا بعد أن قل الطعام وغلت الأسعار حتى انتهى عندهم أوقية الملح بدرهم^(٣) وأثناء حصار السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن يعقوب (٦٨٥-٧٠٦هـ/ ١٢٨٦-١٣٠٦م) لمدينة تلمسان عاصمه بني زيان الذي استمر ثمانى سنوات وثلاث أشهر نال فيها آل زيان وأهل المدينة من الجهد والجوع ما لم ينل أمه من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران وغلت الأسعار والأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد ووصلت أوقية الملح بعشرة دراهم^(٤).

وأثناء أزمة الموحدين مع ابن مردنيش في الأندلس وفلاح قوات الموحدين في فك حصار غرناطة المفروض من قبل مردنيش وصهره ابن همشك ومن معه من أعلاج النصاري سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م أمرهم الخليفة أن تملأ مخازن المدينة بالقصبة بالقمح والشعير والملح وآلات

(١) ابن الوزان الزياني : وصف أفريقيا، ص ٣٢٨، ٣٢٢

(٢) راجع : المصدر السابق ص ٦٢٣.

(٣) راجع ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ج ١، تحقيق ليفي بروفنسال. س كولان، القاهرة سنة ١٩٨٣، ص ٧٦ الرقيق القيرواني : تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني ، القاهرة سنة ١٩٩٤ ص ٨٣.

(٤) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، جزء ٧، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ط ١ ، ص ١١٣، السلاوي : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج ١ ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء سنة ١٩٩٧ ط ١ ص ٨٥-٨٦

الحرب بما أبهت الناظرين وقصر عن وصف الواصفين ونقل كل ذلك من العدو في المراكب إلى المنكب ثم إلى غرناطة فحيث المدينة بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول والنبيل المبدول^(١) .

وفي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م خشي خليفة الموحدين أبويعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠ هـ / ١١٦٢-١١٨٤ م) على مدينة بطليوس من عادية النصاري ومحاصرتها فأمر بتمويل المدينة بالميرة فتحرك إليها من إشبيلية القائدان المكلفان على ثلاثة آلاف دابة تحمل القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق والأرزاق لأهلها رفقا بهم في المضايق وحفظا لهذه المدينة^(٢) .

الخلاصة أن الملح كان من السلع الغذائية الإستراتيجية المعول عليها أثناء فترات الاضطراب السياسي والأزمات العسكرية ولذا حرص السلاطين والخلفاء على أن يكون من المواد المتوافرة في المدن والقلاع أو حتى تلك التي تبنى لأغراض عسكرية دفاعية كانت أو هجومية وخاصة إذا طال الحصار مثلما حدث عند حصار السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى (٧١٨-٧٣٦ هـ / ١٣١٨-١٣٣٥ م) لمدينة بجاية والتي طالت بها الفتنة إذ بنى من أجل القضاء على الفتنة بها والصبر على ذلك ، مدينة الحصن القديم بمكان سوق الخميس على وادي بجاية وأوعز السلطان إلى جميع عماله بالمغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت والإم وسائر الأقوات حتى الملح فنقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها^(٣) .

كما حرص الحكام كذلك على تمويل الجيوش بكافة القوات ومنها الملح فلا يستغنى عنه المطبخ المصاحب للجيش فإذا قل أو نفذ كله وجب على قائد الجيش البحث عن أقرب مصدر للملح أو مدينة يتزود منها بالملح^(٤) .

(١) راجع عبد الملك ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت سنة ١٩٨٧ ط ٣ ، ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٥ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٤) ابن عذاري : المصدر السابق ص ٢٦٤ .

ومما يؤكد أهمية الملح كمادة غذائية أساسية لأهل المغرب أن صار هو والطعام من أدوات العقاب على المدن الثائرة والتي تبوأ بنقمة الحاكم فإذا أراد أحدهم تأديب أهل المدينة يمنع عنها الأقوات وإذا دخلها ناقما يأخذ ما بتلك المدينة من طعام وملح ويجعله ذخرا له ولأهل عاصمته وذلك كما فعل حماد بن باديس بن سيف العزيز صاحب قلعة حماد أثناء صراعه مع نصير الدولة الصنهاجي إذ لما انتصر نصير الدولة عليه وفر حماد أمامه وتحصن بالقلعة وأقام بها ثلاثة أيام ولكنه صار في حاجة إلى الطعام والملح فخرج حتى وصل إلى مدينة دكمة^(١) وكان قد نqm على أهلها فأوقع بأهلها وأساء إليهم وأخذ ما بتلك المدينة من طعام وملح وعاد به إلى قلعته سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م^(٢)

والخلاصة أن الأهمية القصوى للملح في الحياة على كافه مستوياتها قد أدركها ولمسها المسلمون عامة مما دفعهم إلى الاهتمام الخاص بهذه المادة ومعرفة أماكن تواجدها* واستخراجها والإتجار بها داخليا وخارجيا وهوما سنقوم بتفصيله في الصفحات التالية قاصرين هذه الدراسة على الملح ببلاد المغرب وكيفية استخراج وتجارته الداخلية والخارجية.

أولا- أماكن تواجد الملح ببلاد المغرب

تعددت المصادر الطبيعية للملح ببلاد المغرب وكثرت أماكن وجوده متوزعة بين المغارب الثلاث ببلدانها وقراها على الساحل وفي الداخل على حد سواء وذلك في صورته الطبيعية أودعها الله سبحانه وتعالى تلك الأماكن وسبب لها أسبابها من وجود التربة السبخية أو الأنهار المالحة أو البحيرات أو ترسيبات قديمة كونت الملح الصخري ولو أجرينا مسحاً جغرافياً لبلاد المغرب من الشرق إلى الغرب لوجدنا الملح في المغرب الآننى يتوزع على أماكن متعددة ففي الواحات جنوب أوجلة وجدت قرية تعرف باسم القصبة فيها ثلاث أعين مالحة يجتمع ماؤها في سبخ فتكون ملحا يستغله الأهالي ويصدرونه^(٣). ولو اتجهنا شمالا وفي الطريق من سرت إلى سلوق

* راجع هذه الأماكن على الخريطة الملحق رقم (٤)

(١) من أعمال بني حماد بينها وبين مدينة تيفاش القريبة من الأريس مرحلة، يسكنها قوم من كتامة ولها سوق مشهورة راجع الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله الشريف: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق: ج١، عالم الكتب، بيروت سنة ١٩٨٩ ط١ ص ٢٩٦، ياقوت: معجم، ج٢، ص ٤٥٩.

(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) البكري: المغرب ص ١٥

نجد سبخة منهوشا^(١) وما بين برقة وطرابلس ملاحه عرفت باسم برج الملح وهي ملاحه كبيرة يخرج منها ملح عجيب^(٢)، وقريبا من تاورغا توجد سبخة بينهما وبين ماء عذب عرف باسم ماء القوير^(٣) ويلي ذلك غربا ملاحه سبخة الهائشة وهي مستطيلة وعلى جوانبها بناء وقصور وبها نخل متفرق وبآخرها واد من الملح متجمد^(٤) ويذكر العياشي^(٥) قريبا منها سبخة مقطع الكبريت وغلب عليها هذا الاسم لأن في أعلاها مقطع مشهور للكبريت، وقريبا من قصر صالح القديم مرسى طرابلس المفضل توجد سبخة ملحها مفضل على جميع السباخ^(٦) وهي التي عرفت فيما بعد باسم ملاحه رأس المخبز وتقع غرب مدينة زوارة^(٧) وقد اشتهرت سباخها بجودة الملح في العصر الحفصي ويذكر الجغرافيون^(٨) انه يتصل بمدينة طرابلس نفسها سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير .

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالمقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر ، بيروت عن طبعة ليدن سنة ١٩٠٦، ص ٢٣٣ ، ويعلل الإدريسي (نزهة المشتاق ، ص ٣١٤) التسمية بأن بها وبرمالها حبات وأفاع صغار طول الواحدة شبر لا زائد وهي تضر وتنهش من لا يعلم أمرها ومن سرى بالليل في تلك الأماكن .

(٢) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي: الرحلة (ليبيا ، طرابلس وبرقة تحقيق سعد زغلول عبد الحميد وآخرون. منشأة المعارف ، المعارف في الإسكندرية سنة ١٩٩٦ ص ٧٤ ، ٢٣٦

(٣) المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٤) العياشي: المصدر السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ١٨٩ .

(٥) المصدر السابق ص ١٤٩

(٦) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني ، المطبعة الرسمية، تونس سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م ص ٢٠٦ .

(٧) راجع محمد حسن : المدينة والبادية بأفريقية في العهد الحفصي، ح ١، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس سنة ١٩٩٩ ص ٤٧٣ ، برنشفيك (روبار) : تاريخ أفريقية في العصر الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م، ح ٢، نقله إلى العربية حمادي الساطي ، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٩٨٨ ط ١ ص ٢٣٩ M.LDeMas Latrie: Traites de paix et de commerce et Documents divers concernant Les relations De chrctiens avec les Arabes De l'Afrique septentrionale au Moyen Age, Paris 1866. P224

(٨) راجع البكري : المصدر السابق ، ص ٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ح ٤ ، ص ٢٥ .

ومن ملاحات المغرب الأدنى المشهورة ملاحات جزيرة جربة القريبة من قابس والتي تنافس الأوروبيون على شراء ملحها^(١) وتحدث الجغرافيون وغيرهم^(٢) كثيراً عن ملاحات شط الجريد ففي الطريق بين نفاوة وقسطيلية أرض سواخة وسباخ وملاحات متصلة لا يهتدى للطريق بها الا بأخشاب قد نصبت على طريق ضيق كعلامات^(٣) فإن أخطأ أحد الطريق مهملاً تلك العلامات ساخ في تلك السباخ ولم يستطع أحد مساعدته "فلا يبين له اثر ولا يعرف له خبر ورفيقه إلى جانبه يراه وهو نازل لا يقدر أن ينفعه بشيء خوفاً أن يغوص معه"^(٤) ولذلك هلك فيها عساكر وجماعات وأفراد ممن دخلوها ولم يعرفوا أمرها أو استهان بتلك العلامات الموضوعة وذكر عن هذه السباخ أنه لا يعلم لها آخر وإنما امتدت في تلك الصحارى ويقال أنها متصلة ببلاد غدامس^(٥)، ويؤكد الواصفون لها أن جميعها ملاحات، وتلك السباخ المتصلة فيها موضع بين نقطة والحامة يعرف باسم السبع سباخ^(٦)، ومن عجائب هذه السباخ أنه في وسط الطريق المار من مدينة توزر إلى نفاوة جزيرة فيها ماء عذب يتزود منه من يسير وسط هذه السباخ ولكن إذا سار فيه الناس في فصل الصيف خاصة يكادوا يهلكون من حرارة الملح ويرجع ماؤهم وهو في الرقاق ملجأ ولا يقدر أحد على شربه إلا أن يمزج بسكر أو عسل^(٧).

(١) رضوان البارودي : جربة التونسية - دراسة في التاريخ السياسي والحضاري في العصر الإسلامي ، دار الفكر العربي سنة ١٩٩٠م ، ص ٧٤ برنشفيك : المرجع السابق ح ٢ ، ص ٢٧٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ،

م ٦ ترجمة عبد الحميد يونس وآخرون ص ٣٤٧ ، DeMas Latrie: Op. Cit. pp 221-222.

(٢) مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص ١٥٨ ، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ح ٤ ، تحقيق د/حمزة أحمد عباس أبو ظبي سنة ٢٠٠٢ ط ١ ، ص ١٦٤ ، التجاني : المصدر السابق ، ص ١٥٤-١٥٦ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٥٧٨.

(٣) وينقل العمري عن شخص مغربي يعرف بالسلالجي قوله "سمعت أن هذه الأعلام وضعتها هناك أبو إبراهيم بن إسحاق بن غانية الميورقي النائر على الموحدين بأفريقية راجع ، المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥ ولكن توجد هذه السبخة قبل ذلك بكثير يقطع بأن ما قبله ابن غانية تكملة لما وضع قبل ذلك من أخشاب كعلامات.

(٤) العمري : المصدر السابق ص ١٦٤.

(٥) الاستبصار ، ص ١٥٨ ، الحميري : المصدر السابق

(٦) الاستبصار ، ص ١٥٨.

(٧) الاستبصار ، ص ١٥٨.

ولما تحدث اليعقوبي^(١) عن بلاد قسطنطينية قال أنها أربع مدائن وهي توزر والحامة وتقيوس ونقطة وقال بأن هذه المدائن الأربع محاطة بأربع سباح ولا شك أنها تلك الملاحات المتسعة المتصلة التي أطلق عليها البعض اسم السبخة العظيمة^(٢) والبعض الآخر اختار لها اسم سبخة توزر^(٣) والبعض الثالث اسم سبخة تاكمرت^(٤) مما يدل بالفعل على كبر مساحتها وقد انفرد التجاني^(٥) بوصف هذه الملاح الكبيرة بقوله "الملاح المجاورة لتوزر من غرائب الدنيا التي أغفلها المؤرخون وأهمل وصفها الإخباريون فإنها أميال في أميال سطحا واحدا كاللجين المسبوك والمرمر المحكوك يكاد ينفذه البصر لصفائه وكأنما هو غدير جمد بمائه وإن وقت صلاة الصبح الناس يمشون فيها ويصلوا فيها على بساط من الكافور أو سطح من البللور وهو ما يحتمل معه تغير مواصفات هذه الملاح الكبيرة الطبيعية أو أن التجاني وصف جزء منها وهو المجاور لتوزر فقط .

ومن ملاحات المغرب الأدنى المشهورة ملحاحات وسباح المهدية المتعددة المنتشرة في جهاتها المختلفة سبخة قاساس وسبخة القطيعة وسبخة الليانة غربا^(٦) وسبخة ابن عياض جنوبا وكانت إلى عهد قريب تستخدم لاستخراج الملح ولذلك ألصق بها اسم سبخة الملح^(٧) وسبخة الأندلس شمالا وسبخة متاع المكنين^(٨)، وقد ارتبط اسم وادي الملح بالسباح الغربية^(٩).

(١) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي : كتاب البلدان، يلي المجلد السابع من كتاب الأعلام النفيسة لابن رسته طبع لندن سنة ١٨٩٣ ص ٣٥٠.

(٢) العمري : المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣) الاستبصار ، ص ١٥٨.

(٤) التجاني : المصدر السابق ، ص ١٥٤، ١٥٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٦) الداعي إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت سنة ١٩٨٥، ط ١ ص ٣١٥ هامش ١٦٢.

(٧) نفسه

(٨) نفسه

(٩) نفسه . وادي الملح هذا هو الوادي الذي قامت فيه المعارك المشهورة بين الفاطميين وأبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار. راجع الداعي إدريس: المصدر السابق ص ٣٠٦، ٣١٤ ابن عذاري : البيان المغرب ح ١ ص ٢١٨ الدباغ : معالم الإيمان ح ٣، ص ٢٩، ح ٤، ص ١٠٥.

ونذكر الجغرافيون^(١) أنه بقرب مدينة المنستير ملاحه مستغلة ولا ندرى هل هي نفسها ملاحه لمطة تلك القريبة من مرسى المدينة وملحها لا يفوقه ملح^(٢) أم هما ملاحتان مختلفتان فموردهما الأول هو البكري ذكر الأولى مرتبطة بالمدينة في حين ذكر الثانية مرتبطة بمرسى المدينة .

وإذا اتجهنا إلى جهة أخرى من المغرب الأتني وجدنا الملاحات حول مدينة سوسة واشتهرت منها سبخة الكلبية^(٣) وملاحه أم الأصنام أو سبخة سيدي الهاني الواقعة بين سوسة والقيروان والتي ظلت مستغلة حتى القرن التاسع عشر^(٤) وبين سوسة والحمامات وقريبا من الأخيرة توجد السبخة الجرداء^(٥) .

وقد اشتهرت مدينة قرطاجنة بظهور ملحها منذ فترة طويلة قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب^(٦) ويؤكد البكري^(٧) وجود الملاحات بمدينة قرطاجنة بقوله "داخل مدينة قرطاجنة ميناء كانت المراكب تدخلها وهي اليوم ملاحه عليها قصر رباط " .

وقبل أن نتجه لمدن الشمال في المغرب الأتني نخرج على مدينة القيروان التي وجد حولها بعض الملاحات اذ وجد في شرقيها سبخة ملح عظيمة مستغلة^(٨) وهي تلك السبخة التي أشار لها عقبه بن نافع عند تأسيسه المدينة قائلا "قربوها من السبخة فإن أكثر دوابكم الإبل فتكون إيلكم على بابها في مراعيها أمنة من البربر"^(٩) ومعلوم أن تلك السبخا ينبت فيها بعض الأعشاب

(١) البكري : المغرب، ص ٣٦ ، ياقوت : معجم ، ص ٢١٠ ، الحميري : الروض، ص ٥٥١ .

(٢) البكري : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية التاريخ السياسي ١٨٤-٢٩٦هـ / ٨٠٠-٩٠٩م تعريب المنجي الصيادي

مراجعة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٥ ط ٢ ، ص ١٩٩ الخريطة .راجع كذلك دائرة

المعارف الإسلامية والتي يذكر فيها أن هذه السبخة جنوبها أيضاً سبخا كثيرة راجع م ٦ ص ٥٠ .

(٤) محمد حسن : المدينة والبادية، ص ٤٧٣ ، الطالبي : المرجع السابق ، ص ١٩٩ الخريطة ، دائرة

المعارف الإسلامية م ٦ ص ٥٠ .

(٥) التجاني : المصدر السابق ص ٢٤ .

(٦) راجع : الاستبصار ص ١٢٤ ، البكري : المغرب ح ٤٢ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٩) الاستبصار ص ١١٤ .

والشجيرات الصالحة لرعى الدواب التي تحتاج هي الأخرى للملح ويبدو أن مراعي تلك السبخا صارت عديمة الفائدة للمدينة أو قلت أعشابها النابتة إلى حد أن وصف العبدري^(١) المدينة وما حولها بقوله بأنها "سبخة قرعة لا ماء فيها ولا مرعى". وهذه الملاحه هي نفسها التي ذكرها اليعقوبي^(٢) وقال بأنها "سبخا في قبلة المدينة حيث وادي السراويل الذي يأتي فيه ماء مالح في سبخا الناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه" وذكر التيجاني^(٣) سبخة أخرى في جوف المدينة تسيح فيها مياه وادي زروود النابع أصلاً من قران ولكن لم يذكر لنا هل استغلت هذه السبخة من جانب السكان القيروان أم لا ؟

وبين القيروان ومدينة سوسة وإلى الشمال من القيروان تقع سبخة الشريطة وهي شمال سبخة الهاني القريبة من سوسة^(٤) وبين القيروان ومدينة المهدية توجد سبخة بنى معروف تلك السبخة التي نزل بها القائم بأمر الله الفاطمي في ٣١٥هـ / ٩٢٩م وبات فيها وأقام أربعة أيام وذلك في طريقه لإخماد تمرد البربر في المغرب الأوسط^(٥) ويشير ابن الزيات الزياتي^(٦) إلى وجود ملاحات مستغلة في جبال الأوراس.

وإذا صوبنا النظر تجاه الشمال ومدنه على الساحل فمن خلال المصادر علمنا أن تونس نفسها ما هي إلا أرض سبخة^(٧) أي أنها ملاحه كبيرة استغلها أهلها في استخراج الملح ومن هنا وجدنا في فتاوى البرزلي^(٨) ذكر اسم عام مفرد وهو "ملاحه تونس" أو جمع لتلك الملاحات تحت مسمى "ملاحات تونس" كالسبخا الآن بتونس أو "الملاحات التي حول تونس"، وهو ما يعني

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري : رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية ، سلسلة الرحلات رقم ٤ تحقيق محمد الفاسي جامعة محمد الخامس الرباط سنة ١٩٦٨ ص ٦٤ ،

(٢) البلدان ص ٣٥٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٤) محمد حسن : المرجع السابق ص ٢٢٦ .

(٥) الداعي إدريس : المصدر السابق ص ٢١٥ .

(٦) وصف أفريقيا ص ٤٧٥ .

(٧) العمري : مسالك الأبصار ، ج ٤ ص ٨٩ ، الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي : كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٥ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية ، الذخائر ١٣٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٥ ص ١٠٢ .

(٨) ج ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٥٦ .

تعدد ملاحاتها حتى صارت وكأنها واحدة وقد أمدتنا المصادر الأخرى بما يؤكد انتشار الملاحات حولها على مسافة أو قريب منها فمن ملاحاتها المشهورة تلك الملاحة الكبيرة التي تقع قبلى ربض المرضى وهو خارج أسوار المدينة ^(١) كما انتشرت السباخ حول مدينة تونس والتي استخراج الأهالي الملح منها لاستعمالهم الخاص ^(٢) . وينبأنا الزياتي ^(٣) أن نهر مجردة الشهير النابع من الجبال القريبة من الزاب والمتجه شمالا يصب فى البحر عند مكان شهر باسم غار الملح وذلك على مسافة أربعين ميلا من تونس . وقريبا من المدينة وجدت ملاحه سبخة مقرين ^(٤) .

ومن السبخات المشهورة بالمغرب الأدنى سبخة سيجوم أو السيجومي التي بجوار قلعة تحمل نفس الاسم ^(٥) . وأخيرا نذكر من ملاحات المغرب الأدنى ملاحه مدينة بسكرة الشهيرة تلك التي كان يستعمل ملحها الفاطميون ^(٦) وتقع فى منطقة الوطاية شمال غربي بسكرة ^(٧) . وتفيدنا المراجع أن غدامس ومنطقة كوار من المناطق التي تنتج الملح وتصدره عن طريق مدينة بالما التي كانت هى الأخرى من مناطق إنتاجه ^(٨) . وأن مدينة صفاقس كانت تنتج الملح البحرى

(١) راجع البكري : المغرب ص ٤٠ ، ياقوت : معجم ، ح ٢ ص ٦١ .

(٢) محمد حسن : المرجع السابق ص ٥٤٧ .

(٣) وصف ص ٦٢٩ راجع كذلك "برنشفيك : المصدر السابق ص ٣٣١

(٤) البرزلي : فتاوى ، ح ٦ ص ١٧٧ .

(٥) وهي التي انهزم فيها أبي عمارة أحمد بن مرزوق الثائر على أبي إسحاق إبراهيم بن زكريا الحفصى راجع : أحمد بن أبي الضياف : إتحاق أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ح ١ تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار ، تونس سنة ١٩٦٣ ط ١ ص ١٦٦ عن هذه السبخة راجع كذلك دائرة المعارف الإسلامية م ٦ ص ٣٠ .

(٦) راجع البكري : المغرب ، ص ٥٢ ، ياقوت : معجم ، ح ١ ص ٤٢٢ الحميري : الروض ، ص ١١٤ .

(٧) برنشفيك : المصدر السابق ص ٢٣٩ ، الهادي روجي إريس ، الدولة الصنهاجية ، تاريخ أفريقيا فى عهد بنى زيري من القرن السادس إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، ح ٢ نقله إلى العربية حمادي الساطي ، دار

الغرب الإسلامى ، بيروت سنة ١٩٩٢ ط ١ ص ٥٢ . Mas Latrie: Op.Cit P 224.

(٨) عبد الله عبد الرازق : الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة

١٩٨٤ ص ١٨١ . H.T. Fisher: The Central Sahara and Sudan, in the Cambridge history of Africa, volume 4 from 1600 to c. 1790 c.Edited by Richard Gray Cambridge university Press 1994. p86.

وكذلك الملح الصخري الذي تمتد سبخاته في الصحراء جنوب صفاقس ويستلزم الأمر إحضار بلدوزر لاقتلاع الملح من سبخاته الجافة وقد اشتهرت بتصديره في العصر الحديث^(١) .

وإذا يمينا وجوهنا تجاه المغرب الأوسط فلا شك عندنا بوجود ملاحات ساحلية ولكن للأسف لم تمدنا مصادرنا بإسماء أى منها ، كما إن المعلومات نادرة عن الملح في الداخل إلا ما يذكر عن مدينة تاهرت وما يحيط بها من جبال وأودية في بعضها سباح^(٢) وعن مدينة سجلماسة بان أرضها سهلة سبخية^(٣) أو ما يذكر من بعض الملاحات في العصور الحديثة مثل سبخة وهران القريبة من هذه المدينة^(٤) وهوما يعنى وجود ملاحات مستغلة لو أنها قليلة ويؤكد كلامنا هذا بما ذكره الزياتي^(٥) عن الملح في المغرب الأوسط " فإنه نادر نوعا ما ولكنه كاف للحاجات المحلية " أما ملح الصحراء في المغرب الأوسط فلا يعرف إلا ما ذكره البكري في المغرب^(٦) "عن مدينة تونك بصحراء المغرب الأوسط التي بها معدن الملح وكان مستغلا ويصدر إلى بلاد السودان عن طريق تادمكة التي تبعد عنها بست مراحل .وما يذكر حديثا عن سبختي شنونيان وتندوف على الأطراف الجنوبية بين الجزائر والمغرب^(٧) .

أما المغرب الأقصى فقد كثرت فيه الملاحات واشتهر عدد منها عالميا وتوزعت هذه الملاحات على السواحل وفي الداخل حول المدن وذلك في الصحراء الممتدة حتى السودان فقد

(١) كيرلاتسكي : تاريخ الملح ص ٣٣١ .

(٢) اليعقوبي : البلدان ص ٣٥٨ .

(٣) العمري : مسالك ح ٤ ص ٢١٠ ، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي بن جمال الدين محمود المشهور بابي الفدا: تقويم البلدان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة سنة ١٤٢٧ هـ / سنة ٢٠٠٧ م ط ١ ص ١٥٥ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية م ١١ ص ٢٣٦ .

(٥) وصف أفريقيا ص ٦٥٧ .

(٦) ص ١٨٣ .

(٧) كيرلاتسكي: المصدر السابق ص ٤١ .

ذكر البكري^(١) ملاحه كبيرة في قرية تاهدرات غرب أصيلة " ، وفي أحواز مدينة طنجة وعلى وادي مضى توجد ملاحات متعددة مستغلة وما زالت حتى الآن^(٢) .

وفي الداخل اشتهرت ملاحه مدينة فاس الكبرى التي تميزت بها عن بقية المدن وتفردت بكثرة الإنتاج لامتدادها واتساعها فهي تمتد على مسافة ثمانية عشر ميلاً شمال شرقي مدينة فاس على بعد ستة أميال منها وذلك من منطقة تعرف بمجشر الشاطبي إلى منطقة تعرف بدمنة البقول بوادي مكسن على شكل ملاحات متصلة^(٣) تتخللها المزروعات والحرث وعد ذلك من بركات هذه الملاحه فقيل " ومن بركة هذه الملاحه أنها كانت تحرث بالزرع فتجد الفدانيين من الأرض في وسط الملح مخضرة ناعمة تتمايل حافاتهما فضلاً من الله وبركة منه"^(٤) "وما تزال ملاحه فاس مستغلة حتى الآن^(٥) إذا أخذنا باجتهاد لوتورنو^(٦) في تفسير اسم حي الملاح في فاس فإن هذا الحي يعد من الأماكن المنتجة للملح إذ يذكر انه كان غنياً بالملح أو أن واد مالح يمر قريباً منه .

ويذكر ابن سعيد^(٧) ملاحه بلاد حاحه إلى الشمال الغربي من مراكش ، وقريباً من تامسنا وجد منجم أمدرور الذي استخدمه الطوارق حديثاً لاستخراج الملح^(٨)

(١) المغرب ص ١١٣ .

(٢) أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، تحقيق عبدالوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ط ٢ ص ١٣٣ هامش ٢٢٦ ووداي مضى واد شهير يقع مجراه عند مدينة سوق الأربعاء ، وفيه التقى جيش الأندلس بقيادة عبد الملك المظفر بن أبي عامر وزيرى بن عطية.

(٣) عن هذه الملاحه راجع أبا الحسن علي الجزنائي : كتاب تاريخ فاس المعروف بزهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق وتعليق ودراسة مديحة الشرقاوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ط ١ ص ٣٥ ، ابن أبي زرع : الأنيس ص ٤٤ .

(٤) الجزنائي : المصدر السابق ، ابن أبي زرع : المصدر السابق

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ٤٤ هامش ٦٤ .

(٦) روجيه لوتورنو : فاس في عصر بني مرين ، ترجمة تيقولا زيادة ، سلسلة مراكز الحضارة ، مكتبة لبنان . ١٩٦٧ ص ٣٥

(٧) بسط الأرض ص ١١٧ راجع كذلك عز الدين موسى : النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري دار الشروق ، بيروت القاهرة سنة ١٩٨٣ ط ١ ص ٢٤٩ .

وإذا اتجهنا جنوبا وقبل أن نصل إلى الصحراء الكبرى نجد ملاحه مشهورة فى جبل درن وهو موضع سماه صاحب المغرب^(٢) "الملاحه" ويخبرنا ابن عذارى^(٣) أنها كانت قرب قرية تعرف بتاجموت من هذا الجبل.

وانتشرت الملاحات فى صحراء المغرب الأقصى فأول ما يقابلنا من ملاحات الصحراء ملاحه نولمطة الشهيرة فى موضع تغازى التى ذكرها أغلب الجغرافيين والمؤرخين^(٤). ووصفوا الحياة فيها لمستخرجى الملح من العبيد الذين كانوا يتعيشون على ما تأتى به القوافل وأنهم كانوا يسكنون فى بيوت كلها من الملح الصخرى حيطانا وأعمدة.

وقليلا إلى الجنوب الشرقى من تغازى توجد ملاحه أخرى مشهورة هى ملاحه تاوده أو تاوديني الحديثة التى عرفت أيضا باسم تغازى الغزلان أو الجديدة وتقع على بعد ١٥٠ كم من تغازى^(٥). وإلى الجنوب منها وشمال مدينة إدرار وجد منجم الدجيل "العجيل" الذى اشتهر فى أواخر العصور الوسطى وأوائل الحديث^(٦).

(١) إسماعيل العربى: الحياة الإقتصادية والاجتماعية عند طوارق أمجار، مجلة الأصالة عدد خاص عن تاريخ منطقة الهوقار بمناسبة انعقاد الملتقى (١٣) للفكر الإسلامى بعاصمتها تمراست، وزارة التعليم الأصلى والشبلون الدينية الجزائر، السنة الثامنة رمضان ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ص ٤٣.

(٢) البكري ص ١٦٠ راجع كذلك ابن سعيد : بسط الأرض ص ٥٧.

(٣) حيث يذكر ذلك فى نكبة الوزير الكاتب الموحدي أبى جعفر بن عطية حيث سجن أولاً ثم أخذ من سجنه هو وأخوه وحملوا إلى جبل درن وقتلا بتاجموت قرب الملاحه سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م راجع ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتانى دار الغرب الإسلامى بيروت سنة ١٩٨٥م.

(٤) عن هذه الملاحه راجع ابن سعيد: بسط الأرض ص ٤٧، ياقوت :معجم ح ١ ص ٢٨٣، القزوينى :آثار البلاد ص ٢٥-٢٦، الحميرى: الروض ص ٥٨٤، أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتى المعروف بابن بطوطه ، :تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ح ٢، تحقيق على المنتصر الكتانى ،مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٥هـ ط ٤ ص ٧٧٣ ، ابن الوزان للزيتى: وصف أفريقيا، ص ٥٢٦.

(٥) راجع ما سياتى ص ٨٨-٨٩ من البحث.

(٦) A. Ann Mcdougall: The View from Awdaghust war, Tarde and social change in the south Sahara from the eighth to the fifteen Century, in Journal of African history, volume 26, number 1, Cambridge University press, 1985, P 20- 21.

وإذا تركنا صحراء لمطة ومسوفة واتجهنا جنوبا إلى نيار قبيلة جدالة وجدنا ملاحظتها الشهيرة في مدينة أوليل التي اشتهرت بأنها مدينة معدن الملح وهي قرب المحيط^(١) بينها وبين أودغست مسيرة شهر^(٢).

هكذا كانت الملاحات منتشرة في بلاد المغرب من شرقها إلى غربها وفي شمالها وصحراوتها وما بقي علينا إلا أن نتعرف على كيفية استخراج المغاربة لهذا المعدن.

ثانيا - كيفية استخراج الملح ببلاد المغرب

تواجدت إذا العديد من الملاحات في بلاد المغرب الإسلامي ، ويلاحظ أن هذه الملاحات كانت إما سبخات وإما مناجم في الجبال والصحراء وهوما يعنى ان هناك عوامل طبيعية أثرت تأثيرا كبيرا في تواجد الملح في هذه المناطق فالسبخات المنتشرة في بلاد المغرب وخاصة الأدنى منه نتيجة للمياه المالحة التي تفاعلت مع التربة وعوامل المناخ الأخرى وبالذات من الشمس مكونة أملاح السبخات ، وإذا نظرنا إلى هذه السبخات وموقعها نجدها إما قريبة من البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي على سواحل بلاد المغرب الشمالية والغربية وإما أنها علي أو بجوار أودية تجرى فيها المياه المالحة أو بحيرات مالحة أو حتى عيون طبيعية مالحة ، وهذه المصادر المتعددة للمياه المالحة كانت كثيرة ومتوافرة في بلاد المغرب من شرقه إلى غربه فمن الأودية واد في الطريق بين طرابلس وبرقه بالقرب من وادي يعرف باسم وادي السمار وهو وادي كبير تحف به مزارع كثيرة إلا أن مائه ملح أجاج لا يستساغ حتى مع الضرورة^(٣)، و بمنطقة الهائشة وسبختها مياه مالحة ملح أجاج لا يكاد يساغ ولا يستسقى منه إلا من اضطره العطش أيام الحر وبأخرها أي الهائشة وادي مالح تجرى فيه المياه المالحة فلا الملح المتجمد

راجع كذلك مقالة Stories of Salt, Slavery and life in the Sahara, University of Alberta 2001 على الموقع www.humanitiesulberta.ca.

(١) راجع الإدريسي : نزهة ص ١٨ ، ياقوت : معجم ص ٢٨٢ ، ابن سعيد : بسط ص ٤٧ ، العمري :

مسالك ح ١ ص ١٥٤ ، الحميري : الروض ص ٦٤

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩١ ، الإدريسي : المصدر السابق ص ١٨

* راجع الملحق رقم (٥) وفيه صور تبين كيفية استخراج الملح

(٣) راجع : العياشي : رحلته ص ٧٣.

ينوب أو يجمد هذا الماء ^(١). ويفترق عند مدينة تاجوراء واديان ينتهيان إلى البحر إحداهما وادي المجسر والثاني وادي القجار والأول منهما وهو وادي مجسر ملحا أجاجاً ولا سيما قرب البحر ^(٢)، وفي قبلة القيروان وادي ملح يعرف باسم وادي السروايل ^(٣).

وأشهر أودية المغرب على الإطلاق الوادي الملح المشهور بسبخاته وملاحاته المذكور آنفاً ^(٤) والذي حدد البكري ^(٥) موقعه بين مدينة تماجر ومدينة المهديّة وقريباً من هذا الوادي وادي يمر بزرمدين ويصب في سبخة المكنين ^(٦) وآخر يصب في وادي شين ثم في سبخة القطيعة ^(٧).

ومن أودية المغرب الأوسط المالحة وادي أوبة ^(٨) وهو وادي تجري فيه المياه مرة مالحة بين المسيلة وأشير ^(٩) وهناك مياه مالحة بين جبل سالات في الجنوب وكدي صنهاجة في الشمال ^(١٠) وذكر المقدسي ^(١١) وادياً قريباً من طبرقة ومن أودية المغرب الأقصى المالحة مكناسة فبين مدينة تازا ومدينة جرواة واديين أحدهما وادي صاع والثاني وادي وارجين والثاني منهما كان نهر ملح لمكناسة ^(١٢) وبين مدينة سجلماسة ومليلة تقع مدينة قلوع جاره وهي مدينة جليلة عامرة

(١) العياشي : المصدر السابق ص ١٨٩.

(٢) التجاني : رحلته ص ١٢١.

(٣) البعقوبي : البلدان ص ٣٤٩.

(٤) راجع ما سبق ص ٢٩.

(٥) المغرب ص ٢٩.

(٦) الداعي إدريس : تاريخ هامش ١٦٢ ص ٣١٤-٣١٥.

(٧) نفسه

(٨) ذكر ضمن الأماكن التي مر عليها المنصور الفاطمي وهو بطارد أبا يزيد صاحب الحمار سنة ٣٤٦هـ -

٩٥٧م راجع الداعي إدريس : المصدر السابق ص ٤٠٣.

(٩) ابن حوقل : صورة ص ٨٧، ٨٩ الداعي إدريس : المصدر السابق.

(١٠) الداعي إدريس : المصدر السابق ص ٤٠٤.

(١١) أحسن التقاسيم ص ٢٢٦.

(١٢) البكري : المغرب ص ١٤٢.

فى جبل على ماء ملح^(١) ولما تحدث الجغرافيون والمؤرخون عن ملاحه فاس الكبرى ذكروا من أوديتها وادي مكسن^(٢) وأشير كذلك إلى ملاحات وادي مضى المالح بين فاس وطنجة^(٣) أما البحيرات المالحة التى وهبها الله لأهل المغرب والتى أفادتهم فى اصطیاد الأسماك واستخراج الملح فمتعددة هي الأخرى واشتهر منها البحيرة التى تقع عليها مدينة تونس وهى بحيرة خارجة من البحر المتوسط طولها عشرة أميال وتونس على آخرها^(٤) قال عنها البكرى^(٥) "دورها نحو أربعة وعشرين ميلا" وبحيرة بنزرت المالحة التى بطول ستة عشر ميلا وعرضها ثمانية أميال وقد ذكرت هى وبحيرة تيجة القريبة من تونس والمتصلة بها وهى بحيرة عذبة وكانتا من عجائب الدنيا وذلك لاتصالهما عن طريق فم بينهما تصب كل منهما فى الأخرى ستة أشهر كاملة وذلك دون أن تؤثر احدهما على الأخرى فلا بحيرة تيجة تملح ولا بحيرة بنزرت يعذب مائها^(٦) وبجوار مدينة درعة مكان يعرف بالبربرية أمان تيسن ومعناها الماء المالح لما به من مياه مالحة^(٧).

كما وجدت العيون المالحة أيضا ببلاد المغرب وذكر منها عيون مدينة جرواة التى تقع خارج المدينة^(٨) وتلك العيون القريبة من واحة أوجلة^(٩) والأخرى الموجودة على مرتفعات الأوراس^(١٠)

(١) المصدر السابق ص ١٥٢

(٢) راجع على سبيل المثال ابن أبي زرع : الأتيس ص ٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٣ هامش ٢٢٦.

(٤) أبو الفدا : تقويم ص ١٦٤ ، القلقشندي : صبح ح ٥ ص ١٠٢.

(٥) المغرب ص ٣٩.

(٦) عن بحيرة بنزرت وأمرها العجيب مع بحيرة تيجة راجع القزويني: آثار البلاد ص ١٤٨ ، ابن سعيد: بسط الأرض ص ٧٧ ، الدمشقي : نخبة الدهر ص ١١٦ ، العمري : مسالك ح ١ ص ١٢٥ ، الحميري : الروض ص ١٤٧ أبو الفدا : تقويم ص ١٦٤ ، القلقشندي : صبح ح ٥ ص ١٠٥ ، المقريري : جني الأزهار ص ٧١.

(٧) البكري : المغرب ص ١٥٦.

(٨) ابن عذاري : البيان ح ١ ص ١٩٦.

(٩) وهى ثلاثة عيون متقاربة راجع البكري : المغرب ص ١٥.

(١٠) ابن الوزان الزياتي : وصف أفريقيا ص ٥٢٦.

ولا شك عندنا في الارتباط الوثيق بين هذه المياه المالحة وبين معدن الملح فمنها يتكون ويثبت ذلك أنه على الشواطئ الممتدة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي انتشرت الملاحات الطبيعية وبالذات في المغربيين الأدنى والأقصى فالثابت حديثاً أن معظم الملاحات موجودة على هذه الشواطئ في كل البلدان المطلة على هذين المسطحين المائيين المالحين ^(١) وثبت لدينا نحن كما مر من استغلال السكان للملاحات الموجودة بين برقة وطرابلس وكذلك ملاحه جربة ورأس المخير والمنستير وتونس وانظر إلى تاهرت القريبة نسبياً من البحر ولأنها على مستوى منخفض من البحر فقد تكون في بعضها سباخ ^(٢) وكل هذه ملاحات نتاج لمياه البحر المالحة ويؤكد لنا العياشي ^(٣) هذه العلاقة بقوله عن الوادي القريب من وادي السمار " إلا أن ماءه ملح أجاج لا يستساغ ولو مع الضرورة وقد جمد في أيام الحر فيصير سباخاً" أي ملاحات وتأمل ما قاله عن سبخة الهائشه "وبآخرها واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحا ولا الملح يذوب ماء ^(٤)" ولا شك أن الملح المتكون المتراكم الصلب من فترات طويلة لم يستغله أحد فجمد والماء ملح أجاج فلا يجد ما يحتويه من تراب الأرض فالأرض متشعبة بالملوحة وعيلها طبقات من الملح والماء شديد الملوحة وقد ساعدت رطوبة الجو على بقاء الوضع في المكان على هذه الحالة وعبر عن ذلك العياشي ^(٥) "وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل وذلك على العكس تماماً في مكان آخر بنفس السبخة ولكن في فصل الشتاء إذ لما تكاثرت الأمطار ولم يوجد من الملح شيء حتى للاستعمال الشخصي فطلبه أناس في القافلة التي كان يصحبها العياشي من أجل الاستعمال فلم يجدوه " لأن المكان صار كله ماء بكثرة الأمطار ^(٦) "ويذكر لنا التجاني ^(٧) في هذه العلاقة أن ملاحه قصر صنالح تكونت بفعل مياه البحر

(١) Fisher :The Cenral Sahra and Sudan, P 86

(٢) اليعقوبي :تقويم ص ٣٥٨

(٣) رحلته ص ٧٣.

(٤) نفسه

(٥) نفسه

(٦) المصدر السابق ص ١٨٩

(٧) رحلته ص ٢٠٧.

وتراكم فيها الملح سبع طبقات مع مرور الزمن ويقرر لومبار^(١) هذه الحقيقة بقوله مؤكدا على ازدهار صناعه تمليح الأسماك بفضل الملح المستخرج من البحر " الملح عنصر ضروري يستخرج من ملاحات على الشواطئ "

أما عن السباخ المتكونة بفعل المياه المالحة الداخلية فقد كانت ملائمة جدا ومهيئة لإنشاء ملاحات يستخرج منها مسلمو المغرب ما يحتاجون إليه من أملاح للاستهلاك الداخلي أو للتصدير فقد مر بنا كيف أنه نتج عن وجود الوادي الملح بين تماجر والمهدية وجود عدد كبير من سبخات الملح التي استخرج منها المغاربة الملح حتى الوقت الحالي^(٢)، وأن بحيرة تونس قد أثرت على تربتها فصارت تربة سبخية استخرج في العديد من مناطقها الملح^(٣). وما يذكر عن وادي السراويل الذي يقبل مدينة القيروان التي حمل المياه المالحة إلى سباخ الناس فيتكون الملح الذي استخدمه الأهالي في حوائجهم^(٤) وقرية القصبة التي بين أوجلة والواحات التي كان بها ثلاثة أعين ملحه يجتمع ماؤها في سباخ فتصير ملاحات طبيعية ومن العجيب أن نرى ملح أحدهما أبيضاً والثانية أحمرأً والثالثة أصفرأً^(٥) رغم التجاور والسقى بماء واحد ولا شك أن ذلك راجع إلى اختلاف التربة فسبحان من جعل في الأرض قطع متجاورات مختلفات التكوين. ولننظر إلى العيون المالحة المتولدة فوق جبال الأوراس وقد كانت تتساح في السهل ويتكون منها بعض المستنقعات وعندما يصبح الطقس حاراً تتحول هذه المستنقعات إلى ملاحات^(٦). وإلى ملاحه فاس الكبرى وسباخها والتي ما تكونت إلا بفعل المياه المالحة في الأودية المذكورة آنفاً^(٧).

(١) موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول من القرن الـ ٢ - ٥ الهجري / ١١ - ٨ م ترجمة وتعليق إسماعيل العربي منشورات دار الآفاق ، المغرب سنة ١٩٩٠م ص ٩٥.

(٢) راجع ما سبق ص ٢٩.

(٣) راجع البرزلي : فتاوى البرزلي ح ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٥٥.

(٤) راجع : اليعقوبي: البلدان ص ٣٤٨ ، أبو الفدا : تقويم ص ١٦٧.

(٥) البكري : المغرب ص ١٥.

(٦) الزياتي : وصف أفريقيا ص ٥٢٦ - ٥٢٧.

(٧) راجع ما سبق ص ٣٤.

توافرت إذا المياه المالحة سواء كانت بحرية أو داخلية من أودية وبحيرات وعيون لتكون الملاحات التي انتظم فيها الملح متبلورا أو شكل طبقه بيضاء منتظمة جاهزة للاستغلال ولكن هناك نوعا آخر من الملاحات وجد في بلاد المغرب بعيدا عن مصادر المياه المالحة وذلك في الصحارى والفيافي القاحلة البعيدة عن العمران والحضر بمسافات كبيرة . والاحتمال الأكبر أنها كانت نتيجة وجود مياه جوفية مالحة أو نتيجة لرسوبيات فيضانية قديمة أو أمطار أنزلت من السماء فوافقت الأرض العرق الملحة أصلا فتكون من ذلك الملح بفعل تبخر المياه وبقاء الملح مترسبا والذي جمد بمرور القرون وكونت طبقات سميكة بعضها فوق بعض وربما فصلها طبقات من التراب والرمال ^(١) فتكون نتيجة لذلك معدن الملح مثل غيره من المعادن الأخرى على هيئة مناجم في حاجة إلى من يستغلها وهو ما قام به المسلمون في تغازى وتاوده وأوليل وقصر صالح وغيرها .

والسؤال الآن كيف استخرج المغاربة هذه الأملاح؟

الواقع أن ما حبي الله به بلاد المغرب من أسباب طبيعية لتكوين الملاحات وبالذات من ملاحات السباخ قد وفرت على المغاربة الكثير من المجهودات من أجل الحصول على الملح واستخراجه فأن تكوين هذه الأملاح قد أتاح للمغاربة كسطها واستعمالها دون الحاجة إلى التجهيز والتهيئة لهذه الملاحات سواء كانت الداخلية أو الساحلية خاصة تلك القريبة من المدن حيث اعتاد الأهالي استغلالها في ظل ظروف أتاح للجميع الانتفاع بها حتى من الرحالة العابرين ^(٢) فلا حاجة لحرفية أو صناع مهرة لاستخراجه ، كل ذلك دون ان يتعرض لهم أحد من نوى السلطان من خليفة أو أمير أو وال بالمنع لان ذلك لا يجوز شرعا فلا المنع أو الاستغلال المفضى إلى الإحتكار سواء كان بالإقطاع أو الإحياء موجود في الشرع بالنسبة للملاحات إلا في حالات معينة أجازها بعض الفقهاء بالمغرب أو في حالات أخرى نتيجة إرادة الحكام احتكار جميع المناجم الموجودة في البلاد الواقعة تحت سلطانهم تسلطا ولذا وجدنا في بعض الأوقات استغلال الملاحات العامة لصالح الدولة وذلك عن طريق القبالات التي شاعت في العصر الفاطمي ^(٣) وكذلك في أواخر العصور الوسطى في عهد الدولة الحفصية والمثال الدال على ذلك

(١) راجع التجاني : رحلته ص ٢٠٧ .

(٢) راجع العياشي : رحلته ص ٧٤ ، ١٨٩ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان ، ص ٣ ص ٢٧ .

أمامنا ملاحه سبخة أم الأصنام أو سيدى الهانى التى كانت فى قبالة رجل يدعى سعيد الظاهرى وهومن الخواص فى العصر الحفصى^(١) ويبدو ان السلطان الحفصى المستنصر بالله (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٦م) قد أحس خطأ تقبل هذه الملاحه وأبرأ نفسه من ذلك فقرر إزالة القبالة التى عليها وتخصيص جزء من ماله الخاص لاستخراج الملح منها وترك استغلالها للأهالى كما جاء فى أحد الظهائر السلطانية المكتوبة بشأن إقطاع أحد الخواص أراضى ما بين القيروان وسبخة سيدى الهانى فيقول الظهير "وأبחנו الانتفاع بملاحتها على مرور الليالى والأيام إلى انقراض الزمان لا يعارضهم فيها معارض بوجه ولا بحال من الأحوال وأعطينا فى ذلك مالا من كسبنا"^(٢) وقد كان ذلك أثناء الحملة الصليبية على تونس ٦٦٨هـ / ١٢٣٠م وهوما عبر عنه الظهير "حين نزول عدو الدين بالحضرة العلية دمرهم الله وخذلهم"^(٣)

وهذا المثال يعطينا من خلال تفاصيله الواردة فى مصادرنا دالتين فى غاية الأهمية ولهما ما يؤيدهما فى الواقع المغربى الأولى بالنسبة للتجارة فى الملح وسوف نناقشتها عند الحديث عن التجارة الداخلية أما الدلالة الثانية ذات الأهمية هنا تتمثل فى المستقبل الذى يرعى هذه الملاحه ويكثريها من الحكومة مقابل أموال معلومة وهى القبالة مما يعنى أن هذا الشخص اهتم بهذه الملاحه إعدادا وتهيئة واستخراجا للملح منها ثم التصرف فى ملحها كيفما شاء. وقد اثار ذلك تساؤلات امام فقهاء العصر الحفصى فى أمر الاحتكار فبينوا لنا بما لا يدع مجالا للشك أثناء مناقشتهم للقضية^(٤) أن هناك نوعيتن من الملاحات النوعية الأولى : هى الملاحات الطبيعية التى كانت دون إحياء وتهيئة وهى بالتالى ملك الناس جميعا ولا يحق للسلطان أن يتدخل فى أمرها ويحتكرها ثم يقبلها وذلك لان هذه الملاحات بهذا الشكل كانت مثل المرافق العامة فى الدولة كالبحار والأنهار واستغلالهما فى النقل والاصطياد وكذا البحيرات أو البحائر التى يصطاد

(١) راجع الملحق رقم (٣) من البحث : برنشفيك: تاريخ أفريقية، ج٢ ص ٢٣٩، محمد حسن: المدينة والبلدية، ج١ ص ٢٢٦ وما بعدها ص ٥٤٧.

(٢) راجع الملحق السابق ذكره ، محمد حسن ص ٢٢٥

(٣) راجع الملحق السابق ذكره

(٤) راجع فتاويهم عند البرزلى : فتاوى ج٣ ص ٦٢٠، ج٤ ص ٤٢٩، ٤٥٤-٤٥٦.

منها الأسماك أو مكان الإحتطاب أو للغدران للاستقاء فكلها مرافق عامة للمسلمين لامقال للسلطان فيها لأنها من عند الله بغير واسطه^(١) .

أما النوعية الثانية والتي تهمنا في هذا المقام فتتمثلت في تلك الملاحات التي نجمت عن الإحياء والإعداد والتهيئة من جانب بعض الناس حكاما ومحكومين ولهم فيها حرية التصرف وإن كان البرزلى^(٢) يفتى بأن الملاحه إذا كانت بسبب من آدمى يكون ملكها للذى أحيّاها وإن كانت بالقرب من العمران فيجب أن يستأذن من ولى الأمر أو السلطان . وإن كانت بعيدة عن العمران فللذى أحيّاها وذلك دون إذن السلطان.

ونخرج من كل هذه أن هناك ملاحات قد أحييت وأعدت من أجل إستخراج الملح منها عن طريق أشخاص اعتبروها أملاكا خاصة لهم وتصرفوا فيها بالبيع والاستتجار تماما كتلك الأخرى المعدة من أولها إلى آخرها بمعنى قيام صاحبها بأعداد البرك وجلب المياه المالحة واتخاذ كافة الخطوات من أجل استخراج الملح. وتفيدنا وثيقة عند المراكشي بوجود مثل هذه الملاحات بكثرة وأنه كان يجرى عليها نظام القبالات الشرعية بكثرة بين الأشخاص وذلك في العصرين المرابطي والموحدي^(٣)

وفي كلتا الحالتين استخرج الملح بتقنية معروفة في الغرب الإسلامي عموما وهي التي اعتمدت على ما أمدهم الله به من عوامل طبيعية من ماء ملح وشمس وهواء وهوما تستمده من فتاوى البرزلى^(٤) وكتاب وثائق المرابطين والموحدين^(٥) وكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار^(٦).

(١) المصدر السابق ص ٤٢٩، ٤٥٤.

(٢) المصدر السابق ح ٤ ص ٤٢٩.

(٣) راجع عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٧م ط ١ ص ٤٥٩.

(٤) راجع المصدر السابق ح ٣ ص ٦٢٠.

(٥) راجع الملحق رقم (٥) من البحث .

(٦) راجع محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات تحقيق ونشر وشالميتا. ف كورينطي، مجمع الموثقين المجريطي، المعهد الأسباني للثقافة مدريد سنة ١٩٨٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

فالملاحه فى الغالب كانت بخارج المدينة أو للقرية وتكون قريبة جدا من أحد مصادر المياه الملحة وكانت الملاحه ذات مساحات كبيرة تعد فيها أحواض يجلب إليها المياه المالحة عن طريق سواقى توزع المياه على هذه الأحواض، ثم تترك هذه الأحواض للشمس حتى تملح ثم يكشط هذا الملح بعد أن تتكون الطبقة الملحية المختلفة السمك من ملاحه إلى أخرى وذلك تبعاً لحاله الجو وحرارة الشمس وشده الرياح أي العوامل التى تساعد على تبخر الماء وترسب الملح وبعد أن يكشط هذا الملح يجمع ويوضع أبيضاً فى أفنية الملاحه المعدة لذلك .ثم يغسل الملح و يعبئ بعد ذلك جريشاً كان أو مدقوقاً وهوما عبر عنه " ملح أبيض جريش طيب وهو الغليظ أو : دقيق أبيض نقى طيب غاية الطيب " (١)

أليست هذه الطريقة فى استخراج الملح وإعداده هي ذات الطريقة التى تحدث عنها صاحب تاريخ الملح فى العالم (٢) وقد علق على ذلك واضعاً الاحتمال بأن مسلمى شمال أفريقيا أول من صمم هذا النظام وذلك بعد أن نفى عن الصينيين -الذين عزا إليهم كل شئ فيما يخص الملح- هذه الطريقة لسبب بسيط هو أن هذه الطريقة أى التبخير الشمسى تنتج ملحا جريشاً وليس ناعماً وهوما لم يفضلوه الصينيون (٣) وهو لا يعلم أن مسلمى شمال أفريقيا استخرجوه جريشاً وناعماً كذلك وفى كلتا الحالتين كان طيباً معداً للاستهلاك مما يعنى خبرتهم الطويلة فى هذه التقنية فى كل المغرب الإسلامى شرقاً وغرباً ويؤكد لدينا ذلك هوبكنز (٤) بقوله " ان ملح بالما فى صحراء المغرب الأدنى وملح أوليل فى الغرب بصحراء جداله كان يتم الحصول عليه بنض "بترشيع" التربة الملحية ، وهناك شاهد عيان لاستخراج أهل فزان را هنا الملح بهذه الطريقة حيث خبروها من الأزمنة القديمة فهم يقومون بكشط الملح من السبخات الجافة وإعداده لاستهلاك ثم منهم من عملوا على غلي القشرة المترسبة فى قيعان السبخات لإنتاج بلورات صافية

(١) ابن العطار: المصدر السابق ص ٢٠٠، المراكشي : المصدر السابق ص ٤٥٩.

(٢) راجع كيرلانسكي : المرجع السابق ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق .

(٤) هوبكنز: التاريخ الإقتصادي لأفريقيا الغربية ص ٩٢-٩٣ .

راكموها على هيئة أسطوانات بيض بارتفاع متر تقريبا وإعدادها للتصدير، ومازال الملح ينتج بهذا الشكل حتى الآن^(١).

وإذا كانت هذه طريقة استخراج الملح البحري أي المعتمد على المياه المالحة من البحار والأودية والبحيرات والعيون^(٢) فكيف استخرج المغاربة النوع الثاني من الملح وهو الملح الصخري؟

الحقيقة أن استخراج الملح كمعدن كان مثل غيره من المعادن التي اشتهرت بها بلدان المغرب و جودا واستخرجوا مثل الحديد والنحاس والفضة وكذلك الرخام إلخ، والإدريسي في نزهته^(٣) قد ترك لنا وصفا لما شاهده من استخراج معدن الزئبق من حصن أبال شمال قرطبة حيث كان يخدمه أزيد من ألف رجل يقوم للنزول فيه وقطع الحجر وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن وقوم لعمل أواني سبك الزئبق وتصعيده وقوما لشأن الأفران والحرق^(٤)، قال رأيت هذا المعدن فأخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفله أكثر من مائتي قامة وخمسين .

ولا شك أن استخراج الملح كان أسهل بكثير من استخراج الزئبق أو الرصاص فهو لا يحتاج للحطب أو إلى الحرق ولا أواني لسبكه أو تنظيفه بالتصعيد ولم يكن كذلك في أعماق كبيرة جدا وإنما كان على أعماق ليست بعيدة عن سطح الأرض^(٥) في أماكن متعارف عليها بين سكان المناطق القريبة منها أو حتى البعيدة بعد البحث عنه وتحديد مكانه مستغلين إياها أفضل استغلال وذلك لشدة الطلب عليه في الداخل والخارج وذلك لنقائه الطبيعي فضلا عن قيمته التجارية وسعره الذي فاق الذهب ببلاد السودان^(٦) ولهذا أجهد سكان المغرب من مستخرجي الملح أنفسهم

(١) راجع مولاي عمر: الماء والملح والكبش عند الأمازيغ مقالة منشورة في موقع

www.atlaselmagrebmaktooblong.com

(٢) هي ذات الطريقة التي يقوم بها أهل المغرب وخاصة في صفاقس في الوقت السراهن راجع كيرلانسكي:

المصدر السابق ص ٢٣١.

(٣) ح ٢ ص ٥٨١.

(٤) راجع كذلك: فتاوى البرزلي عن استخراج الرصاص ح ٤ ص ٤٥٥.

(٥) يقول مكدوجال في محاضرة ألقاها في جامعة ألبرتا في ٢٠٠١م بعنوان *Stories of Salit , Slavery*

and life in the Sahara أنها تبعد بضعة أقدام في منجم الدجيل راجع المقال على الإنترنت في موقع

في حين ذكر هوبكنز (التاريخ الاقتصادي ص ٩٣) أنها في تغازي وتاوديني على بعد سبع طبقات.

(٦) راجع ما سيأتي ص ١١٧ من البحث

فى طلبه من باطن الأرض متبعين نفس طريقه استخراج المعادن الأخرى وذلك عن طريق الحفر^(١) وعمل أنفاق تحت الأرض ثم القطع والنقل إلى خارج هذه الحفر والأنفاق ثم التقطيع من أجل الاستهلاك المحلى أو التصدير بالذات إلى بلاد السودان فمن منجم الوطاية بجبل بسكرة كان الملح يقطع منه كالصخر الجليل^(٢) مما يوحى أن معدن الملح لم يكن على مسافات عميقة فى الجبل ، ويذكر عن الملح الصخرى المستخرج من مدينة تغازى وما حولها من تاوديني والدجيل فى صحراء صنهاجة أن العمال وكانوا فى الغالب عبيد القبائل البربرية وعلى رأسها مسوفة الصنهاجية كانوا يحفرون على معدن الملح كما تحفر الأرض على سائر المعادن والجواهر وكان معدن الملح على بعد قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة^(٣) وقد استمر ذلك حتى العصر الحديث دون أن يفقد للملح كثرته بدليل ما يذكره ابن الوزان الزيأتى^(٤) أن هذا المعدن كان يستخرج عن طريق أنفاق تحفر ويقطع منها المعدن كما يقطع الجبس والرخام^(٥) ويؤكد هويكنز^(٦) أن تلك الحالة كذلك كان فى تاوديني والدجيل حيث كان العبيد يقومون بقطع القضبان من الملح وتحميلها وقد تم تنمية موارد الدجيل وهي على عمق سبع طبقات فيما بين القرنين الخامس والتاسع الهجرى / الحادي عشر والثاني عشر الميلادى^(٧) ومن العجيب أن العبيد المستخرجين للملح فى تغازى بنوا منازلهم بألواح الملح المقطوعة^(٨) التى تخرج ألواحاً ضخماً متراكبة كأنها نحتت ولصقت تحت الأرض^(٩).

(١) ويبدو أن لهذه الطريقة أصل عربى إذ ورد فى اللسان لابن منظور (ج ٣ ، ص ٢٣) وحفروا فأسبخوا أى بلغوا السباخ ويقال حفر بئر فأسبخ أى أنتهى إلى سبخة.

(٢) راجع البكري: المغرب ص ٥٢ ، ياقوت : معجم ج ١ ص ٤٢٢.

(٣) راجع البكري : المغرب ص ١٧١ ، الحميري : الروض ص ٥٨٤ ، ليون : وصف ص ٥٢٦.

(٤) وصف أفريقيا ص ٥٢٦.

(٥) ويتأكد لنا ذلك من إحدى فتاوى الونشريسي (المعيار، ج ٥ ص ١٣٦) لقوم من الصحراء أرسلوا يستفتون فى حكم السلم فى الملح والاختلاف فى الصفة التى يصح عليها ومن أقوالهم "أنهم كانوا لهم بالصحراء معدن الملح يستخرجونها من تحت الأرض ويقطعونها ألواحاً كاللواح الرخام.

(٦) التاريخ الإقتصادي ص ٩٣.

(٧) هويكنز: المرجع السابق.

(٨) راجع ابن بطوطة: رحلته ، ج ٢ ص ٧٧٣ ، ابن الوزان الزيأتى: وصف ص ٥٢٦.

(٩) ابن بطوطة : المصدر السابق ص ٧٧٣

ويشير التجاني في رحلته^(١) إلى أن طريقه الحفر والقطع هذه قد استخدمت أيضا بالسباح الأفريقية القريبة من البحر وقد علاها الملح كما احتوى بطنها الأملاح المتركمة المتطابقة على كر السنين والدهور ولم تستخرج إلا في العصر الإسلامي ومن هذه السبخات سبخة طرابلس في قصر صالح القديم المفضل ملحها على جميع السباح وقد ذكر أن أهل تلك الناحية أخبروه أنهم يرفعون الملح الذي على وجه السبخة حتى يصلوا إلى تراب الأرض ولما احتفروا قليلا من الأرض وجدوا طبقة أخرى من الملح ثم حفروا بعدها الأرض فوجدوا طبقة ثانية وفعلوا ذلك الحفر مرارا حتى وصلوا إلى سبعة طبقات من الملح والخلصة أن مسلمي المغرب استخدموا طريقه التبخير الشمسي ثم الكشط والجر للأملاح المتكونة بطريقة طبيعية أو عن طريق الإعداد والتهيئة وذلك بالنسبة للملح البحري أما بالنسبة للملح الصخري فقد استخدموا طريقه الحفر والقطع من أجل الحصول عليه كغيره من المعادن ولم يحتج المسلمون إلى طرق أخرى كذلك التي استخدمت من قبلهم مثل طريقه غلي المياه في جرار فخار أو نحاس مثلا والتي استخدمها الصينيون واليونانيون والرومان وأهل منطقة فزان أو استخدمها حتى الصقليون والأوربيون حديثا^(٢) وذلك لسبب بسيط وهو أن الملح كان متوفرا بهاتين الطريقتين ويمكن الحصول عليه دون عناء بحريا كان أو صخريا فليست هناك حاجة ملحة لإنتاجه عن طريق التبخير بالنار مع أنهم عرفوا كل العمليات الكيميائية التي من خلالها يمكن الحصول على الملح من تبخير وتصعيد وترسيب وتقطير وترشيح وإذابة وتبلور إلخ^(٣)

ونتيجة لوفرة معدن الملح والخبرة في استخراج وإعداده للاستهلاك ازدهرت تجارته داخليا وخارجيا وإن كان قد رخص سعره في الداخل وكانت تجارته إلى حد كبير غير مجزية فقد

(١) ص ٢٠٧

(٢) عن هذه الطرق ومن استغلها قبل المسلمين ومن بعدهم راجع كيرلاسي : تاريخ الملح في العالم، صفحات ٤١، ٥٥، ٥٩، ١٣١، ١٠٦، ١٣٢، ١٤٢. إلخ.

(٣) عن معرفة المسلمين لهذه العمليات الكيميائية راجع د عبد الفتاح مصطفى غنيم : مبادئ الحضارة العربية الإسلامية وآثارها على الحضارة الإنسانية، ج ٤ ، جيولوجيا التعدين والمعادن ، دار الفنون العلمية الإسكندرية سنة ١٩٩٤م ص ٢٤ ، مصطفى سليمان : تاريخ العلوم ص ٢٠٥ ، محمد مرجبا : الجامع في تاريخ العلوم ص ٣١٦ وما بعدها ، فاضل الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ص ٤٩ وما بعدها ، ص ٨٨-٨٩ ، ١١٦-١١٧ ، ص ١٦٦-١٦٧ ، ١٦٩ ... إلخ.

كانت على العكس من ذلك تماماً في التجارة الخارجية، فكيف كان ذلك ؟ وما هي الظروف التي أدت إلى ذلك ؟ هذا ما سوف نرصده في الصفحات التالية .

ثالثاً - تجارة الملح الداخلية

كثر الملح إذا ببلاد المغرب تواجدا واستخرجا بحيث صار في متناول الجميع لم يحتكره أحد ^(١) ولم يستعمل الأغنياء ملحا غير ملح الفقراء كما كان الحال في مناطق أخرى في العالم قديما وحديثا ^(٢) وإنما كان الملح في المغرب على موائد الفقراء والأغنياء كمادة أساسية لها أهمية قصوى في الغذاء وصحة الإنسان كالماء والهواء ، كما أدت كثرتة إلى الاستقرار وعدم قيام ثورات بسبب نقصه كما لم تتم حروب في المغرب ولا غيرها من بلدان الإسلام بسبب الملح كما حدث في العصور القديمة والوسطى والحديثة ^(٣) بل مع كثرة الملح وسهولة الحصول عليه للجميع صارت هناك تجاره نشطة لهذا المعدن الهام لأسباب متعددة وهي أولا: أن الشرع لم يمنع المتاجرة فيه على الإطلاق كما منع احتكاره واستغلاله استغلالا سيئا يؤذي الناس فلما عرض على الفقيه المازري ^(٤) كيفية استغلال المعادن ومنها الملح اعتبر أن ملكية الملاحه وطريقة استغلالها مرتبط بحكم الأرض مع إعطاء الأولوية لمصلحة المجموعة والفقير على الغنى وهو ما يفسر لنا سبب إعطائه للقضاة والعلماء دون ثمن وكذلك تخصيص حصة من ملحاح تونس للمدارس وكذلك للزوايا مجانا ^(٥) أما البرزلي الذي جوز امتلاك الملاحات المحيطة فإنه اقر بأن الملاحات الطبيعية ملك للمجموعة ولا يحق لأحد حتى من المخزن أي الحكومة

(١) كما كان عند الصينيين القدماء راجع كيرلانسكي : تاريخ الملح في العالم ص ٥٠، ص ٧٠. وكذلك عند الهامبورج بألمانيا وهنغريا حديثاً راجع : المصدر السابق ص ١٥٤.

(٢) عن هذا الموضوع راجع كيرلانسكي : المرجع السابق ص ١١٦ وما بعدها وص ٣٤٨ وما بعدها.

(٣) كما كان الحال في الصين القديمة ومن المدن الأوربية في العصور الوسطى وفي أمريكا في العصر الحديث على سبيل المثال راجع كيرلانسكي : المرجع السابق ص ٥٥، ص ٦٩، ص ١٥٧، ١٩٠ وما بعدها ، ٢٠٥ وما بعدها.

(٤) راجع فتاوى البرزلي ج ٤ ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٥) المصدر السابق ص ٤٥٦

التدخل لامتلاكها^(١)، وقد أعطت حالات حق التملك الفرصة لقيام هؤلاء الممتلكون بتصريف المنتج وبيعه في الأسواق بالداخل والخارج .

وثانياً- انه على الرغم من كثرة أماكن تواجد الملح بالمغرب الإسلامي إلا انه لم يكن في كل مدينة أو قرية ومن هنا كان اعتماد تلك المدن والقرى على ما في جاورها من مدن بها ملاحات وسبخات يستخرج منها الملح في الاستهلاك والمتاجرة .

ثالثاً- لان الملاحات التي ذكرنا في الغالب كانت في أطراف المدن وبعيدة عنها وفي الصحراوات لذلك بعدت المسافة مما شق على أغلب الناس الذهاب لاستخراج الملح من أجل الاستعمال أو حتى الادخار فاعتمدوا في ذلك على الجلاب والتجار .

وهذه الحاجة من جانب السكان في المدن والقرى دفع مجموعه من الناس لاهتمام بأمر بالملح وجلبه وتسويقه داخل المدن وفي الغالب كانوا من الفلاحين والبدو أو أولئك المشتغلون عند بعض الذين أحيوا ملاحات بعينها والقائمين على استخراجها ثم تسويقه لصالح ذلك المتقبل وهؤلاء كانوا يأخذون مقابل عملهم في الملاحه أجرا معلوما عينا أو نقدا^(٢)، وهؤلاء الجلاب خاصة من الفلاحين أو البدو كانوا يأتون للبيع أو المتاجرة خارج الأسواق وفي الأزقة ورحبات المساجد الجامعة في المدن والذين كانوا أحيانا يبيعون للتجار قبل أن يدخلوا المدينة ليقوم أولئك التجار بتوزيعه داخليا وقد عدت هذه المتاجرات من منكرات الأسواق لما يحدثه أولئك الجلاب من جلبه وضجيج في المساجد فضلا عن طرح بقايا سلعهم في أفنية المساجد وما إليه مما يؤدي إلى عدم نظافة المكان^(٣) أو لان هذا البيع عد من باب تلقى الركبان وبيع البأدى للحاضر والذين نهى عنهما الشرع ورغم ذلك ظلت هذه التجارة مستمرة رغم أن فقهاء المغرب على مر العصور المتعاقبة نهوا من تلقى الركبان وبيع البأدى للحاضر ما يجلبه من بقول وأخطاب وملح وحلفاء وتين إلخ

(١) المصدر السابق ص ٤٢٩ .

(٢) راجع فتوى المازري في فتاوى البرزلي ج ٤ ص ٤٥٥ .

(٣) عن هذا الموضوع راجع الوتشريسى: المعيار المغرب ج ٨ ص ٤٤٣، ج ١١ ص ٩٧ .

كما كان الجلاب يذهبون بهذه السلع إلى رحاب المساجد وزواياها للتجار بها أو مبادلتها ببيضائع أخرى^(١) بيد أن ذلك استثناء شاذ في تجارة الملح أو غيره من السلع المطلوبة وإنما الأساس في التجارة الداخلية كان التعامل في الأسواق المحلية تلك اليومية أو الأسبوعية التي وجد فيها باعة الملح أو تلك السلع الاستهلاكية الداخل في صناعتها الملح وخاصة الأسماك ومعالجتها وتعددت الإشارات في مصادرنا بما يفيد تواجد تجار الملح داخل أسواق المدن وفي دروبها فضلاً عن ساحاتها فيذكر صاحب كتاب ذكر مشاهير فاس في القديم^(٢) أن البربر احترقوا في الأندلس بجلب العديد من السلع كان منها الملح كما أنهم احترقوا ببيعته كذلك وارتبط اسم الملاح أي بائع الملح باسماء بعض العلماء والفقهاء المغاربة كابي عبد الرحمن محمد بن عمر الملاح الرواي عن أبي دحمان بن معافي بن حيون المتوفى ٣٠٢هـ / ٩١٤م^(٣) وآخر يدعى أبو القاسم عبد الرحمن بن الحاج الملاح الذي ذكره صاحب المستفاد^(٤) وكان هذا الرجل من الفضلاء الصالحين سالكا سبيل السلف وكان يبيع الملح بالقرب من منزل سكناه على الأرض دون حائوت وكان رأس ماله فيما يبيع ستة دراهم يؤدي منه كراء الموضع الذي يسكنه أهله وينفق على عياله ويتصدق .

وغير ذلك وجد أماكن خاصة لبيع الملح مثل الفنادق والتي هي عبارة عن عمارات تفتح حجراتها المستعملة كمخازن على ساحات داخلية متاحة للمشتريين مثل الفندق الذي كان بتونس والذي يذكر فيه أن من حسنات السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (٧٦٨-٧٧٤هـ / ١٣٦٦-١٣٧٢م) تركه بعض المجابي لوجه الله وذلك مثل مجبي فندق الملح هذا وكان

(١) للمزيد عن هذا الموضوع راجع : محمد فتحه : النوازل الفقهية والمجتمع ، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن ال ٩٥هـ - ١٢هـ / ١٥٠-١٢٠م) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء سنة ١٩٩٩ ص ٢٧٣ .

(٢) مجهول كتاب ذكر مشاهير أعلام فاس في القديم ، تحقيق محمد عبد القادر زمامه ، مجلة البحث العلمي العدد الثالث السنة الأولى جمادى الثانية ١٣٨٤ / سبتمبر ١٩٦٤م ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ح ٥ ، تحقيق محمد بن شريفة الرباط بدون ص ١٠٣ .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي القاسي : المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد ، القسم الثاني ، تحقيق د/ محمد الشريف ، تطوان سنة ٢٠٠٢م ط ١ ص ٦٤ .

مقدار مايجبى منه ألف ونصف دينار سنويا^(١) ، وفى سوق الرصيف بمدينة فاس وجد فندق الملح المشهور^(٢) مما يعنى النشاط المزدهر فى مدن المغرب فى تجاره الملح .

يدل كذلك على ازدهار وتجاره الملح ما فرض من قبالات على هذه السلعة فى عهد الفاطميين الذين فرضوا القبالات على الملح وهو ما دفع بعض الورعين إلى تجنب الشراء من أسواق الملح مثل الفقيه أبى الفضل العباس بن عيسى الممسي فلما جعلت القبالة على الملح فى عهدهم أرسل من يشتري له ملحا من أحد الأقران كان قد نقض حديثا^(٣) .

وكذلك ما فرض من قبالات فى العهد الحفصى كما يفهم من الحديث عن قبالة الملاحات الواردة فى النوازل وكذلك كما يستتج من الخبر الوارد بشأن أبى فارس عبد العزيز الحفصى مع فندق الملح كما مر سلفا .

ومما يدل على نشاط تجار الملح ملاحه فاس التى مدت المدينة بما تحتاجه حيث كثر جلابه من هذه الملاحه ومع كثرته كان يباع الحمل منه بدرهم فلا يجد من يشتريه^(٤) . وذلك فى سنوات الرخاء مثل ٦٥٨هـ / ١٢٥٩ م^(٥) ولكن فى وقت الأزمات السياسية يرتفع سعر الملح فيباع رغم ذلك لحاجه الناس إليه فيذكر انه لما حوصر أهل القيروان من جانب الخوارج فى عهد عمر بن حفص المهلبى هزار مرد (١٥٠-١٥٤هـ / ٧٦٧-٧٧٠م) ، انتهت عندهم أوقية الملح بدرهم^(٦) . وأثناء اضطراب الأجوال فى فاس خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، بدأ جلب التجار من ملاحه فاس يقل ولذلك ارتفع سعر الملح فى المدينة فبيعت العشرة أصوع بدرهم^(٧) ولما حاضِر السلطان المريني أبو يعقوب يوسف (٦٨٥-٧٢٦هـ / ١٢٨٦-

(١) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشى: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد

ماصور ، المكتبة العتيقة تونس سنة ١٩٦٦ ص ١١٧

(٢) الكتانى : سلوة الأنفاس ح ٣ ص ٤٥٥

(٣) القاضى عياض: المصدر السابق ص ٣٠٠

(٤) ابن أبى زرع : الأئيس المطرب ص ٤٤

(٥) والتى فتح الله فيها على أهل المغرب الخيرات ورأى الناس فيها الدعة والخير ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره فبيع الدقيق فيها بربع درهم والقمح بسنة دراهم والملح حمل بدرهم راجع ابن أبى زرع الفاسى :

الذخيرة فى تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة ، الرباط سنة ١٩٧٢م ص ٩٥

(٦) الزركش:المصدر السابق ص ٨٣ ، ابن عذاري :البيان ح ١ ص ٧٦ .

(٧) ابن أبى زرع: المصدر السابق ص ١١٧ ، عز الدين موسى :النشاط الإقتصادى ص ١٤٩ .

١٣٠٦) تلمسان الزيانية غلت الأسعار والأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد فوصلت أوقية الملح بعشرة دراهم.^(١)

وأخيراً مما يدل على تواجد تجارة الملح في مدن المغرب ونشاطها في الأسواق احتساب بعض الفقهاء على باعة الملح وذلك بوجوب أمرهم بتغطيته حتى لا تدب عليه الحشرات^(٢). وقد استمر هذا النشاط حتى أواخر العصور الوسطى بدليل ما يذكره الزياني^(٣) من أن الملح في المغرب الأوسط نادراً ولكنه كان كافياً للحاجات المحلية، وهذا يدل أيضاً على وجود النشاط التجاري الداخلي في الملح واستمراره دون انقطاع.

ولم تقتصر تجارة الملح الداخلية على المدن وأسواقها وتغذيتها من خلال الملاحات القريبة منها ولكن نشط تجار الملح في العمل على نقل الملح والاتجار به بين مدن المغرب المختلفة والدلائل على ذلك متعددة منها ما يذكر عن ملاح طرابلس التي يحمل منها إلى القيروان^(٤) وملاح مدينة تونس الكبيرة التي كان يحمل منها الملح لأهل المدينة وكذلك لما جاورها من مدن^(٥)، ومن ملاح المنستير يحمل الملح في المراكب إلى عدة مواضع ببلاد المغرب^(٦)، وكذلك من ملاح مرسى المنستير المعروفة باسم ملاح لمطة التي لا يفوق ملحها ملح آخر كان يحمل إلى ما جاورها من بلاد^(٧). ومن ملح بسكرة كان يحمل إلى المهدية عاصمة الفاطميين^(٨).

ولم تقتصر المتاجرة بالملح على الحواضر ومدن العمران في الشمال بل أن هذا النشاط كان كبيراً كذلك في مدن الصحراء حيث تركزت العديد من المدن المنتجة لهذا المعدن فمن معدن الملح في تغاري كان يتجهز به إلى مدينة سجلماسة^(٩)، ومن ملح أوليل عند بني جدالة كان

(١) ابن خلدون : العبر ، م ٧ ص ١١٣ ، الناصري : الاستقصا ج ١ ص ٨٦.

(٢) ابن عبدون: رسالته في القضاء والحسبة ضمن ثلاث رسائل في الحسبة والمحتسب ، نشرها ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ٥٥.

(٣) وصف أفريقيا ص ٦٥٧ .

(٤) عز الدين موسى : المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٥) البكري : المغرب ص ٤٠ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٦ .

(٦) البكري : المصدر السابق ص ٣٦ ، ياقوت : المصدر السابق ص ٥٥ ص ٢١٠ .

(٧) البكري : المصدر السابق ص ٨٤ .

(٨) البكري : المصدر السابق ص ٥٢ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٤٤ .

(٩) البكري : المصدر السابق ص ١٧١ .

الرفاق يحملونه إلى ما جاورها^(١) ويذمغ كل هذه الأخبار بالصدق ما عرضه قوم من أهل الصحراء على أحد الفقهاء بشأن السلم في الملح^(٢) حيث أنهم قوم يستخرجون معدن الملح من تحت الأرض ويحملونه على الجمال كل جمل لوحين ويسمونه حمل ملح وهو مختلف في النوع والكبر والصغر والتمن كذلك باختلاف أنواعها وكبرها وصغرها ، والمحمودة عندهم السالمة من الكسر ، والكسور الكثيرة تعيب هذه الأحمال وأوضحوا للفقهاء أن معظم تجاراتهم في الملح وكانوا يحملونه من بلد إلى بلد في جميع بلادهم لاغنى لجميع بلادهم عنها ومن لم يسافر منهم كان يسلم ما يخصه من أحمال الملح أو عشرة أحمال إلى غيره ويكتب بذلك عقد بينه وبين المستلم للتجارة بعدد الأحمال ونوعها ومقدار هذه الأحمال بالطول أو بالوزن والوصف لهذا الألواح المحملة من حيث الرقة والغلظ وعلى ذلك جرت عوائدهم منذ عمرت بلادهم وإن كان فقهاؤهم قد اختلفوا في السلم وزناً أو قياساً أو كيلاً . كل ذلك لضرورة الملح عند من لا ينتج عندهم فليس هناك سبيل للحصول عليه إلا عن طريق هؤلاء التجار الذين يأتون به من مراكز إنتاجه ليبيعه لهم من أجل الاستهلاك أو المتاجرة فيه أيضاً مع غيرهم.

رابعاً - تجارة الملح الخارجية

اهتم أهل المغرب بالملح واستخراجه اهتماماً كبيراً وكان وراء ذلك دوافع متعددة كاهمية الملح في حياتهم الخاصة وكذلك كمصدر للرزق في تجارتهم الداخلية ولكن الدافع الأكبر لاهتمام المغاربة باستخراج الملح وإعداده هو التجارة الخارجية وذلك لما لمسوه من احتياج من حولهم في البلدان المتوسطية وبالذات الأوروبية وكذلك من في جنوبهم في أفريقيا من حاجة ماسة لهذه السلعة وخاصة من الشعوب السودانية يقول ابن خلدون^(٣) وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجارة وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالاة الأسواق ، لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها وإذا قلت وعزت غلت أثمانها " فما بالك بمجتمعات أصلاً فقيرة إلى سلعة لم تنتج في بلدانها ولذلك أيقن المغاربة بأهمية الملح وخاصة إنهم احتاجوا في مقابلها معدن

(١) نفسه.

(٢) الونشريسي : المعيار ح ٥ ص ١٣٦-١٣٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون ح ٢ ، تحقيق على عبد الواحد وافي ، سلسلة التراث - مكتبة الأسرة القاهرة سنة ٢٠٠٥ ص ٨٥٢.

نفيس، الضرورة إليه ملحة ألا وهو الذهب ، ليس في بلادهم فقط بل احتاجته بقيه بلدان العالم الإسلامي الأخرى من مشرق وأندلس علاوة ذلك دول أوروبا ومدنها التجارية لسك العملة ، ومن ثم نجد المغاربة يحددون دورهم منذ البداية في تجارة الملح الخارجية وهو تصديره إلى جاورهم من أمم وبالذات السودانين وجلب معدن الذهب لتدويره في عالم الإسلام وكذلك أوروبا أي أنهم لعبوا دور المصدر والوسيط في مبادلة هذين المعدنيين النفيسين ومن وراء ذلك جنوا الأرباح الوفيرة حيث "أن سلع السودان قليلة لدينا- أي المغاربة - فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلهم ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك"^(١) .

هذا مع الاستفادة من وراء هذه التجارة بتزويد بلادهم بما تحتاجه من مواد وسلع تجارية استهلاكية يحتاجها المغرب الإسلامي متوافرة عند من لعبوا بينهم دور الوساطة التجارية من الأوروبيين والمسلمين في بلدان العالم الإسلامي الأخرى والسودانيين وهذا ما أدركه كذلك تجار العبور من المسلمين المشاركة أو الأوروبيين ، فجاءوا إلى بلاد المغرب ببضائع استبدلوا بها بضائع المغرب وبالذات من الملح الذي كان يحملونه أيضاً إلى بلاد السودان من أجل الذهب أيضاً. ومع ذلك استفاد السوق المغربي وراجت كل تجارته وبالذات من الملح المستخرج من الملاحات المغربية في السهل والصحراء على حد سواء.

وهوما يعني في النهاية أن الملح كان سلعة استراتيجية وجب الاهتمام بها ليس على المستوى المحلي من أجل الاستقرار الداخلي بل على مستوى العلاقات الخارجية واستخدامه كسلعة مؤثرة في الميزان التجاري بين المغرب وجيرانه من الأوروبيين والسودانيين دون المشرق الإسلامي وبلاد الأندلس لتوافر الملح بهما، ونتيجة لهذا نشط المغرب في تجارة الملح الخارجية على محورين إثنين الأول : تجارة الملح بين المغرب وأوروبا والثاني: تجارة الملح بين المغرب والسودان.

١- تجارة الملح بين المغرب وأوروبا :-

لاشك أن الفتح الإسلامي للمغرب والتوسع غرباً حتى وصل المسلمون إلى بلاد الأندلس قد أحدث حالة من العداوة والحرب المستمرة بين المسلمين والأوروبيين وذلك لأسباب سياسية وأخرى دينية ، وهذه الحالة استمرت حتى نهاية العصور الوسطى في علاقة تميزت بالمد والجزر، وإن كانت قوى المسلمين البحرية قد علت في النصف الأول من العصور الوسطى فإن

(١) ابن خلدون: المصدر السابق

الانقسام الداخلي في عالم الإسلام والضعف الطارئ على دولة وأعمالها الحربية المنفردة أدت إلى ضعف البحرية الإسلامية وانقلاب ميزان القوى البحري لصالح البحرية الأوربية وذلك منذ بداية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي^(١)، مما يقطع باستمرار هذه الحالة في العلاقة بين الطرفين ولكن إذا نظرنا إلى الصورة العامة بهذا الشكل لاشك أننا سنجزم بأنه لا تعايش سلمي بين الجبهتين وهو ما لا يجب أن يكون إذ لم يكن الأمر كذلك ولم تكن الحرب فقط هي الأس الوحيد في العلاقة بين الطرفين فالظروف كانت تتيح للجانبين فرص الالتقاء على

(١) راجع ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون، ج٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، سلسلة التراث، القاهرة ٢٠٠٥ ص٦٥٧ وهو ما رصده بالتفصيل من المحدثين كل من ارشبيالد. لويس راجع كتابه : القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠م). ترجمة أحمد محمد عيسى، مرجعه محمد شفيق غريال القاهرة بدون، بداية من الفصل الخامس، سعد زغلول عبد الحميد :تاريخ المغرب العربي، ح٣، الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين، منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٩٠ ص٤٦٦، د/ صبحي لبيب : الفندق، ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، إعداد وتقديم رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات القاهرة سنة ١٩٨٦ ط١، ص٢٩٠، السيد عبد العزيز سالم: أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ح٢، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٩٣ ص٢٣٧، محمد الأمين البزاز : حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي، تأملات في رحلة ابن جبير ضمن ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط سنة ١٩٧٠م ص٨٥ وما بعدها هذا وقد صور الشاعر الصقلي أبو.العرب مصعب القرشي الزيري لما حاول المعتمد بن عباد استقدامه من صقلية كتب إليه معتزرا

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى وأعجب لاسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا يجرى السفين به إلا على الغر والبر للعرب

راجع ميخائيل أماري : المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، دار صادر بيروت ليبسك ١٨٥٧م ص٦٢٨-٦٢٩

Dofourq: Commerce du Maghreb Medieval avec l'Europe Chretienne et Merine Musulmane: Donnees conues et problemes en suspens, en L'Ibère Chretienne-et-le Maghreb X11e-XVe Siecles, Variorum Hampshire, Great Britain, S.D P162- 163, Nehemia Levtzion: The Western Maghrib and Suddan, in the Cambridge history of Africa, Volume 3 from 1050c to 1600c, Edited by Orland Oliver, Cambridge Univeraity Press, Cambridge 1977, pp 346-7.

المصالح من خلال الدبلوماسية والمهاندات والمعاهدات السياسية والتجارية بين الطرفين^(١) ، ومن هما دونت الأخبار عن الوقود والسفارات الحاملة للهدايا بل والرسائل التي تفيض بالود بين الجانبين ، فتم في أحيان كثيرة مبادلة الأسرى وإنهاء حالة الحرب أو توقيفها بهدنة أو معاهدة أو حتى من خلال العلاقات الشخصية الودية بين حاكمين من الطرفين، ومن هنا أيضاً لم تنقطع العلاقات الودية وبالذات التجارية بينهما وتدلل على ذلك بسبب سوء العلاقة بين آخر ولاية بني العباس في المغرب وهو محمد بن مقاتل العكي (١٨٠-١٨٤هـ / ٧٩٦-٨٠٠م) وفقه أفريقيّة البهلول بن راشد الزعيني المتوفى سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م هو أن العكي كان يهادن ملوك الروم أي البيزنطيين بل ويلطفهم ومن جانبهم كانوا يكافئونه وعندما وجه أحدهم إليه رسالة يطلب منه السلاح والحديد والنحاس وكاد أن يرسلها له لولا معارضة البهلول في ذلك ووعظة بأنه لا يجوز له ذلك^(٢) ، وهو موقف من الفقيه حفاظاً على مصلحة المسلمين ومقابلاً أيضاً لموقف اتخذته الكنيسة ورجالها في تحريم حمل بعض السلع إلى العالم الإسلامي عامة وهي كل المواد التي تستخدم في صنع الأسلحة الحربية أو تفيد المسلمين في الحروب بصفة عامة ، الواقع أن هذه التوجيهات الدينية على ما تثبته الأحداث ذهبت أدراج الرياح وذلك أمام المصالح السياسية

(١) ومن يراجع الرسائل والوثائق الرسمية المتبادلة بين الجمهوريات الإيطالية كيزا وجنوة والبندقية وبين حكام المسلمين من الموحدين وورثتهم من بني حفص وبني زيان وبني مرين على سبيل المثال، لا يحس مطلقاً بحالة الحرب بين الفريقين بل من خلالها استطاع الحكام القضاء على مشاكل متعددة عالقة بين الطرفين بل كانت مستمرة رغم مناقشتها طويلاً مثل موضوع القرصنة وما يترتب عليها من خسارة يحاول كل الطرفين تلاشيها بقدر الإمكان أو إيجاد حلول مرضية للطرفين إن كان هناك فرصة لذلك بحكم السلطة وخاصة من جانب حكام المسلمين الذين قصدوا دائماً في هذا الصدد من جانب ولاية الأمر في المدن الإيطالية أوحثى من كبار تجارها بل وجدت رسائل متبادلة بين كبار التجار عند كلا الطرفين مما يعطي الإحساس بأنهم في وادٍ والسياسة والحرب في وادٍ آخر . راجع كل ذلك عند أحمد عزوي : رسائل موحدية ، مجموعة جديدة، الجزء الأول ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة ، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٢.

وكذلك Michel Amari: *Dopulmi Arabi del R.Archivio Florantino, Testo originale con la Traduzione e illustrazione*, Firenze, 1863

(٢) المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ٢١٢ عياض ترتيب المدارك ، ج ٣ . تحقيق عبد القادر الصحراوي

سنة ١٩٦٨ ص ٩٩

والتجارية بين الطرفين وينقل الطالبى^(١) عن Gay . ل قوله فى هذا الصدد "تجذب دائماً الدول البحرى مثل غايت و نابولى وأمالفى بقوة لا تقاوم نحو التحالف مع العرب ولا يهملها أن تسطو جماعات عربية على السهول اللباردية فالمهم عندها هو المحافظة على الساحل وضمان مصالحها التجارية وبالتجارة مع العرب حصلت على نصيبها من الغنمة وتتأوى ثراؤها وقد كانت سياسة نابولى وأمالفى سياسة تجارية قبل كل شيء" وتتساءل هونكة^(٢) مستكثرة ربط السياسة والدين بالنشاط التجارى من جانب الباباوية قائلة " ألم تساعد مدينة نابولى العرب حين توجهوا لفتح صقلية؟ وهل أحجمت مدينة بيزا عن التحالف مع عرب الأندلس ضد جنوة؟ ألم تتضمن سفن أمالفى إلى جانب الكفار فى هجومهم الكاسح على الشواطئ الرومانية دون أن يمنعهم عن ذلك وعيد البابا لهم وتهديده بحرمانهم النهائي من الكنيسة " فى إشارة واضحة إلى استمرار النشاط التجارى وضرب التجار الأوربيين وخاصة تجار المدن الإيطالية عرض الحائط بقرارات الباباوية فى هذا الشأن مقررّة ذلك فى مكان آخر^(٣) فنقول " لكن التدابير البابوية بقيت غير نافذة المفعول باعتبار أن كثيرا من التجار المسيحيين ظلوا على استعدادهم لقيادة السفن العربية " ولذا ارتبطت هذه المدن بعلاقات تجارية نشطة مع سواحل المغرب وخاصة تونس^(٤) ، ومن المفارقات فى هذا الأمر أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢م) الذى كان رمز الشدة والصلابة فى هذا السبيل كان يحرر براءته على أوراق من البردي المستورد من عالم الإسلام^(٥).

ومن ناحية أخرى لو نظرنا إلى الحرب وما يصاحبها من عمليات قرصنة أوربية أو الجهاد الإسلامى البحرى ضد من لا عهد لهم ولا هدنة من النصارى سنجد أنه يثبت لدينا وجود نشاط

(١) الدولة الأغلبية ص ٦٠٢-٦٠٣.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب" أثر الحضارة العربية على أوروبا ، نقله إلى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٩ ط ٢ ص ٣١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٢

(٤) راجع د. صبحى لبيب : الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية وقانونية ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، إعداد وتقديم رؤوف عباس ، دار الفكر للدراسات القاهرة سنة ١٩٨٦ ط ١ ص ٢٨٨.

(٥) الطالبى : المرجع السابق ص ٦٠٤.

تجاري بحري وتجارة بينية بين الطرفين إذ لا وجود للقرصنة أو الجهاد البحري بدون وجود مراكب سائرة بين الطرفين في المتوسط^(١).

ومن ناحية ثالثة نجد أن الحروب قد أفرزت موقفاً كان في غاية الأهمية بالنسبة للتجارة بين الجانبين، فمع تنامي قوة المسلمين البحرية حققت دول مثل الأغالية والفاطميون انتصارات رائعة وصارت لها مناطق نفوذ متقدمة في صقلية وإيطاليا مما ساعد على تهيئة الجو الملائم للتجارة بين عالم الإسلام وأوروبا، ولما تحول الأمر لصالح الأوربيين وانقلبت موازين القوى البحرية وصار للنورمان مناطق نفوذ سياسي في المغرب باحتلالهم موانئ المغرب الأبنى البحرية من طرابلس إلى بونة^(٢) ثم علو كعب الجمهوريات الإيطالية وعلى رأسها البندقية^(٣) وبيزا^(٤)

(١) وربما كانت هذه الحروب للقضاء على تلك الظاهرة في محاولة للمحافظة على سير السفن التجارية في البحر ومبادلة السلع بين الطرفين فيذكر ارشيبالد لويس (المرجع السابق ص ٣٧١-٣٧٢) إنه اجتمعت سفن الأسطول البيزي الجنوي مع قوة مملكة البابا وأملفي لتهاجم مدينة المهديّة بأفريقية سنة ١٠٨٧م/٤٧٩هـ وقد استطاعت أن تفرض على الأمير الزيري عدم التعرض للسفن الإيطالية بالمياه الأفريقية، كما أنه من خلال المعاهدات التجارية المعقودة بين المدن التجارية وحكام المغرب يتأكد سير السفن رغم وجود عمليات القرصنة في البحر المتوسط دون توقف وكل ما هنالك أن الجانبين كانا يعملان على إيقاف مثل هذه الأعمال ويؤكد عليها في شروط المعاهدات بينهما راجع في هذا الصدد أحمد عزاي : رسائل موحية القسم الأول ص ١٥٨ ص ١٧٧ ، ٢١٦ .. الخ ١٦٤ - ١٦٣ ، ١٤٧ ، ١٣١ ، ١٠٧ ، ٩٦ ، ٣٠ ، ٢٦-٢٧ ، ٢٦ : Op.Cit p.p , Amari :

(٢) راجع ابن عذاري: البيان المغرب، ح ١ ص ٣١٣ وما بعدها ابن خلدون : المقدمة، ح ٢ تحقيق على عبد الواحد وافي ، ص ٦٥٧ راجع كذلك السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية بدون ص ٥٨٨ وما بعدها.

(٣) أوفينسيا مدينة إيطالية نشأت على كبرى الجزر التي كونت سلسلة قريبة من الجزيرة وهي رياتو على رأس الإدرياتي وقد ساعدها هذا الموقع المتوسط بين الشرق والغرب وكونها ميناء على البحر المتوسط بالإضافة إلى نشاط أهلها على كافة المستويات الاقتصادية أن بنت مجدها التجاري وكونت أسطولاً كبيراً ساعدها في السيطرة على تجارة البحر المتوسط خصوصاً بعد أن أعلنت استقلالها في القرن الثالث عشر الميلادي لتكون جمهورية سياسية وتجارية أطلق عليها القلقشندي مملكة البنادقة واعتبرها من ممالك الفرنجة الكبار ، للمزيد عن المدينة ونشأتها وتكوينها التجاري والسياسي راجع القلقشندي : صبح الأعشى ح ٥ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ، شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب د/أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر ، دار المعارف مصر سنة ١٩٤٨ ص ٧ وما بعدها زيفريد هوتكة : شمس العرب ص ٣٠ وما بعدها ، د/ جوزيف نسيم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مؤسسة شباب

وجنوة^(٢) كقوى بحرية تجارية لها السيادة للتجارية في البحر المتوسط حتى مع تنامي قوى إسلامية حققت تقدماً ملحوظاً في كسر هذه السيادة كالمرابطين والموحدين كل ذلك كان لصالح العملية التجارية، إذ تمخضت هذه الأحوال عن النشاط التجاري المستعر للمدن الإيطالية التي نجحت بطريقة أو بأخرى في الاستفادة العظمى من بلاد المغرب تجارياً وأفادوها أيضاً في ظل سيطرة المرابطين والموحدين من خلال المعاهدات التجارية المعقودة بين الطرفين^(٣) والتي

الجامعة ، الإسكندرية سنة ١٩٨٨م ص ٧٠ - ٧٢ ، ناجلا محمد عبد النبي : مصر والبندقية (العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر المماليك) ، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة سنة ٢٠٠١م ط ١ ص ٢١ وما بعدها .

(١) مدينة إيطالية ومرسى جيد غربي روما ولذلك تبعت بابا روما سياسيا ولكن أهلها وهم البيازنة نشطوا في التجارة العالمية خلال البحر المتوسط حتى صاروا إحدى القوى التجارية والسياسية أيضا تنافس أخواتها الإيطاليات ساعدا على ذلك موقعها كميناء على البحر المتوسط لذا صارت همزة وصل بين الشرق والغرب وللمزيد عن هذه المدينة راجع القلقشندي : المصدر السابق ص ٤١١ ، جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) مدينة إيطالية تقع على ساحل ليجوريا القديم على البحر التيراني أشار إليها القلقشندي بأنها مدينة كبيرة للغاية وبها جنات وأودية ومرسى جيد ومأمون ومينأوها عليه سور وفيها دور كبيرة كل دار بمقولة قلعة وبها عيون مياه ولها توابع كثيرة أي أنها كانت غنية بمواردها الداخلية والطبيعية ورغم تعرضها لكثير من المحن من جيرانها الأوربيين والمدن الإيطالية ومن المسلمين كذلك إلا أن ذلك إكسبها في النهاية النهوض البحري حتى صارت من القوى التجارية الكبيرة وصارت تعرف بلقب سيدة البحار نتيجة لنشاطها البحري التجاري الذي بدا جلياً منذ أوائل القرن الحادي عشر وكافحت حتى نالت استقلالها في القرن الثالث عشر وصارت قوى سياسية وتجارية نافست مثيلاتها الإيطاليات حققت لنفسها من خلال ذلك مجداً سياسيا وتجاريا كبيرا والبندقية راجع القلقشندي : المصدر السابق ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٨٦ وما بعدها ، مصطفى حسن محمد الكفاني : العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى ١٠٩٥-١١٧١م / ٤٨٨-٥٦٧هـ ، أضواء جديدة على الحركة الصليبية ، الإسكندرية ١٩٨١م ص ٧٧ وما بعدها والمراجع التي استعان بها .

(٣) إذ لا شك أن تلك المعاهدات قد أتاحت لهؤلاء النصارى حرية التجارة في موانئ المغرب المختلفة في أمن وأمان وكذلك استغلال الكثير من مصادر الثروة في بلاد المغرب وبالذات من المعادن التي تحتاج إليها أوروبا كالرصاص والملح مثلاً فجنوا من وراء ذلك الثروات الطائلة ولكنهم من ناحية أخرى أفادوا بلاد المغرب في الرواج التجاري الحاصل نتيجة لجلب السلع الأوربية إليها وكذلك ما يتبع الحركة التجارية من تشغيل ونشاط للأيدي العاملة ، زد على ذلك ما كان يؤخذ من هؤلاء النصارى من عشور التجارة أفاد الخزائن المغربية كثيراً

تحكم في شروطها كثيراً المرابطون والموحدون كما دللتنا على ذلك وثائق هذه المعاهدات لتكون في صالح النشاط التجاري في النهاية بين المغرب وأوريا مشروطاً بعدم الإضرار بمصالح المسلمين^(١) ولكن هذا الدور الرائد للمرابطين والموحدين انتهى بسقوط الدولة الأخيرة لتتقاسم هذه القوى البحرية التجارية الإيطالية شروط المعاهدات التجارية المعقودة بينهم وبين ورثة الموحدين في المغرب من بني حفص وبني زيان وبني مرين بحيث صارت المعاهدات التي عقدت تلزم الطرفين بمراعاة كل منها لمصلحة الآخر بل كانت في صالح المدن الإيطالية أكثر من المسلمين^(٢) وهو ما أفضى إلى توسع هذه القوى البحرية التجارية الإيطالية في تجارتها مع

إذ وصلت هذه العثور إلى مبالغ كبيرة جداً كانت تدخل إلى خزينة الدولة ، ونظرة في المعاهدات التي أوردها ميشيل أماري ودي ماس لا ترى وأحمد العزاوي تؤكد هذا.

(١) إذ فضل الموحدون على سبيل المثال أهل جنوة على غيرهم في التعامل مع المدن المغربية إذ كانوا لا يتعدون على مراكب المسلمين وإذا حدث أن مارس أحدهم القرصنة قاموا هم بعقابه دون مطالبة المسلمين لهم بذلك راجع ذلك في المعاهدات والوثائق أرقام ٣ ، ٤ ، ١٠ ، ١٣ على التوالي عند : Amari :

Diplumi Arabe. pp-8-9, 33-35, 38-42 , 45-47) ete

كما قام الموحدون بفرض شروط على البيزيين لكثرة نقضهم المعاهدات وتعدي تجارهم وأهل بلادهم على السفن الإسلامية ولكنهم كانوا في الغالب يطلبون مد جسور الثقة ولذلك سمح لهم الموحدين بممارسة التجارة على نطاق يحدونه بأنفسهم كما منحهم امتيازات أقل من الجنوية وذلك حسبما تقتضيه مصلحة المسلمين العامة ففي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وبعد أن أرسل أهل بيشة إلى خليفة الموحدين أبو يعقوب يوسف (٥٥٨-٥٨٠ هـ / ١١٦٢-١١٨٤ م) يعظمون مقامة وينتزمون أمره طالبين الإفراج عن بعض من أخذهم وإلى طرابلس وأموالهم Amari, Op. Cit pp.9 ولا شك أن ذلك كان رداً على شيء فعله البيزنطية خطأ بدليل رد الخليفة عليهم , (Amari : Op. Cite 1722 (II)) بأنه ملتزم بعهده معهم وهم الذين خالفوا ما أمر به الخليفة سابقاً من أنه ألزمهم بأن لا يرد إلى موانئ بلاد المغرب إلا من يتاجر في خمسمائة دينار". ولكن البيزنطية عادوا إلى قرصنتهم في ذات الوقت سارع تجارهم للاتصال بالخليفة المنصور الموحدي (٥٨٠ هـ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤-١١٩٨ م) الذي استجاب لهم سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ولكن بشروط قاسية مؤكداً على منع القرصنة نهائياً وعدم التعدي على سفن المسلمين وألا يتاجر أهل بيزا ولا ينزلون على الساحل إلا في أربع مدن فقط وهي سبتة ووهران وبجاية وتونس ولم يبح لهم النزول بسواها إلا لضرورة ولكن لا يبيعوا ولا يشتروا ولا يكلموا أحداً من أهل مكان النزول ، ولكن لهم التزود بالطعام وإصلاح ما أفسد من مراكبهم وأكد على الالتزام والتشديد فيه قائلًا "ومتى تعدى منهم أحد هذا الحد المحدود قدمه وماله مباحان"

(٢) إذا أسعفهم الحفصيون مثلاً بتلبية مطالبهم في تأمين أنفسهم وتجارتههم بل وأماكن إقامتهم الخاصة المتوافرة الخدمات وحرية التجارة في كل المدن الحفصية الساحلية دون استثناء وهذا ما حدث مع البيزنطية

بلاد المغرب مع دخول قوى أوربية جديدة طموحة سياسياً وتجارياً مثل القطلان^(١) والبرتغاليين^(٢) على الساحة المغربية وجميعها لعبت دور الوسيط التجاري الأقوى بين المغرب وأوروبا وبين الغرب عموماً والشرق الإسلامي بل وبين مدن المغرب وبعضها البعض^(٣)، ولهذا

راجع الوثائق أرقام ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤، و٤١ عند Amari: Op.Cit PP 86-97-98-111,115-118, 154-164 , 123-140 وانظر إلى الينادقة واحتكارهم لمواد معينة واستغلالهم لمصادرهما في بلاد المغرب الحفصي وبالذات من المعادن كالرصاص والملح وحصولهم على إعفاءات كثيرة من الضرائب وتخفيض العشور في العديد من السلع ومنها الرصاص وفي بعض الأحيان يصرحون إنهم لا يريدون الإتجار إلا في سلعتين هي القمح والملح فقط فاستجيب لهم عن كل هذا راجع برنشفيك: تاريخ أفريقية ج ٢ ص ٢٧٤-٢٧٥.

(١) إذ دخل القطلان في المجال التجاري المغربي بنقلهم خلال القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري حتى قال Levztion أن العلاقات التي بناها التجار الإيطاليون مع المغرب خلال القرن الثاني عشر استبدلت بتلك التي أقامها القطلان في القرن الثالث عشر إذ وردت سفنهم إلى الموانئ المغربية وازداد نشاطها في عهد حاكمي الأول Jami I الذي استولى على ميورقة فاتخذوها محطة وسيطة لبلاد المغرب وتلمسان خاصة وموانئها مع البحر وقد ازدادت هذه العلاقات التجارية في عهد بطرس الثالث Peter III بن خايمي الأول والذي شجع اليهود والمدجنين المسلمين والمسيحيين من رعاياه في أراغون على التجارة مع بلاد المغرب راجع Op.Cit p 366

(٢) إذا كانت الدوافع الإقتصادية من أجل افتتاح هذا المجال بالنسبة للبرتغال لا تقل عن الدوافع الصليبية وذلك تلبية لرغبة البورجوازية الصاعدة فيها وكذلك رغبة في الحصول على ذهب السودان عن طريق المغرب فضلاً عن ثروات المغرب ذاته ومن ناحية أخرى محاولة من جانب البرتغاليين كسر احتكار المدن التجارية الإيطالية لتجارة البحر المتوسط الغربية بالذات ، بل كانوا أول من سعى هم والأسبان في إيجاد مراكز لهم على الساحل المغربي ليس من أجل مزاوله التجارة ، بل من أجل الاحتلال والسيطرة السياسية في سبيل الوصول إلى أهدافهم السياسية والإقتصادية كاملة ، وقد تحقق لهم ذلك في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي فقد احتلت البرتغال من سواحل المغرب سبتة وطنجة والقصر الصغير والعرائش وأصيلة وتحكمت في منطقة المضيق راجع المزيد عن هذا الموضوع :- أمين توفيق الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها للدار العربية للكتاب سنة ١٩٩٧م ، سالم والعبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٣٥٦ وما بعدها.

(٣) حيث استعمل الحكام المسلمين وكذلك التجار منهم سفن الأساطيل المسيحية سواء كانت الإيطالية وبالذات الجنوبية والبندقية أو تلك الأسبانية وبالذات القطلانية في حمل بضائعهم من مكان إلى آخر في المغرب وخارجه وأكبر دليل على ذلك تنقل التاجر الرحالة عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري أثناء رحلته إلى بلاد

نلمس تحكمها الكبير في تجارة المغرب الخارجية استيراداً وتصديراً^(١) وذلك في ظل إحجام غالبية التجار المسلمين عن السفر إلى أوروبا والإقامة في مدنها الساحلية كما فعلوا سابقاً ومع غيرها من بلدان العالم شرقاً وغرباً^(٢) أو كما فعل ممثلو هذه القوى التجارية في بلاد المغرب

المغرب والتنقل بين مدنها والأندلس في سفن أوروبية فكان سفره من الإسكندرية سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م على إحدى سفن البندقية وصل بها إلى تونس وانتقل من تونس إلى طرابلس على أخرى بندقية وأبحر على سفينة جنوبية إلى الأندلس في سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م ثم رجع إلى وهران في أخرى جنوبية. راجع Robert Brun ching : رحلة عبد الباسط بن خليل إلى تونس من كتابة الروض الباسم ضمن : Deux Recits de voyage inedits, en Afrique du Nord aux XV Siecle, Paris 1936, publications de L'institute orientales, de Faculte des Letres de Alger VII PP 18-19,35-36, 59,67 للمزيد عن هذا الموضوع راجع Dufourq: op. Cit pp 174-7.Mas Latrie : Op. Cit PP XXV من المقدمة التاريخية ,

(١) وصديق القائلان يعبران عن هذه الحالة بقولهما "إن الرحلات التجارية الممونة كانت تقريباً في أيدي الأوربيين راجع Roland Oliver, Anthony Atmore: Africa in the Middle ages 1400-1800, Combridge University press. S.D.P 6.

(٢) إذا أحجم الكثيرون منهم عن الإقامة وفضلوا لعب دور الوساطة بين أوروبا والمغرب من خلال جلبهم السلع من البلاد والمدن الداخلية إلى الساحل وبيعها للأوربيين الذين كانوا يقومون بدورهم لنقلها إلى أوروبا ثم يشترون فهم ما يجلبونه هم من أوروبا ليسوقوه بمدن المغرب الساحلية والداخلية فيذكر برنشليك (تاريخ أفريقية جـ ٢ ص ٢٢٥) على سبيل المثال أن القبائل الليبرية التابعة لتخوم البلاد الطرابلسية الشرقية ومنها قبيلة هواره كانوا يتبادلون البضائع مع التجار البنادقة ويذهبون إلى بلاد الجريد والسودان ومصر للتجارة " ورغم ذلك فإن هناك أقلية من هؤلاء التجار المسلمين مارسوا الوساطة وأقام بعضهم في مدن أوروبا الساحلية ، إذ كانوا يدخلون إلى صقلية وأسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا (راجع عز الدين موسى : النشاط الإقتصادي ، ص ٢٨٨-٢٨٩) وما ينبأنا به الإبريسي في نزهته يؤكد إقامة بعضهم في لمبارديا بإيطاليا حيث يذكر أنه كان يستقر ببنيويه (Pania) عاصمة لمبارديا عدداً من المسلمين الموثقين باللغة العربية مما يعني أن هناك واردين من التجار المسلمين إلى هذا المكان أو أنهم كانوا يكتبون من أسنقر هناك من المسلمين التجار الأثرياء الذين أقاموا هناك وعددهم أربعمائة والذين كانت لهم تجارة نافذة وثروات مهمة على حد تعبيره .ويؤكد Dufourq (Op.Cit,PP 177-9) أن العديد من التجار المسلمين ذهبوا إلى جنوة والعديد منهم وخاصة من التلمسانيين ذهبوا إلى ميورقة أواخر القرن الثالث عشر / السابع الهجري، ومن التوانسة من ذهب إلى قطلونيا وكافة مدن أراغون. ويؤكد على وجود الموثقين المسلمين في المدن الأوروبية وضرب مثلاً لذلك بأحمد بن عبد الرحمن في جنوة وكان كل هؤلاء كما يذكر مبالغاً يلقون تسهيلات قل أن يجدوها في المدن الإسلامية راجع Op.Cit p 180 .وينقل الدكتور سعيد عاشور عن دونيزو Donizo الذي

ومدنها^(١) والمحصلة لكل ذلك النشاط التجاري المستمر رغم وجود العوائق لاختلاف الديانة والمعتقد واستمرار التوتر بسبب القرصنة فكثرت السلع المتبادلة بين أوروبا والمغرب حيث جلبت السفن الإسلامية أولاً ثم الأوروبية لاحقاً كل المنتجات الأوربية حتى تلك التي صدرت بشأنها قرارات التحريم بتصديرها للمسلمين ببلاد المغرب وغيرها^(٢) في حين حملت منتجات و سلع المغرب والشرق الإسلامي والسودان من موانئ المغرب إلى أوروبا^(٣) وسؤالنا الهام المتكرر في

كتب عن حياة ماتيلدا أميرة تسكانيا كتاباً سنة ١١١٤م أن شوارع بيزا شهدت أعداداً من الزوار والتجار كان منهم بعض العرب من شمال أفريقيا راجع مقاله القيم بعض الأضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٦-١٠٢، مايو، ديسمبر ١٩٦٤ ص ٥٢ .

(١) حيث حصلوا بمقتضى المعاهدات التجارية التي عقدت بينهم وبين حكومات المغرب على الإقامة في الفنادق الخاصة بهم في المدن الغربية والساحلية للمعاهدات أرقام ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٣٥، ٤١ على الترتيب. راجع : Amari: Op.Cit, P.88-97, 101, 126, 140, 155 وقد لخص Levtzion تغلغل تجار النصارى في كل مدن المغرب وبناءهم الفنادق بقوله " أنه خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر وجدنا التجار من جنوة وبيزا والبندقية ومرسيليا بينون فنادق في المدن الساحلية من طرابلس إلى سبتة على البحر المتوسط وماسة على المحيط حتى في العاصمة مراكش راجع . Op. cit P 347

(٢) وذلك من جانب البلباوات وبعض الملوك الأوربيين وخاصة الأرغوانيين عن هذا الموضوع وعدم جدواه واستمرار التجارة في هذه المواد راجع برنشفيك: المرجع السابق ص ٢٦٧، لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٣٩٢ .

(٣) فمن سلع المغرب المصدرة بالإضافة إلى الملح وجدنا الذهب ، الحبوب ، الرقيق ، الزيوت والتمور ، الجلود والأصواف والمرجان والشب وغيرها ويجلبون إلى المغرب العديد من منتجات أوروبا أو ما تحمله سفن المدن التجارية الإيطالية من الشرق عموماً إلى الغرب ، ومن هذه السلع نذكر الأسلحة والأخشاب وحبال القنب والزيوت الإيطالية والفواكه ، التوابل المشرقية من بهارات وقرنفل وقرقة وزنجبيل وجوز الطيب والزعفران وسواها وكذلك العطور والحريير الخام والأقمشة بأنواعها وبعض الأحجار الكريمة... الخ . للمزيد عن السلع المتبادلة يبين الجانبين راجع : لويس لومبار : الإسلام ص ٣٢٨-٣٣١ . برنشفيك : تاريخ أفريقية ص ٢٦٦ وما بعدها ، هونكة: شمس الهرب ص ٣٢ ، إبراهيم حركات : النشاط الإقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، أفريقيا الشرق سنة ١٩٩٦م. ص ١٧٧، محمد حسن : المدينة والبادية ، ص ١٠٢-٥٠٢ . De Mas Latre : Op. cit P192 FF,Levtzion: Op.Cit P 347,367-368, I vor wilks: Wangara, Akan and Portuguese, in Fifteen and Sixteen Centuieres in Journal of Africa, volume 32, 1982,P330

هذا البحث أين الملح وتجارته في هذه العلاقات التجارية للنشطة بين المغرب وأوروبا ؟ نقول : أنه رغم كثرة السلع التي تحملها السفن الأوربية من بلاد المغرب وتعددها إلا أن هناك سلع ثلاث ركزت عليها كل القوى التجارية البحرية وهي الذهب والحبوب والملح . أما الذهب فله أهمية خاصة في ضرب النقود ولا يتم الحصول عليه إلا من خلال الوساطة التجارية المغربية بحكم الموقع المتوسط لبلاد المغرب بين أوروبا وأفريقيا مصدر الذهب وعليه كان اعتمادهم في هذه السلعة على التجار المغاربة الذين جلبوها من مصادرها في السودان جنوب الصحراء وأتوا بها إلى مراكز التجارة في الشمال ومواني الساحل فينكر مثلاً أن جنوة وتجارها كانوا يحملون الذهب من أفريقيا وبالذات من مينائي هنين ووهران ويصلون بهذا الذهب إلى أوروبا من خلال مالقة وقادش وجنوة^(١).

أما الحبوب تلك التي كانت متوافرة في بلاد المغرب وحرص عليها الحكام المسلمون ونظموا تصديرها حتى لا يؤثر ذلك على البلاد داخلياً^(٢) أما الأوربيون فقد نظروا إليها نظراً الرومان قديماً بأنها مخزن للحبوب التي إن لم يستطيعوا حملها عن طريق الغزو والاحتلال فلا أقل أن يتحصلوا عليها عن طريق التجارة والتي تحكموا فيها بداية من القرن الحادي عشر /الخامس الهجري^(٣).

. أما السلعة الثالثة ذات الأهمية فهي معدن الملح تلك المادة المتوافرة ببلاد المغرب والتي يحتاجها الأوربيون بشدة لقلة إنتاجهم لها ومطلوبة عندهم بلا حدود^(٤) ومن هنا حرص التجار على جلبها من السواحل المغربية من مناطق الإنتاج المنتشرة على السواحل فضلاً عن مراكز التوزيع والتي يأتيها الملح من الصحراء وإذا كان الطلب عليه من ناحيتهم مشجعاً للمغاربة على

^(١) راجع Rachel Arie: España Musulmana Siglos VII XV, en Historia de España, dirigida por Manuel Tñon de Lara, Tomo III Editorial Labor. S.A, Barcelona. 1984 P 256.

^(٢) فنجد السلاطين الحفصيين على سبيل المثال يحرصون على تجنب المجاعات وتدارك الأمر فيها بالمحافظة على تصدير الحبوب بنظام أومنه تماماً كما كانوا لا يسمحون بحرية التصدير في هذه الحبوب حتى لا ترتفع أسعارها بصورة تضر المستهلكين إلى حد وصل إلى التقدير واستثنوا من ذلك المجاعات في المدن الإيطالية وفي هذه الحالة أيضاً كان يشترطوا كمية محدودة راجع برنشفيك: المرجع السابق ص ٢٦٦-٢٦٧.

^(٣) راجع أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٣٨ وما بعدها ، ص ٣٩٣

^(٤) Mas Latrie : opcitp 217

إنتاجه والمتاجرة فيه مع الأوربيين ومن هنا أيضا وجدنا مدن إنتاجه ذات علاقة مع أوروبا بشكل أو بآخر فلما ذكرت المنستير قيل عنها أن بها ملاحه تشحن منها السفن بالملح إلى البلاد (١). وهذه مدينة تونس ذات الملاحه الكبيره المستغلة وصفت بأنها "مطمع الآمال ومحط الرحال من الغرب والشرق ملتقى ركاب الفلك وناظمة فضائل البرين فإن شئت أصبحت في موكب وإن شئت أبحرت في مركب" (٢) فمنها كان يحمل الملح إلى أوروبا وغيرها. وما يقال عن القيروان من أنها فرضة المغريين ومتجر البحرين (٣)، وبرقة التي بها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع (٤) وإجدابية وهي قريبة من البحر ترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها ضروب من التجارة (٥) وطرابلس التي ترد إليها "مراكب تحط ليلاً ونهاراً أو ترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلد الروم (٦) والمهدية قرصة ما والاها من البلاد كثيرة التجارة (٧) وطبرقة التي اشتهرت بكثرة ورود مراكب الأندلسيين والتجار عليها وتزولهم فيها وهي تجاة بلاد الأندلس وتحاذي بعض بلاد أفرنجة (٨) ومن نهر ماست في بلاد حاحة يوسق الملح إلى تلك السواحل (٩) شمالاً وجنوباً "أي بلاد السودان وكذلك أوروبا شمالاً وصفاقس التي اشتهرت قديماً وحديثاً بملاحاتها ما فتأت مزدهرة إلى اليوم بتجارة الملح وذلك لقدرة أهلها وتمكنهم من استخراج الملح والإتجار به عبر المتوسط (١٠) فتلك الإشارات تدل على

(١) البكري : المغرب ص ٣٦ .

(٢) العبدري : رحلته ص ٣٩ .

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٢٥ .

(٤) ابن حوقل : صورة ص ٦٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٧) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٨) المصدر السابق ص ٧٦ .

(٩) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٥٧ .

(١٠) كيرلانسكي : المرجع السابق ص ٤٠ .

علاقة تجارية متينة بين أوروبا ومناطق إنتاج الملح في بلاد المغرب وقد أكد بعض المحدثين ^(١) على أن أهم ما جلب الأوروبيون منها هو الملح . وعندنا في القرون المتأخرة خاصة شواهد مباشرة على ذلك، تلك القرون المقرونة بتزايد السيادة التجارية للمدن الإيطالية كبيزا وجنوة والبندقية وأمالفي وغيرهم والتي بدأت تتنافس فيما بينها على تجارة بلاد المغرب بل والاستئثار بها وذلك من خلال عقد المعاهدات التجارية مع حكامها المسلمين وصلت إلى حد الحروب فيما بينها من أجل السيطرة على تجارة بعينها راجت بين بلاد المغرب وأوروبا وهي تجارة الملح التي عنت به هذه المدن عناية خاصة وبالذات مدينتي البندقية وجنوة ^(٢) فعلى الرغم من أن المدينتين استطاعتا أن تجدا في أوروبا مصادر للملح وبنت البندقية بركاً للملح في شيوخيا واستخدموا أساليب مختلفة لاستخراج الملح ^(٣) إلا أنها شهدت منافسة حادة من جانب الكهنة البندكتيون حيث نهضوا بملاحات كوماشيو ، إلا أن البنادقة أنهوا تلك المنافسة سنة ٩٣٢م بأن دمروا ورش الملح في كوماشيو ^(٤) ولكن بعد حين تعرضوا لمنافسة كهنة رافنا الذين انتجوا الملح في سيرفيا ^(٥) إلا أن إنتاج البنادقة كان أكثر كما كان ناعماً في حين كان إنتاج سيرفيا من النوع الخشن ومع ذلك لم يتجه إليهم البنادقة لاستيراد الملح الخشن ^(٦)، وظلت المنافسة حتى تعرضت البندقية لسلسلة من الفيضانات والعواصف التي دمرت ثلث إنتاج شيوخيا وذلك مما أجبرهم على استيراد المزيد من الملح ^(٧) وفي ذات الوقت اكتشف البنادقة أن تجارة الملح أكثر ربحاً من إنتاجه الذي يتكلف كثيراً ومن هنا بدءاً من سنة ١٢١٨هـ ركزت البندقية جهودها في المجال التجاري وجلب الملح من البلاد على سواحل البحر المتوسط وجزره ودفعت مقابل ما دياً مجزياً لمن يأتي بالملح

(١) منى سيد عبد العزيز : الحياة الاجتماعية والإقتصادية بالدولة الحفصية ٦٢٦ - ٩٣٥هـ / ١٢٢٧ - ١٥٣٥م، ماجستير معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٨٦ ص ١٣٩ ، Mas Latrie : Op.Cit P 217.

(٢) راجع كيرلاتسكي : المصدر السابق ص ٨٣.

(٣) كيرلاتسكي : المصدر السابق ص ٦٩.

(٤) المرجع السابق ص ٧٠.

(٥) كيرلاتسكي : المصدر السابق ص ٧٠.

(٦) نفسه

(٧) نفسه

إليها^(١). ورغم أنهم في وقت من الأوقات كانوا يعانون من ارتفاع سعر الملح إلا أنهم لم يباليوا بذلك ما دام يخدم هدفهم الأكبر وهو السيطرة على تجارة البحر المتوسط وبالذات تجارة الملح والتوابل والحبوب^(٢) وهذا في حد ذاته أوقعها في صراع مرير مع المدن الإيطالية التجارية الأخرى وخاصة مدينة جنوة^(٣) تلك التي استقلت مع حلول القرن الثاني عشر مثل البندقية^(٤) وبدأت تركز حياتها للتجارة ورغم أنها لم تنتج الملح محلياً إلا أنها أفلحت في استغلال ملاحات خارج إيطاليا مثل هيرس قرب مدينة طولون الفرنسية في البروفانس وحولوها إلى منتج أساسي للملح من خلال اتباع الطريقة الإسلامية في استخراج الملح عن طريق البرك التي تتبخر مياهها بالشمس^(٥) وقد شجعهم النجاح في هيرس إلى البحث عن أماكن أخرى لاستغلالها ونجحوا في الوصول إلى سردينيا وطوروا ورش الملح بها حتى صارت من أكبر منتجي الملح في البحر المتوسط^(٦) ثم فطن الجنوبيون إلى ما توصل إليه البنادقة من قبل وهو أن استيراد الملح أفضل ربحياً من إنتاجه ولهذا نجدهم يستوردون الملح من طرطوشة^(٧) التي كانت خلال القرن الثاني عشر - مصدراً للملح بالنسبة لبرشلونة وكذلك منطقة أراغون عامة وقاموا هم بتصديره إلى تلك الأماكن وبسعر أرخص مما كانوا يشترون به من دوقات كاردونه الجبلية القطلانية^(٨) فبدأ تجار كاردونه يخسرون سوق برشلونة ولهذا شرعوا في بيع ملحهم لمدينة جنوة^(٩). ثم حولت مدينة جنوة جزيرة يابسة إلى أكبر منتج للملح^(١٠) وبذلك صار الملح محركاً لتجارة المدينة مثلما كان الحال للبندقية وتجارها. وبداية من سنة ١٢٥٠م توغلت جنوة في شراء الملح وخاصة من شمال

(١) كيرلانسكي: المرجع السابق .

(٢) نفسه

(٣) عن هذا الصراع بدايته واستمراره راجع شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ٣٣-٣٤ ، ص ٤٩٩ وما بعدها .

(٤) كيرلانسكي : المرجع السابق ص ٨١ .

(٥) نفسه

(٦) نفسه

(٧) المصدر السابق ص ٨٢

(٨) نفسه

(٩) المصدر السابق ص ٨٣ .

(١٠) نفسه كيرلانسكي : المرجع السابق .

أفريقيا وقبرص وكريت^(١) والاتجار به في البحر المتوسط ونقله من مكان إلى آخر واستمر ذلك حتى منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلادي^(٢) الواقع أن هذا جعل المدينة تصطدم مع البندقية في صراع طويل وذلك من أجل السيطرة على مصادر الملح وتجارته في البحر المتوسط والتي كان من بينها بلاد المغرب بإنتاجها الوفير من الملح. وينبأنا نص للتجاني^(٣) في غاية الأهمية أن هاتين المدينتين وغيرهما من النصارى كانوا يأتون إلى ساحل طرابلس وبالذات إلى قصر صالح مرساها ليأخذوا الملح حيث كانت سبختها مفضل ملحها على جميع السباخ ويمتاز منه أكثر بلاد النصرانية ويعلمنا أن أهل قصر صالح كانوا يجهدون أنفسهم في استخراج الملح من الطبقة السابعة في الأرض لأن أولئك النصارى كانوا يتغالون في شرائه منهم ويذكرون لهم أنه له عندهم منافع طبية متعددة وهو ما يدل على المنافسة الشديدة في الحصول على هذا الملح بين المدن الأوربية وخاصة جنوة والبندقية ، والواقع أن تلك المنافسة في الحصول على الملح من المغرب تعدت منطقة الساحل والإقامة في مدنه والاستقرار بها لمدة طويلة في الفنادق الخاصة بهم^(٤) إلى المناطق الداخلية^(٥) بل والاتجار مع بلاد السودان ومحاولة

(١) نفسه.

(٢) Rachel Arie : Op. Cit p 256

(٣) رحلته ص ٢٠٧

(٤) والجدير بالذكر هنا أن المعاهدات التجارية المعقودة بين المدن الإيطالية والحكام المسلمين كانت تهتم بعد المحافظة على الأموال والأنفس والتأمين بالإقامة المريحة في المدن الإسلامية Amari : Op.Cit,PP 109 , 154 , 140 , 140 , 126 , 113-114 , وقد اعترفت لهم الحكومات الإسلامية بحق الإقامة المنفصلة في هذه الفنادق الخاصة بهم التي لا يشاركون فيها أحد من أهل ملتهم في مدينة أخرى أو بلد آخر وملحق بهذا الفندق كنيسة ومدفن وحمام وإن لم يكن هناك حمام يخصص لهم يوما ما في الأسبوع يدخلون فيه حمام المدينة وقد انتشرت هذه الفنادق في كل المدن الساحلية بالإضافة إلى بعض المدن الداخلية كمراكش وفاس وتلمسان وغيرها راجع في ذلك Michel Amari: Op. Cit, PP 88, 101, 126, 42 etc. ، ويذكر عن مدينة تونس أن بها عدد كبير من هذه الفنادق فيما وراء الباب الشرقي للمدينة للجنوية والبندقية والبيلازنة والفلورنسيين والقطلان ولكل منهم كنيسة والملحقات الأخرى وقد جمعت في منطقة واحدة حتى تمكن الحكومة الإسلامية من مراقبة هؤلاء التجار والإشراف عليهم راجع إبراهيم مسعد فهمي: العالم العربي وفي نظر الرحالة الأوربيين ، مصنف آل أدورني كمصدر أوربي عن تونس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر "دراسة مقارنة" اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة سنة ١٩٩٨ ص ٤٠٦. وقد كان تجمع هذه الفنادق

إقامة علاقات سياسية مع ملوكها وهي محاولات ابتدأت بإقامة علاقات متينة مع حكام المغرب من المسلمين أولاً فيذكر الدكتور إبراهيم حركات^(٢) في اهتمامهم بأمر الجنوب والصحراء والتجارة مع السودان أن السلطان المريني أبو يعقوب يوسف استقبل تجاراً من جنوة في مدينة تازوفا شمال شرق المغرب سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م . وذلك من أجل ضمان الأمان في الاتجاه إلى الجنوب الذي لا يكون إلا عن طريق بلاد المغرب ويبدو أن ذلك تحقق لهم سريعاً دللتنا على ذلك الخرائط التي رسموها عن الصحراء وطرقها إلى بلاد السودان إذ كانت أول خريطة للصحراء الكبرى قد وصفت على يد تاجر جنوي بسجلماصة خلال العقد الثاني من القرن الرابع عشر وهو Giovanni di Garingnano^(٣) ثم وضعت خريطة أخرى سنة ١٣٣٩م لجنوب الصحراء على يد جنوي آخر وهو Angelino Dulcert^(٤) والتي رسمت الطريق من الساحل إلى سجلماصة ثم ثوات فوالاته ثم إلى مالي السودانية^(٥). وهكذا تعرف أولئك الجنوبية على الطريق الممتد من تونس ومدن الشمال كلها إلى تمبكتو في مالي وهذه الخرائط التي يذكر عنها بوفيل^(٦) أنها لم تعلن عن ثروة الداخل فحسب بل بينت طرقاً تقود إلى حقول الذهب المخبوءة وكيفية سلوكها دون مراقبة المسلمين واختراق القارة من الشمال. والنتيجة حدوث محاولات للوصول إلى الجنوب والاتجار المباشر مع السودانيين وكانت أولى هذه المحاولات في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري حيث نزل التاجر الجنوي الغني المدعو أنطونيو مالفانتي

بجوار هذا الباب هو الصورة الأولى للحي الأوربي بمدينة تونس الحديثة راجع دائرة المعارف الإسلامية م ٦٠ ص ٣٠.

(١) وفي هذا السياق نجد محاولة الجنوبية الاستيلاء على مدينة سبته بالخدعة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م فقام أهل المدينة بانتهاب أموالهم وفنادقهم فاستمدوا إخوانهم من النصاري وحاصروا المدينة ولكن لم يكن إلا حصاراً قاشلاً، انتهى بالصلح حيث عوض الجنوبية عما انتهب منهم راجع ابن عذاري: البيان ، قسم الموحدين ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، ابن أبي زرع : الأتيس ص ٣٦١

(٢) النشاط الإقتصادي الإسلامي ص ١٧٦ ،

(٣) نفسه

(٤) حركات : المرجع السابق، Levztion: The Estern p 373 .

(٥) Ibid

(٦) الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء، ترجمة زاهر رياض مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨م ص ١٤٨ .

Antonio Malfante في هنين على الساحل وهميناء تلمسان وذلك حتى انتهى إلى مدينة توات سنة ١٤٤٧م ومن هناك كتب خطاباً^(١) إلى زميله في جنوة Goivanni Mariono يصف له فيه الطريق من هنين إلى تلمسان وتوات ويستفيض في وصف توات طبيعتها وقصورها وأحوال التجار فيها واللافت للنظر في هذا الخطاب أنه يصف بيوت توات بأنها مبنية من صخور الملح وأنها دخلت في ذلك محل القصب في البناء^(٢) كما ينبأنا أن التعامل في الجنوب لم يكن إلا بالنحاس والملح في صورة ألواح وشرائح وأن للملح كان من البضائع المتبادلة بل يذكر أن كل شيء هناك يترك من أجل الملح^(٣).

ومعلومات الخطاب حقيقة تدفعنا إلى القول أن المنافسة المحتدمة بين تجار جنوة والبندقية التي فاز فيها في النهاية تجار البندقية دون أن يقضوا على تجارة جنوة قد دفعت الأخيرين إلى محاولات إيجاد أسواق أخرى داخل البلاد فضلاً عن محاولات الوصول إلى مصادر الذهب في الجنوب حاملين معهم بلا شك ما تحتاجه السودان بضائع وسلع كان من بينها الملح والذي لا شك أن خسارة ميلفانتي أمواله بسبب التعامل مع السودان بالملح والنحاس^(٤) قد دفعت من ثلوه في اختراق الصحراء للتردد بالملح من أجل الحصول على الذهب وبين أبدينا نص للزياتي^(٥) عن مملكة تلمسان يثبت بما لا يدع مجالاً للشك مشاركة الأوربيين وخاصة الجنوبيين والبنادقة في تجارة الملح بالسودان إذ يقول "كانت هناك حركة كبيرة في تجارة السلع في مملكة تلمسان هذه لقربها من تومينيا ولأنها تؤلف محطة على الطريق المؤدية لبلاد السودان " ويردف قائلاً " وفي هذه المملكة - أي تلمسان - اثنان من المراسي المشهورة هما مدينة وهران والمرسي الكبير وكان يقصد هذين الميناءين عادة الكثير من التجار الجنوبيين والبنادقة الذين كانوا يزاولون فيها التجارة الكبرى عن طريق المقايضة".

(١) راجع Antonius Malfante: Tawat and the Western Sudan tarde in Africa History, Text and Reading, University of California, Santa Barbara, New York 1971 p 21

(٢) Op.Cit p 21

(٣) Malfante: Op.Cit, P 23

(٤) Ibid

(٥) وصف أفريقيا ص ٣٨٠

ولكن فى النهاية نجح منافسوه من البنادقة فى الاستئثار بتجارة الملح مع السواحل وفى الداخل كذلك حتى أن برنشفيك^(١) يذكر أن ملح أفريقية كان يصدر من قبل جمهورية البندقية دون سواها على الأقل بالنسبة للقسم الموحه لأوربا ، بل وصل الأمر بالبنادقة إلى احتكار تجارة الملح مع بلاد المغرب وتحديد أسعاره^(٢) أفاننا بذلك وثائق أرشيفها فهناك وثيقة مؤرخة بـ ٣ مارس ١٣٢١م / ٢١ صفر ٧٢١ هـ ، جاء فيها ما يتعلق بتجارة الملح وشرائه من أفريقية الحفصية وتحديد سعره وبالذات المستخرج من ملاحات طرابلس الشهيرة فى Raxababese (رأس المخبر) وكذلك ملح جزيرة جربة للتونسية حيث ذكرت الوثيقة أن ملح هاتين المنطقتين يساوي سبعة دنانير طالما وافق المواصفات وقابل للتعامل التجاري^(٣) وأكثر من هذا استغلت البندقية فرصة استقلال وضعف صاحب منطقة طرابلس وجربة أحمد بن مكى لتجبره فى سنة ١٣٥٦م / ٧٥٨ هـ على أن يبرم معها معاهدة تجارية فى صالحها كلية تتضمن هذه المعاهدة فى بندها الرابع^(٤) ما يخولها دون سواها استغلال الملاحاة الطرابلسية الشهيرة وتلزم الأمير ابن مكى بتوفير كافة وسائل الأمان لشحنات الملح منذ أن تخرج من الملاحات حتى تصل إلى السفن المعدة لحملها إلى البندقية ويتولى الإشراف على كل ذلك وتنفيذه القناصل البنادقة فى أفريقية ويبدو أن عملية التسليم والتسلم وشحن السفن كان يوميا^(٥) مما يدل على النشاط المستعر للبنادقة فى نقل ملح أفريقية ومحاولة الإستحواذ عليه دون الآخرين من منافسيهم وهنا يجب أن نشير إلى أن العياشي فى رحلته^(٦) ذكر أنه فى برج الملح الواقع بين برقة وطرابلس مرسى جيد ينزل به النصارى بإذن من أمير البلد يأخذون الملح من سبخة هناك فيها ملح عجيب.وهي إشارة واضحة لالتزام بني مكى ببند هذه المعاهدة ، ويذكر برنشفيك^(٧) أن أحد سفراء البندقية أكد للسلطان الحفصى أبى العباسى أحمد أثناء مقابلة بينهما تمت ١٣٩١م

(١) المرجع السابق ص ٢٧٤

(٢) Mas Latrie : Op. Cit. P 217

(٣) Mas Latrie : Op. Cit , 221

(٤) راجع نص هذا البند فى الملحق رقم (٢)

(٥) راجع Mas Latrie : Op. Cit , P 224

(٦) راجع ما سبق ص ٢٧ من البحث.

(٧) المصدر السابق ص ٢٧٤ .

٧٩٣ هـ أن البندقية لا ترغب إلا في تجارة مادتين ألا وهما الحبوب الملح^(١) ولكنه لم يحدد في هذه المرة منطقة بعينها ليستأثروا بملحها مما يعنى التوسع في الاستحواذ على انتاج ملاحات السلطنة الحفصية المتعددة على الساحل وفي الداخل.

وقد حاول البنادقة الحصول على إعفاءات جمركية بالنسبة للملح ولكنهم لم يفلحوا في ذلك رغم حصولهم على تلك الإعفاءات في معادن أخرى حملوها من بلاد المغرب كالرصاص والتي منحت الحرية التامة في استخراجها من الأرض الحفصية^(٢).

ولا شك أن الثمرة لذلك كانت ثمينة بالنسبة للحفصيين في الاستفادة من العشور المعروضة على هذه التجارة. ويبدو أن هذا دفع البندقية إلى أن تبعث بتجارها إلى مناطق مختلفة في البحر المتوسط عموماً ولم تقتصر على منطقة المغرب ليشتروا الملح بأي ثمن^(٣) وحيثما ذهبوا محاولة دوماً السيطرة على ورش الملح وحتى شرائها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً^(٤). بحيث ازداد احتكارهم لهذه السلعة في البحر المتوسط وصارت مؤانيتها الأولى في استيراد الملح وتصديره^(٥) ولذا صارت البندقية الممول الأول لأوروبا لما استقطبت من تجارته إذا مثل من وارداتها من ٣٠% إلى ٥٠% ولهذا فعلوا الكثير من أجل المحافظة على هذا الاحتكار والتحكم في سوق الملح حتى ولو حساب الآخرين مراعاة لمصالحها فقط، ففي أواخر القرن الثالث عشر ونظراً لرغبتها في رفع أسعار الملح عالمياً دمرت البندقية ورش الملح في كريت^(٦) وذلك من أجل تعطيش السوق العالمي ثم التوسع في الاستيراد وخزن الملح لبيعه في الوقت المناسب وبالأسعار التي تراها.

وفي سبيلها للانفراد بسوق الملح في المتوسط استولت البندقية على سيرفيا وأجبرت كهنة رافنا على بيع الملح حصرياً لها وذلك في العام ١٤٧٣ م^(٧) وإذا كان الجنوبية قد حولوا يابسة إلى

(١) P 248, Op. Cit Mas Latric وكذلك P217 من المقدمة التاريخية

(٢) راجع برنشفيك : المرجع السابق ص ٢٧٥ المعاهدات .

(٣) كيرلاتسكي : المرجع السابق ص ٧١

(٤) المرجع السابق ص ٧١

(٥) نفسه

(٦) نفسه

(٧) كيرلاتسكي : المرجع السابق ص ٧٢

منتج أول للملح في المتوسط فإن البنادقة وضعوا قبرص في المرتبة الثانية والتي صارت تابعة لها منذ سنة ١٤٨٩م^(١) ، على أنه يجب أن نقرر في النهاية أنه رغم نجاح البندقية في السيطرة على أسواق الملح في المتوسط ومنها سوق الملح في المغرب والجزء الموجه إلى أوروبا بالذات إلا أنها لم تكن الوحيدة في ميدان هذه التجارة إذ ظلت محاولات الجنوبية مستمرة في سبيل السيطرة على سوق الملح في المتوسط وذلك رغم هزيمتها في حروب شيوغيا من البندقية ما بين سنتي ١٣٧١ و ١٣٨٠م^(٢). كما دلنا على ذلك خطاب مليفانتي إلى زميله بجنوة وكذلك أشار إليه Wilks^(٣) من أن المرينيين أخذوا للأوروبيين بالإقامة في المدن المغربية واثبت أن الجنوبيين أقاموا في تافيلت في نهاية القرن الثالث عشر^(٤) ويذكر أنهم وبقية الإيطاليين عرفوا الطريق الطويل عبر الصحراء^(٥). وقد كانت لهم علاقات طيبة مع الحفصيين بتونس حرصوا عليها وعقدوا خلال القرن التاسع / الخامس عشر معاهدتين تجاريتين مع الحفصيين أولهما سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م وذلك لمدة عشرين سنة ومدت هذه المعاهدة سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م والثانية كانت ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م وكان هدف هاتين المعاهدتين الحفاظ على العلاقات الودية وضمان تدفق تجارها على المواني الحفصية من أجل التجارة^(٦)، ولا شك أن ذلك في إطار المنافسة التجارية مع البندقية التي كانت سفنها تستأثر بالساحل الحفصي بمقتضى المعاهدات التجارية كذلك المعقودة بين الطرفين^(٧) بل أن ابن الوزان الزياتي^(٨) يؤكد مزاحمة الجنوبية للبنادقة

(١) نفسه

(٢) المصدر السابق ص ٨٣

(٣) Wangara, Akan and Portuguese P 330

(٤) Ibid

(٥) Ibid

(٦) راجع هاتين المعاهدتين عند برنشفيك : المرجع السابق ح ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ على التوالي ، ١٥١ ، ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٥١

Mas Latrie : op. Cit , 134, 144 , , 151

(٧) راجع ماسبق بداية من ص ٦٥ ، راجع كذلك معاهدات أخرى استطاع الدرق البندقي فيسكارى عقدها مع السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان بن محمد الرابع سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٨م لمدة عشرين سنة سنة

وجدها سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م لمدة سنة قمرية ، عند برنشفيك : المرجع السابق ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، Mas Latrie : op. Cit , 250-256

(٨) وصف أفريقيا ص ٣٨٦.

في تجارة المغرب عامة حتى عند إستيلاء الأسبان على بعض مدن الساحل المغربي حيث يشير إلى أن الأوربيين كانوا يختلفون إلى وهران والمرسى الكبير وبالذات تجار جنوة والبندقية بأعداد وفيرة وكان الحفصيون والزيايئون يرحبون بهم^(١) ، كما يخبرنا عبد الباسط بن خليل^(٢) أن شونة جنوية وردت على مدينة وهران وهي عظيمة برسم الاتجار وقد وردت من فنلندة ونحوها من بلاد الاقرنج بالمحيط وذلك سنة ٨٧٦هـ / ٤٧١م .

كما مارس الجنوية الاتجار مع هنين مرسى تلمسان رغم خراب المدينة نفسها وقد كان يجبي من السفن النصرانية الواردة إليها مبالغ كبيرة ويذكر ابن الوزان^(٣) أن صاحب تلمسان جاء إلى ميناء هنين وكان هو بصحبته لجباية رسوم سفينة جنوية جلبت بضائع لتموين تلمسان لمدة خمسة أعوام وكانت الضرائب التي يتحصل عليها ملك تلمسان تبلغ خمسة عشر ألف ديناراً ذهبياً ورأها ابن الوزان بنفسه.

وكانت لبيزا كذلك تجارة واسعة مع بلاد المغرب كما أشارت المراسلات^(٤) والوثائق الرسمية^(٥) ومن المستحيل عدم مشاركتها في نقل الملح من المغرب إلى أوروبا ضمن السلع التي نقلتها إلى أوروبا. زد على ذلك أن المدن الإيطالية المتنافسة لم تكن وحدها في الساحة التجارية بل كان معها قوي بحرية ناشئة جاهدت في سبيل الحصول على خيرات المسلمين كما ذكرنا أنفاً مثل أراغون Aragon التي ينكر أن ملكها الفونسو الثالث Alfonso III عقد معاهدة مع سلطان تلمسان أبو سعيد عثمان وذلك سنة ١٢٨٦م / ٦٨٥هـ^(٦) وذلك بشأن حماية التجار المسيحيين عامة والأراغونيين خاصة في مواني المغرب الأوسط، كما كانت لهم مع الزيانيين متاجر مختلفة ومتنوعة^(٧) كما عقدت معاهدات أخرى متعددة مع الحفصيين المغرب الأتني بهذا

(١) راجع أمين توفيق الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٨٩

(٢) راجع رحلته عند Robert Brunschvig : Deux Recito, p 67

(٣) المصدر السابق ص ٣٨٦-٣٨٧

(٤) راجع - Amari: op. cit pp 1-6, 7-9, 10-13, 14-15, 23-27, 29-30, 31-32, 33-35, 38-42, 45-47, 48, 50, 57-58.

(٥) برنشفيك : المرجع السابق ٢٨٥-٢٨٦ ، Amari: Op.Cit pp 17-22, 86-97, 98-111, 115-118, 123-135, 136 , 154-164, Mas Latrie: Op.Cit pp 355- 60.

(٦) راجع 7 Note , 164, Dufourcq: Commerce du Maghreb Medieval

(٧) Dufourcq:Op.Cit P163

الخصوص وذلك في السنوات ٦٧٠هـ/١٢٧١م ، ٦٧٨هـ/١٢٨٧م ، ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، ٧٠١هـ/١٣٠١م ، ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، ٧١٤هـ/١٣١٤م ، ٧٦١هـ/١٣٦٠م الخ على التوالي^(١).

وقد وضع القطلان كما فعل الجنوبية من قبل الوصول إلى بلاد السودان من خلال المغرب نصب أعينهم وقد تم لهم التعرف على الطرق الداخلية أولاً من خلال يهود ميورقة والذين وضعوا بعض الخرائط التي توضح هذه الطرق ومداخلها من الشمال ونهايتها مع بلاد السودان والتي عن طريقها أتى الذهب وصدر الملح إلى الجنوب وأشهر هذه الخرائط على الإطلاق ما عرف باسم أطلس قطلان Atlas Catalan الذي وضعه Abraham Cresques سنة ١٣٧٥م^(٢) والتي أشار إلى الطريق من سجلماصة إلى توات وتغازي إلى والاتا ثم إلى تمبكتو بعد ذلك^(٣).

وكذلك البرتغال التي دخلت في صراع مع الجنوبيين خلال القرن الخامس عشر من أجل السيطرة على منافذ التجارة المغربية ونجحت في ذلك وسيطرت على بعضها خاصة الأطلسية فيها^(٤) ولهذا كانت التجارة نشطة بين البرتغال والمواني العربية المختلفة فيذكر لنا ابن الوزان الزياني^(٥) أنه تصاد من نهر أم الربيع كمية كبيرة من الأسماك تنشعب بها مدينة أزموور وتذهب به مملحاً سفن موسقة إلى مملكة البرتغال.

ويذكر عن مدينة تفتة ميناء إقليم حاحة الهام أن به مصلحة مكس ومصلحة جباية ضرائب الملح الذي كان يصدر إلى البرتغال وغيرها^(٦) ويؤكد لنا كل ذلك Dufourcq^(٧) في مقالة

(١) برنشفيك : المرجع السابق ص ٩٥ ، ص ١٠٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ص ١٤٩ - ١٥٢ ، ص ١٦٦ -

١٦٨ ص ٢١٢ ، Mas Latrie : op.cit .p 218 , 283 , 288 , 305

(٢) بوفيل : الممالك ص ١٤٨ ، Levtzion: The Western P373

(٣) Levtzion :Op.Cit

(٤) Levtzion :Op.Cit P450

(٥) الزياني: وصف أفريقيا ص ٦٢٣.

(٦) المصدر السابق ص ١٢٠.

(٧) Charles Ammanuel Dufourcq: Prix et Niveaux vie dans les pays catalans et maghribins ala fin du XIII^e et au debut du XIX^e siecles, en l' Iberie Chretienne et Le Maghreb XII- XV^e siecles, Variorum Hampshire, Great Britain 1990 P. 491

الممتاز عن الأسعار ومستوى المعيشة في بلاد القطلان والمغاربة في نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر فعندما يتحدث عن ملح يابسة من جزر البليار يذكر أن البندقية كانت تبيع ملحها وتشتريه بأسعار تحدها هي فوضعت لملح يابسة ثمانية دنانير في حين اشترت مد الملح من جزيرة جربة التونسية بسعة دنانير وذلك نقلا عن وثيقة الأرشيف البندقي سابقة الذكر^(١) ويتحدث عن تجارة الملح الموازية لها في المواني الإفريقية مثل بونة وبرشيك وقابس حيث يمارس القطلان تجارة الملح في هذه المواني والذين نعتهم بأنهم مهروا في نقل الملح^(٢) ولم يكن دورهم في نقل ملح المغرب فقط بل كانوا كذلك ينقلون الملح من دلتا الإبرو ويبيعونه في؛ ألمرية ومالقة مما يعني توسعهم في تجارة الملح في غرب المتوسط عموماً ومن بينه المغرب الإسلامي ومملكة غرناطة الإسلامية الأندلسية^(٣) وقد أورد ماس لاتري خطاباً بتاريخ جمادي الآخر ٨٦٧هـ / ديسمبر ١٤٦٢م أرسله سادة برشلونة إلى أبي عبد الله عثمان ملك تونس يطالبونه فيه بحسن معاملة التجار القطلان الذين سيذهبون إلى تونس ويؤكد له على حسن الاستقبال الذي سيجده رعاياه من التجار المسلمين في برشلونة^(٤)

الخلاصة أن تجارة الملح المغربية مع أوروبا سواء كانت في أيدي أهالي البلاد يسافرون به إلى أوروبا أو عن طريق التجار الأوربيين وخاصة المدن التجارية الكبرى كانت مزدهرة لم تقتصر في يوم من الأيام أو عاقتها سوء العلاقات أو كثرة الحروب والصراعات بين القوى السياسية أو التجارية في المتوسط، وما ذاك إلا لأهمية الملح في حياة البشرية ومن هنا كان الملح من السلع التي تصارعت فيما بينها القوى التجارية الأوربية من أجل الاستئثار بتجارته مرات وتصالحت وتعاهدت كذلك عليه مع حكام المغرب الإسلامي مرات عديدة من أجل استمرار تجارته كسباً للأرباح وضماناً لاستمرار الحياة وتطورها.

٢- تجارة الملح بين المغرب وبلاد السودان :-

منذ أن افتتح المسلمون بلدان المغرب وصحراواته الممتدة جنوباً اهتموا بجنوب الصحراء الذي أسموه بلاد السودان، لا شيء إلا لنشر الإسلام بين أهله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

^(١) راجع ماسبق ص ٧١ من البحث

^(٢) Ibid

^(٣) Rachel Arie :Op.Cit

^(٤) راجع Op.Cit p 103

فالإشارات في مصادرنا متعددة دلت على أن الفاتحين الأوائل سلكوا طرقاً إلى الجنوب وهبطوا هذه الطرق بعد أن اهتموا بها اهتماماً خاصاً من حيث الإعداد والاختيار المناسب وكيفية التغلب على مشاكلها المتمثلة في قلة الماء والمرعى. ووصلوا من خلال هذه الطرق إلى أقصى نقطة استطاعوا الوصول إليها على مشارف بلاد السودان^(١) فاتحين بذلك الطريق أمام خلفائهم من المسلمين في المنطقة ليتموا مهمة أسلمه هذه المنطقة والانتقال منها إلى بلاد السودان وقد أفلحوا هم الآخرون في هذا السبيل إلى حد كبير خلال عصور الولاة^(٢) والدول المستقلة^(٣)، بحيث وفروا فرص الاتصال وقنوات التواصل التجاري بين المغرب وصحرائه الكبرى من ناحية وبين بلاد السودان من ناحية أخرى وذلك بعد أن تعرفوا على السودان وعلموا إمكاناته الاقتصادية وما يستطيعون جلبه منها وما يحتاجه سكان هذه المناطق من سلع وبضائع العالم الإسلامي كل ذلك مشفوعاً بتشجيع ولاة الأمر من الولاة وحكام الدول المستقلة وخاصة ذات الاتصال المباشر بالجنوب وبلاد السودان مثل دول إنبية الصنهاجية^(٤) ودولتي الخوارج

(١) راجع عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح أفريقيا والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب العالمي، بيروت سنة ١٩٨٧ ص ٥٢-٥٣، ص ٩٤، البكري: المغرب ص ١٣، ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٢٧، الناصري: الاستقصا ج ١ ص ١٦٢، د/ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، القاهرة بدون ص ١٣١-١٣٦.

(٢) راجع البكري: المصدر السابق ص ١٦١-١٦٤، ابن عذاري: المصدر السابق ص ٥١، عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن عاصروهم من ذوي سلطان الأكبر ج ٦ دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٢ ص ٢١٤.

(٣) عن هذا المجهود راجع: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، مكتبة الحرية الحديثة عين شمس سنة ١٩٨٦ ط ٢ ص ٢٩٨-٣٠٠، محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس، الكويت سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ط ٣ ص ٢١٢-٢١٣.

(٤) كانت من أولى الدول الإسلامية التي ارتبطت بعلاقات مع غانة السودانية وقد كانت عاصمتها أودغست وذلك في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، حيث قامت بتنظيم العلاقات التجارية واستفادت جداً منها وأفادت بلاد المغرب للمزيد راجع أحمد إلياس حسين: العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي فيما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين / الثامن والحادي عشر الميلاديين، دكتوراه، معهد الدراسات الأفريقية، قسم التاريخ، القاهرة سنة ١٩٨٢ ص ٨٧، Nehemia Levtzion: The Sahara and the Sudan from the Arab conquest of the Maghrib to the Rise of Almoravids, in Cambridge history of

الرستمية^(١) والمدراية^(٢)، ثم من بعدها الفاطميين وبنو زيري^(٣) حيث نشط في عهود كل هؤلاء الحركة التجارية وترددت القوافل بين المغرب والسودان دون أن تكون الصحراء حاجزاً بين الجانبين وذلك حتى تأتي الانطلاقة الكبرى في التجارة الخارجية بين المغرب والسودان خلال العصور التالية في عهود المرابطين والموحدين وورثتهم ببلاد المغرب^(٤) يقول ابن خلدون^(٥) "وعلى هذا النيل (نيل السودان) أي النيجر ورافده" مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة مالي من أمم السودان وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى". لتتكون في النهاية شبكة ممتدة ومتشعبة من الطرق التجارية* بين الشمال والجنوب ربطت كل مدن المغرب الإسلامي الكبرى بلا إستثناء ببلاد السودان^(٦) والتي من خلالها لعب المغرب الإسلامي دور الوساطة التجارية العالمية بين العالم الإسلامي وأوروبا من ناحية وبلاد السودان من ناحية أخرى

Africa, volume 2, edited by J.D Fage, Cambridge univeristy press, Cambridge, 1988 PP 652- 3.

(١) محمود إسماعيل : المرجع السابق ، الحريري: المرجع السابق ، سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ٢ ، تاريخ دول الأغلبية والرستميين وبنو مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين، منشأة المعارف، الإسكندرية سنة ١٩٧٩ ، ١٩٧٩ ، Levztion Op.Cit PP 642-4 .

(٢) محمود إسماعيل : المرجع السابق ، محمد محمد عبد القادر: دولة بني مدرار، القاهرة سنة ١٩٨٩ ص٤٨ - ٤٩ .

(٣) Levztion: Op. Cit, PP 647- 8

(٤) وهوما سيتضح خلال الصفحات التالية من البحث إن شاء الله .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ ١ بتحقيق د/ علي عبد الواحد وافي، ص٣٦٠ .

* راجع هذه الطرق على الخريطة في الملحق رقم (٤)

(٦) وقد كفتنا في الحديث عنه كل من تحدث عن التجارة الخارجية لبلاد المغرب وهم كثر، هذا فضلاً عن خص هذا الموضوع بدراسة خاصة في رسالته للماجستير عن طريق القوافل التي ربطت المغرب ببلاد السودان خلال العصور الوسطى، معتمداً على كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، محدداً هذه الطرق في المنطقة الشرقية من الصحراء والمنطقة الوسطى والمنطقة الغربية منها ودارساً للمراكز التجارية على جانبي الصحراء الشرقي والجنوبي وزاد بأن درس السلع المتبادلة خلال هذه الطرق موضحاً في النهاية أثر هذه الطرق على الحياة الثقافية والإقتصادية في المغرب والسودان راجع أحمد إلياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب، ماجستير ، آداب القاهرة قسم التاريخ سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م غير منشورة .

وذلك من خلال أهله من المغاربة الذين نشطوا في تجارة السودان^(١) أو السفار من أهل المشرق الإسلامي أو حتى التجار الأوربيين في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، تلك الوساطة النشطة التي نقلت منتجات وبضائع العالم الإسلامي قاطبة وأوربا إلى بلاد السودان من خلال قوافل انتظم مرورها من الشمال إلى الجنوب لتعود محملة ببضائع السودان ومنتجاته^(٢). والسؤال الملح علينا في هذه الورقة ونحاول الإجابة عليه أين تجارة الملح من هذا النشاط التجاري بين المغرب وبلاد السودان؟

(١) إذ تعددت الإشارات في مصادرنا التاريخية والفقهية وكتب التراجم عن تجار من المغرب ذهبوا إلى السودان متاجرين، رغم تحذير الفقهاء من السفر إلى هذه البلاد أو الإقامة بها لعدم استنزاف خيرات المسلمين وتحرى الكسب الحلال فمنهم من عاد بثروات طائلة ومنهم من مات هناك ومنهم من أقام في بلاد السودان. عن هذه الإشارات راجع على سبيل المثال لا الحصر: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القبروان وأفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم جـ ١، تحقيق بشير البكوشي ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٤م ص ١٨٢، جـ ٢ ص ١٠٢، ص ٢٨٤، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي القاسي: المستفاد من مناقب العباد بمدينة قاس وما يليها من البلاد ص ١٦٧، القاضي عياض السبتي: ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧٩، العمري: مسالك الأبصار، جـ ٤، ص ٢١١، عبد الرحمن بن خلدون تاريخ ابن خلدون م ٦ ص ٦، ص ٢٣٦، ص ٢٣٨، الوثائقي: المعيار المغرب جـ ٩ ص ١٦، جـ ١٠ ص ١٣٥. وقد قام بعض المستشرقين بدراسة هذه الاتصالات التجارية ببلاد السودان وتتبعوها منذ البداية حتى ازدهار هذه العلاقات في القرون المتأخرة ومنهم من ذكر أن تلك الاتصالات كانت مبكرة جداً قبل أن يقيم رجال الدين الحوار مع السودانيين راجع عن ذلك Michel Brett: Islamic and Tarde in the Bilad Al Sudan, Tenth and Eleventh Century A.D, en Journal of African history, volume 24, 1983 Number 4 P 431 ff

(٢) إذ صدرت المغرب إلى بلاد السودان بالإضافة إلى الملح، النحاس ومسبوكاته والخرز والودع والقمح والتمور والفواكة المجففة والأكسية والثياب من الصوف والعمائم والزجاج والأصداف والأحجار الكريمة والعطور... الخ واستورد المغاربة وحمل السودانيون إلى بلاد المغرب الذهب والرقيق والعاج، ريش النعام والغنير وغيرها. عن السلع المتبادلة بين الطرفين راجع:-- بوفيل: الممالك الإسلامية ص ١٤٨، ١٦٠، =نعيم قذاح: أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر سنة ١٩٧٥ ط ٢ ص ٧١-٧٢، عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ٢ مطبعة يوسف، القاهرة سنة ١٩٦٧م ص ١٨، محمد زنبير: المغرب في العصر الوسيط ص ٣٣١-٣٣٢، أمين توفيق الطيبي: دراسات ص ١٨٨-١٨٩، ص ٣٧٢. إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادي ص ١٢٥، هوبكنز: التاريخ الاقتصادي ص ١٦١-١٦٣. موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول ص ٣٣٧. أحمد إلياس حسين: المصدر السابق ص ١٤٤ وما بعدها... الخ.

أ-الملح في التجارة بين المغرب وبلاد السودان :-

نقول رغم أن مصادرنا تحدثت عن العلاقات التجارية المبكرة بين بلاد المغرب وبلاد السودان إلا أنها لم تهتم كثيراً بنوعية السلع المتبادلة بين الطرفين وخاصة السلع المصدرة من بلاد المغرب أكثر من اهتمامها بالذهب وتجارته، حيث ركزت عليه كأساس للتجارة بين المغرب والسودان، وتواترت معلوماتهم عن غنى بلاد السودان بهذا المعدن^(١) وأن مدار سلوك الطرق إلى الجنوب كان وراء هذه السلعة التي جذبت التجار من كل حذب وصوب من عالم الإسلام وغيره، ولهذا تواترت المعلومات عن الملح وتجارته مع بلاد السودان في القرون الأولى، ويبدو أن هذا الذي دفع بعض المحدثين^(٢) إلى القول بأن استغلال مناجم الملح الصحراوية قد ازدهر في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري، ووجد الانتاح المعد للتبادل والتجارة المنتظمة. ولكن ليس معنى ذلك إنعدام تجارة الملح بين الطرفين في القرون الأولى، خصوصاً أنه معلوم عن بلاد السودان افتقارها الشديد للملح في العصور القديمة^(٣) واستمر ذلك في العصور الوسطى والحديثة وهوما أثبتته لنا مصادرنا نفسها التي تحدثت عن تجارة الذهب المزدهرة بين الطرفين فورد في أحدها أن الملح "معدوم في داخل السودان"^(٤) "وليس في شيء من السودان الوالجين في الجنوب المسامتين لسجلماسة وما ورائها ملح"^(٥) "وقال آخر" أما في بلاد السودان فلا يوجد

(١) راجع على سبيل المثال: ابن عبد الحكم: المصدر السابق ص ٩٤، اليعقوبي أحمد بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب المشهور باليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول دار صادر، بيروت، بدون سنة - ١٩٣ - ١٩٤، إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد صابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غريال، سلسلة الذخائر رقم ١١٩، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة سنة ٢٠٠٤ ص ٣٤، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج ٢، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦ ص ٢٧٢، ابن حوقل "صورة ص ٩٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٢، ابن سعيد: بسط الأرض ص ٢٦، أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٦٧٨، الدمشقي: نخبة الدهر ص ١١١، المقرئ: جني الأزهار ص ٧٥، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧.

(٢) P20 و McDougall. The view from Awdoghust.

(٣) راجع هوبكنز: المرجع السابق ص ٢٩

(٤) العمري: مسالك ج ٤ ص ٢١١، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩١.

(٥) العمري: المصدر السابق، القلقشندي: المصدر السابق

منه شيء - أي الملح - وخاصة في الجهات الداخلية^(١) ، حتى صار الملح أثمن ما يهدى إلى الملوك^(٢) وأثمن من أن يوضع على المائدة في ملاحات بل كان يقطع قطعاً ويمسك باليد ليلبس مع الطعام المأكول فلا يطحن أبداً أو يرش خشية النفاد^(٣). ولأهمية الملح القصوى ونفاسته عند السودانيين كان سلعة استراتيجية توضع لها الترتيبات الأمنية ويخزن في المخازن الملكية حرصاً عليه وتدابيراً لتلك السلعة النادرة^(٤).

وهذا ما يدفعنا حتماً إلى استنتاج هام وهو أن التجارة لم تكن أحادية السلعة أي أن المسلمين وغيرهم قد اتجهوا إلى بلاد السودان لجلب التبر أو الذهب الخالص دون حمل بضائع أو سلع أخرى مقابل هذا المعدن الثمين وإنما حمل المسلمون سلعة متعددة وكان على رأسها الملح نظراً لاحتياج السودانيين إليه احتياجاً شديداً إلى حد أن ذكر أحد المحدثين^(٥) أنه "إذا كانت تجارة الذهب انتشرت أكثر ما يكون لكن الملح كان للأفريقيين والسودانيين أكثر أهمية بكثير حتى لم يعد هناك من الأقوال أكثر من أن الذهب كان يقدر بواسطة السودانيين كقوة شرائية للملح، فكان أساس تجارتهم الداخلية والخارجية ولم تكن أحدهما أي تجارة الذهب والملح تتم تماماً دون الأخرى. مما ينم عن شدة احتياجهم لهذه المادة الضرورية لحياة الإنسان.

ويؤكد لنا ذلك ابن حوقل^(٦) بقوله "وحاجتهم - أي ملوك السودان - إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية ديار الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به" وهذه المعلومة نفسها كانت من تباشير المعلومات عن الملح وتجارته مع بلاد السودان حيث بدأت بعدها المعلومات

(١) ابن الوزان الزبائي: وصف أفريقيا ص ٦٥٧.

(٢) ويذكر أن أحد التجار المسلمين المغاربة دخل بملح إلى بلاد السودان حتى وصل بالملح إلى مدينة من مدن كفار السودان فأهدى إلى ملكها شيئاً من الملح فقبله وبعث إليه بجاريتين من أحسن السودان صورة وذلك من أجل أن يذبحهما ويأكلهما على عادة أهل هذه المدينة ، وكان ذلك أغلى ما يهدى ، ولما حضر عنده بعد يومين قال له : بعثت إليك بجارتين ما ذبحتهما فقال له : ما يحل هذا عندنا فقال : أي شيء ؟ قلت : لحم البقر والغنم فبعث ببقر وغنم وكل ذلك تقديراً لنفاسة الملح وأهميته راجع العمري : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٨.

(٣) الزبائي : المصدر السابق ، هوبكنز : المرجع السابق ص ٩٢.

(٤) هوبكنز : المرجع السابق .

(٥) بوفيل : الممالك الإسلامية ص ٣٠٤.

(٦) صورة ص ٩٨.

تتواتر في مصادر أخرى عن هذا النشاط فيحدثنا البكري^(١) المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م عن إحدى مدن غانا وهي سلي فيذكر أن أهلها كانوا يتبايعون بالذرة وحلق النحاس وكذلك بالملح القادم إليهم من الشمال. ويذكر عن بلاد القرويين أن الملح كان يبدل فيها بالذهب^(٢). ويجسد تجارة الملح الإسلامية في بلاد السودان وفي مدينة أوكارا الغانية^(٣) فيقول "ولمكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجة"^(٤). ويذكر عن مدينة كوغة التي بينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة أن "أكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس"^(٥) ويتحدث عن أهل كوكو "جاو"^(٦) أن "تجارتهم بالملح وهو نقدهم والملح يحمل إليهم من بلاد البربر"^(٧) وفي أثناء حديث الإدريسي^(٨) عن مدينة أوليل معدن الملح أن منها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان" ويؤكد لنا ابن سعيد^(٩) هذه المعلومة بقوله عن أهل أوليل "وتجارتهم بالملح يصعدون به في المراكب على شطوط النيل" ويقصد بذلك نهري السنغال والنيجر، ومن خلال نشاط تجار أوليل في تجارة الملح إلى السودان يؤكد العمري^(١٠) أنهم يستغلونها أفضل استغلال بقوله "وبها ملاحه تمد جميع بلاد السودان" وينبأنا ياقوت الحموي وغيره^(١١) عن تجار يخرجون من مدينة سجلماسة يحملون ضمن تجارتهم إلى بلاد السودان الملح "ومن ملاحه تغازي كان يتجهز بالملح إلى بلاد السودان"^(١٢).

(١) المغرب صـ ١٧٣.

(٢) المصدر السابق صـ ١٧٤، الحميري : الروض صـ ٣٤٨.

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق صـ ١٧٦

(٥) المصدر السابق صـ ١٧٩

(٦) راجع ما سيأتي عن هذه المدينة صـ ٩٥ .

(٧) المصدر السابق صـ ١٨٣

(٨) نزهة حـ ١ صـ ١٦

(٩) بسط الأرض صـ ٢٤.

(١٠) مسالك حـ ١ صـ ٥١٤.

(١١) معجم البلدان حـ ٢ صـ ١٢ العمري : المصدر السابق حـ ٤ صـ ٢١١، العمري : المصدر السابق

حـ ٤ صـ ٢١١ الفلقشندي : صبح الإعشى حـ ٥ صـ ١٦٤.

(١٢) راجع ابن بطوطة: الرحلة حـ ٢ صـ ٧٧٣ . للزياتي : وصف أفريقيا صـ ٥٤٠.

ب- مراكز تجارة الملح بين المغرب والسودان :-

كل هذه المعلومات تؤكد لنا وجود تجارة رائجة للملح بين المغرب وبلاد السودان وإن كانت هذه المعلومات تقتصر فقط على تحديد مناطق المتاجرة مع بلاد السودان في الملح ، فإن هذا ما يدفعنا للحديث عن مراكز تجارة الملح ببلاد المغرب وكذلك بلاد السودان ولكن قبل أن نشرع في ذلك يجب أن نعرف مصادر الملح الموجه إلى بلاد السودان باستثناء معلومة ابن حوقل^(١) عن علاقة ملوك السودان بملوك أودغست الصنهاجية والتي تفيدنا بأن تلك المدينة كانت تستقبل الملح من كل ديار الإسلام وتصدره إلى بلاد السودان، فإن المعلومات بعد ذلك نادرة عن هذا الموضوع فلم نجد ما يعزز تصدير الملح إلى بلاد السودان من شمالي المغرب وأن كانت معلومة ابن حوقل تتبأننا بأن بعض التجار يأتون بالملح من شمال المغرب للمتاجرة به في بلاد السودان فإن الجزء الأكبر من الملح المصدر إلى السودان كان يصدر من مناجم الجنوب، ولذا فإن هناك مدناً في الجنوب وعلى أطراف الصحراء منتجة للملح أو مستقبلة له من مناطق إنتاجه حول تلك المدينة أو قريباً منها تخصصت في تصدير الملح إلى بلاد السودان، وفي المقابل كانت هناك سودانية عدت مراكز لاستقبال تجار الملح من المغاربة والتي قامت بنفس دور المدن الإسلامية بالمغرب في استقبال الملح وتوزيعه على بقية بلاد السودان وبالنسبة لمدين المغرب التي كانت بمثابة موانئ صحراوية لتصدير الملح إلى بلاد السودان نذكرها من المشرق إلى المغرب على النحو التالي:-

- بالمسا:- وهي مدينة تابعة لإقليم كوار الذي قام بافتتاحه عقبة بن نافع، اشتهر هو وإقليم فزان كما ذكرنا باستخراج الملح ليس فقط في العصر الإسلامي منذ العصور القديمة أيضاً وذلك لما يذكر من أن أهالي هذا الإقليم كانوا يستخرجون الأملاح بطريقة التبخير الشمسي وكذلك عن طريق الغلي للحصول على بلورات الملح النقية^(٢) وذكر أنهم كانوا يصدرونه إلى بلاد السودان^(٣) بعد أن راكموا هذه البلورات على هيئة اسطوانات ذكورية الشكل يلفها التجار

(١) المصدر السابق ص ٩٨.

(٢) عن هذا الموضوع راجع مولاي عمر: الماء والملح والكبش عند الأمازيغ بين الحفريات والميثولوجيا في

الموقع www.atlaselmagrebmaktooblong.com ، كيرلاتسكي: تاريخ الملح في العالم ص ٤١.

(٣) كيرلاتسكي: المرجع السابق

الفرانيون بعناية في حصر من قش وتنقلها القوافل عبر الصحراء^(١) ولا شك أن هذا النشاط قد استمر في العصور الوسطى ، ولكن يبدو أن الطريق التجاري الذي يمر في تلك المنطقة^(٢) قد أثر بالسلب حين انقطاعه لأسباب طبيعية وأمنية على النشاط الإقتصادي التجاري منها والصناعي والتعديني ومنها استخراج الأملاح وبالتالي قلت عنها المعلومات في مصادرنا التي بين أيدينا إلا أن مناجم الملح في هذه المنطقة قد أخبر عن نشاطها التعديني والتجاري كذلك في العصور الوسطى فيؤكد فيشر^(٣) وجود النشاط التعديني في الملح بمنطقة كوار وبالما في العصور السابقة لفترة دراسته عن علاقة المغرب الأدنى بوسط السودان من ١٠٥٠ - ١٦٠٠ م أي قبل القرن الحادي عشر / الخامس الهجري وأن إنتاج بالما من الملح في هذا الوقت كان من النوع الأبيض الممتاز ويؤكد على تصدير هذا المنتج إلى تشاد خلال القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري^(٤) وإلى بلاد الهوسا منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري حيث كان النشاط الرئيسي لتجار أير من الطوارق^(٥) مما يؤكد استمرار الإنتاج والنشاط التجاري إلى بلاد السودان حتى أواخر العصور الوسطى ويؤيد هوبكنز^(٦) ما ذهب إليه فيشر حيث يقول بأن إمدادت السودان الغربي من الملح كانت من خمس مناطق رئيسية في الصحراء أو بالقرب منها وعد من بينها بالما في الشرق وأوليل في الغرب وقد استمر ذلك النشاط في العصور

(١) مولاي عمر : المرجع السابق

(٢) راجع : ابن حوقل : المصدر السابق ص ٦٥ .

(٥) H. j Fisher: The Eastern Majhrib and the Central Suden , in The Cambridg History of Africa , Volume3 from 1050 c to 1 600 , edited by Roland Oliver , S.D p 208

(٦) وذلك قياسا على ما ذكره الإدريسي من تصدير تلك المنطقة معدن الشب الجيد المعروف بالكوارى إلى تشاد في هذا الوقت . راجع نزهة المشتاق ص ١١٦، ١١٨ .

(٧) Fisher :Op.Cit 208

(٨) التاريخ الإقتصادي ص ٩٢

الحديثة^(١) وذكرت بالما أنها من أهم المدن المنتجة والمصدرة كذلك للملح إلى جنوب الصحراء وخاصة لمنطقتي برنو والهوسا^(٢).

- زويلة وزالة وارجلان:- وكلها كانت مراكز انطلاق جنوبي المغربين الأننى والأوسط للقوافل المتجهة إلى بلاد السودان^(٣) وبالذات إلى بلاد كوكو والتكرور وغانة محملة بالملح والنحاس والودع.^(٤) وقد لعبت وارجلان بالذات دوراً فاعلاً في تجارة الملح مع السودان ومملكة غانة وذلك لما يذكره كل من الإدريسي^(٥) والحميري^(٦) من وجود طريق مباشر بينها وبين غانة وقد ازدهر هذا الطريق وترددت فيه القوافل منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وقد ساعد وجود تغازي وتاوديني - مركزي الملح في الصحراء في منتصف المسافة بين وارجلان وغانة - على إعطاء هذا الطريق أهمية خاصة مكنت القوافل من حمل الملح

(١) إذ يتأسف الرحالة المدعو Barth في القرن التاسع عشر والذي زار المنطقة على خلو الطعام فيها من الملح أو أنه غير ملح عديماً النكهة في أرض إنتاجها وتجارتها كان الملح راجع (Fisher: The Central Sahra P 86) وقد كانت صادرات بالما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من الملح سنوياً يتجاوز الخمسين ألف حمل جمل (هوبكنز: المرجع السابق ص ٩٣) وما زال إنتاج الملح وتصديره إلى النيجر مستمراً من بالما في قوافل تسير شهرين كاملين في مجموعات تضم الواحدة منها مائة حمل لمبادلة الملح ليس بالذهب ولكن بالمواشي راجع كيرلاتسكي : تاريخ الملح ص ٣٣٢. ولا شك أن ذلك لأهمية الملح للسودانيين في برنو والهوسا ومن شدة الاهتمام بالملح وكثرة الإتجار فيه وجدنا المعجم اللغوي للهوسا يتضمن أكثر من خمسين كلمة للدلالة على مختلف أنواع الملح راجع : نياني: أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، ضمن تاريخ أفريقيا العام - المجلد الرابع بيروت سنة ١٩٨٨ ص ٣٢ هامش ١٢٤.

(٢) راجع بوفيل: الممالك الإسلامية ص ٣١٤، كيرلاتسكي : تاريخ الملح ص ٤٢ ، نياني: المرجع السابق ص ٣٠٢، Fiher:Op.Cit. ويذكر فيشر أن ملح بالما لم يكن على درجة عالية من الطيب ولكنه كان ذا أهمية كبيرة عند الهوسا Ibid .

(٣) راجع الإدريسي: نزهة ص ٣١١، ابن سعيد : بسط ص ٦٠-٦١، المقرئزي: جني الأزهار ص ٧٣، ٧٥، أبو الفدا : تقويم ص ١٤١-١٤٣، القلشغندي : صبح ص ١٠٨.

(٤) محمود إسماعيل : الخوارج ص ٢٨١.

(٥) نزهة ص ١٠٨.

(٦) الروض ص ٦٠٠.

والتزود به في طريقها إلى مملكة غانة^(١)، زد على ذلك ما يذكره الإدريسي^(٢) من اتصال وارجلان المباشر ببلاد وانجارا ومعلوم أن أهل وانجارا لا يبادلون ذهبهم إلا بالملح.

- **غدامس:-** وهي مدينة صحراوية جنوب بلاد الجريد^(٣) وقد اشتهرت هي الأخرى بالملاحات حولها والتي كان ملحها من النوع الصخري المفضل والذي كان يحمل إلى الشمال ويصدر إلى الخارج وبالذات إلى أوربا مفضلاً عن ملح البحر^(٤)، إلا أن الجغرافيين يشيرون إلى غدامس على أنها حصون على الجادة الموصلة إلى بلاد السودان وخاصة الكانم^(٥) هذا فضلاً عن جاو^(٦) ولذا كانت مصدرة أيضاً للملح وقد توارد أهالي فزان وغدامس وأوجلة على دولة مالي الإسلامية السودانية وبالذات العاصمة تمبكتو حاملين معهم المنسوجات والأحذية وغيرها بالإضافة إلى الملح^(٧) ومما يؤكد نشاطهم هذا أن ابن بطوطة^(٨) سافر من غدامس في قافلة تجارية كبيرة من الغدامسيين إلى بلاد السودان.

- **تادمكة:-** من المدن الهامة في منطقة أدرار الجبلية وهي أحد أسواق الصحراء الهامة. وأهلها برابر مسلمون يكثرون التجارة والسفر إلى بلاد السودان^(٩) وخاصة إلى غانة وجاو^(١٠) وقد أطلق عليها المسلمون لذلك اسم السوق حيث كان التجار يأتون إليها من القيروان وغدامس^(١١) في الشمال فضلاً عن تاهرت وورجلا^(١٢) يحملون بضائع وبيع المنطقة وعلى

(١) أحمد إلياس حسين: العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي ص ١٤٢.

(٢) المصدر السابق

(٣) القلقشندي : صبح حـ ص ١٥٠.

(٤) راجع Fisher: The Central Sahara and Sudan p86

(٥) القلقشندي : المصدر السابق ص ١٥٠.

(٦) Levzion Op. Cit P650

(٧) الهادي مبروك : مملكة مالي ص ١٨٢.

(٨) الرحلة ، حـ ٢، ص ٧٣٧.

(٩) ابن سعيد : بسط ص ٤٩.

(١٠) Levzion:Op. Cit P 650

(١١) بوفيل : الممالك ص ١٣٢ ، Levzion: Op. Cit P 650

(١٢) Levzion: The Western: P 349

رأسها الملح فيذكر البكري^(١) أنه كان يحمل إليها الملح من بلاد البربر من مكان يقال له توتك. حيث كان يستخرج الملح الصخري من باطن الأرض والمسافة بينهما ست مراحل وقد كان هذا الملح يحمل منها إلى بلاد كوكو (جاو) بالسودان.

- سجلماسة:- لم يذكر في مصادرنا أن في سجلماسة ملح سوى أن أرضها كانت سبخية^(٢) مما يحتمل معه استخراج الملح منها، ولكن المدينة من ناحية أخرى كانت مركزاً مهماً في تجارة الملح، فيذكر ابن حوقل^(٣) عن نشاطها التجاري مع السودان بأنه مستمر غير منقطع، ولهذا كانت عامرة بالتجارة والأرباح فيها متوافرة وكان الملح على رأس السلع الاربعة في هذه المدينة والذي كان يحمله التجار إلى بلاد السودان^(٤)، وذلك بعد أن يأتيها من فاس^(٥) ومن الملاحات الموجودة في صحراء صنهاجة والتي تبعد عن سجلماسة عشرين يوماً^(٦)، فيتجهز به التجار إلى بلاد غانة وسائر بلاد السودان^(٧)، وقد صار الطريق منها إلى بلاد السودان عن طريق تغازي من الطرق الرئيسية وذلك رغم طوله وصعوبته^(٨)، يقول أبو حامد الغرناطي "يحمل التجار إليهم أي السودانيين الملح على الجمال من الملح المعدن يخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب"^(٩) ولا شك أن ذلك راجع إلى أهمية المدينتين في سلعة كثر الطلب عليها في بلاد

(١) المغرب ص ١٨٣.

(٢) راجع ما سبق ص ٣٣ من البحث.

(٣) صورة ص ٩٦ راجع كذلك زين الدين أبو حفص عمر المعروف بابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، نشر هيلندر - لندن سنة ١٨٢٣ ص ١٥٨ .

(٤) للبكري: المصدر السابق ص ١٧١، ياقوت: معجم البلدان ح ٢ ص ١٢ العمري: مسالك ، ح ٤ ص ٢١١. القلقشندي: صبح ح ٥ ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) هالة خيرى الدقاق: دور قبائل المغرب الأوسط و الأقصى في حركة التجارة إبان القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ماجستير بمعهد الدراسات الأفريقية ، قسم التاريخ سنة ٢٠٠٢م غير منشور. ص ٢١٤

(٦) البكري : المصدر السابق ، ياقوت : المصدر السابق ، العمري : المصدر السابق.

(٧) البكري: المصدر السابق

(٨) راجع Levztzion: The Sahara and the Sudan P 468

(٩) راجع الشيخ محمد بن عبد الرحيم المعروف بأبي حامد الغرناطي : تحفة الألباب ، نشر وتحقيق Gabreil

Ferrend : Journal Asiatique Juillet- Septembre, 1925, p 42

السودان وهو الملح، الأولى بما يأتيها من خارجها تجارة والثانية بما تميزت بإنتاجها الوفير من الملح.

- **تاوده (تاوديني):** - من المدن الهامة المنتجة والمصدرة للملح إلى بلاد السودان والتي يذكر عنها المحدثون الذين أطلق عليها بعضهم اسم تغازي الجديدة^(١) وآخر في تغازي الغزلان^(٢) أنها استغلت بمناجمها في وقت توارى فيه دور تغازي في إنتاج الملح أي في العصر الحديث^(٣) ولكن في ترجمة لأبي عبد الله محمد بن يعلى المتوفى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م والمنسوب إلى هذه المدينة الصحراوية، وجاء أن هذه البلدة كان بها معدن الملح وأنه كان يحمل منها إلى سائر بلاد السودان^(٤).

- **تغازي:** - مدينة الملح المشهورة الواقعة في صحراء نول لمطة من السوس الأقصى استغلت ملاحاتها منذ فترة مبكرة^(٥) على الأقل من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وذلك بناء على ما ذكره البكري^(٦) وهو من أهل القرن الخامس عن تغازي من أن ملاحاتها كانت ذات غلة وفيرة وعظيمة، ولكن بحلول القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي صار ملح تغازي ذا مشاركة فعالة قوية لسد حاجة السودانين الملحة من الملح.

(١) نيقولا زيادة : المغرب والسودان : في أيام المنصور الذهبي ، مستلة من كتاب العيدي المنوي للجامعة الأمريكية سنة ١٩٦٧ ص ٥٩.

(٢) نيقولا زيادة : المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) مع أن تغازي نفسها ظلت تصدر الملح من القرن الثامن حتى استولى عليها المراكشيون سنة ١٩٨٥ راجع هوبكنز : التاريخ الإقتصادي ص ٩٣.

(٤) الشريف محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس / ح ٣ ، تحقيق عبد الله كامل الكتاني وآخرون ، الدائر البيضاء سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ط ٤ ح ٣ ص ١٣٦.

(٥) المغرب ص ١٧١ ، راجع كذلك : الحميري : الروض المعطر ص ٥٨٤.

(٦) إذ يذكر هوبكنز أنه ربما كانت تغازي المصدر الرئيسي للملح من القرن الثامن إلى أن استولى عليها المراكشيون ولكن لم يذكر مصدراً اعتمد عليه ولذا أخذنا بالأحوط استناداً على مصادرنا الإسلامية. راجع التاريخ الإقتصادي ص ٩٣.

وهذا ما دعى أحد المحدثين ^(١)، إلى القول أن بداية استغلال ملح تغازي كان خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري. وفي كل الأحوال احتلت تغازي المركز الأول في إنتاج وتصدير الملح إلى ما حولها من بلاد وكذلك إلى بلاد السودان فيذكر البكري ^(٢) أن من ملاحاتها يتجهز بالملح إلى بلاد السودان وكان يأتيها التجار المتجهون إلى الجنوب ليحملوا منها الملح فمنها يمتار المسافرون الملح إلى بلاد السودان ^(٣). وخص ابن الوزان الزيياتي ^(٤) مدينة تمبكتو بملح تغازي وظلت تغازي المنتج الأول للملح والسوق الرائجة له والمصدر الأول للملح إلى بلاد السودان حتى منتصف القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ^(٥) ولذا قيل أنها رغم تواضع المدينة بل وحقارتها كان يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب الذي يبادل أو يشتري به الملح ^(٦).

ورغم أن دور تغازي توارى قليلاً في النصف الثاني من القرن العاشر إلا أنها ظلت مصدراً هاماً للملح المصدر للسودان بدليل ما وقع من نزاع حربي بين السعديين ملوك المغرب الأقصى وملوك صنغاي عليها ^(٧) لما تمثله من أهمية اقتصادية في هذه التجارة وظلت هكذا حتى هجرت في أواسط القرن الحادي عشر/ السابع عشر الميلادي لصالح منجم مدينة تاوديني القريب منها ^(٨).

^(١) Mcdougall: The View from Audagust, P 21

^(٢) المصدر السابق ص ١٧١. راجع كذلك الحميري: الروض ص ٥٨٤.

^(٣) ابن سعيد: بسط ص ٤٧.

^(٤) وصف أفريقيا، ص ٥٤٠. راجع كذلك السلاوي: الاستقصا ح ١١١، هوبكنز: التاريخ الاقتصادي. ص ٩٣.

^(٥) Levtzion: The Western, P 468

^(٦) ابن بطوطة: الرحلة ح ٢ ص ٧٧٣.

^(٧) الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران ابن عامر السعدي: تاريخ السودان، تحقيق هودس وتلميذه بنوه، المدرسة الباريسية لتدريس الآداب الشرقية باريس ١٩٦٤م ص ١١١، ١٢٠، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات جمعية المؤرخين المغربية، الرباط ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ط ٢ ص ١٢٠ وما بعدها: نيقولا زيادة: المصدر السابق ص ٥٨ - ٥٩، بوفيل: الممالك الإسلامية ص ١٧٣ وما بعدها

^(٨) راجع الزيياتي: المصدر السابق ص ٥٢٩، هامش ١٣٩.

- الدجيل (العجيل): مدينة تقع الي الغرب من تغازي شمال أدرار^(١) لم يرد عنها شيء في مصادرنا الإسلامية المبكرة أو حتى المتأخرة إلا أن المحدثون^(٢) ذكروا أن ملحها قد استغل في فترة مبكرة وكانت في أولى المدن المصدرة للملح بعد إنتاجه إلى بلاد السودان. ويذكر هوبكنز^(٣)، أن الملح الصخري كان يستخدم منها كما كان يستخرج من تغازي وتوديني وقد تمت تنمية الموارد فيها أي مناجم الملح وهي على عمق سبع طبقات فيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين/ الخامس والتاسع الهجريين وكما استخدم عبيد مسوفة في استخراج الملح من مناجم تغازي استخدم أيضاً العبيد في استخراج ملح الدجيل لقطع قضبان الملح وتحميلها^(٤)، وقد أشير إلى استغلال هذا المنجم بواسطة Cadamasto البرتغالي أحد قواد هنري الملاح سنة ١٤٥٥م^(٥) ويؤكد كل من Levizton^(٦) و McDougall^(٧) على ازدهار تجارة الملح في هذه المدينة كمنتج وموزع له حيث كان التجار يأتوها من ودان المدينة الرئيسية لأدرار ويحملون ملحها إلى تاجنت وإلى والاته ثم إلى تمبكتو عاصمة مملكة مالي.

- أودغست:- مدينة على أطراف الصحراء الجنوبية قريبة جدا من بلاد السودان . تصب فيها تجارة الشمال المصدرة إلى الجنوب ولذا ذكر أن لها أسواق جلييلة والسفر إليها متصل من كل بلد قريبة من بلاد السودان^(٨) قريبة جدا من مراكز إنتاج الملح في الصحراء مثل تغازي وتوديني ومؤخرا الدجيل (العجيل) . كذلك من أوليل معدن الملح على الساحل فبينهما مسافة شهر^(٩) ولذا لعبت في تجارة الملح بين المغرب والسودان دورا محوريا وذلك منذ فترة

^(١) McDougall: Op.Cit P 20

^(٢) راجع على سبيل المثال هوبكنز: التاريخ الإقتصادي ص ٩٣.

^(٣) نفسه

^(٤) نفسه، ويشير McDougall إلى أن هؤلاء العبيد كانوا من سكان مدينة أودغست الذين عرفوا باسم Manbinne وهم خليط من البربر والسونك وتبعاً للقراءة التي أقرها أن الاسم مشتق من Max, sere, bin أي رجال الملك السود والذين وظفوا في مناجم الملح في الدجيل وعمال نقل لهذا الملح راجع Op. cit P 25

^(٥) Levizton: Op.Cit P 450

^(٦) Ibid

^(٧) Op. Cit P 21

^(٨) أبو الفدا : تقويم البلدان - ١٤٠.

^(٩) ابن حوقل : المدر السابق ص ٩٥.

مبكرة فى هذه التجارة البيئية ويمدنا ابن حوقل^(١) بمعلومات غاية فى الأهمية من مراكز أودغست فى تجارة الملح هذه ، فيذكر أن ملكها كان يخالط ملك غانة الغنى بما لديه من أموال والمدخر من التبر وأنه وغيره من ملوك السودان كانوا فى حاجة ماسة إلى أودغست وملوكها من أجل الملح الخارج إليهم من ديار الإسلام فإنهم لا قوام لهم إلا به ، ولم لا وهو أساس فى طعامهم وهام جدا فى نشاطهم الإقتصادي فلا غنى عنه فى الطعام ولا فى الاقتصاد وخاصة أنه من المعلوم أن الملح كان يبادل الذهب ومن هنا كون ملوك غانة ثرواتهم وأموالهم من الذهب وغيره من وراء الملح القادم إليهم من بلاد الإسلام عن طريق أودغست^(٢) فلا غرابة إذا إن فكر ملوك غانة فى الإستحواذ على هذه المدينة بعد أن بدا ضعف دولة انبيه الصنهاجية ونجحوا فى ذلك^(٣) ولكن بقوا فيها إلى وقت قصير حيث استردتها قوة أخرى صنهاجية وهم المرابطون^(٤) الذين أعادوا الأمور إلى نصابها وأحيوا التبادل التجارى القديم على أساس من التحكم فى مصير التجارة البيئية بناء على المصلحة المتبادلة بينهم وبين ملوك غانة فهم يريدون الذهب وملوك غانة يريدون الملح ، ومن هنا ظهر دور أودغست الكبير المتصاعد ويقرر ماكدوجال^(٥) هذه الحقيقة حيث يذكر ان أودغست لعبت دورا هاما فى تجارة الملح تماما تبعاً لدورها المتنامى من التبادل التجارى بين المغرب والسودان فى عهد مملكة غانة أو فى عهد المرابطين اذا اهتمت القوتان بالإنتاج وكذلك بالتجارة البيئية بين المنطقتين^(٦). وظلت أودغست تقوم بهذا الدور الهام حتى بعد أن توارى دورها قليلاً خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي نتيجة لاستغلال ملح الدجيل واستخراجه ونشاط تجارته فى ودان وأدرار وتاجنت وشنقيط واللاته^(٧). إذ كان هذا النشاط التجارى ينتهي إليها لتصدره هي إلى بلاد السودان^(٨)

(١) المدر السابق ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق

(٣) راجع هذه الأحداث ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٢٦٤ .

(٤) McDougall: The View PP 14-16

(٥) Op. Cit P 26

(٦) Levtzion: The Sahara p 653

(٧) McDougall :Op. Cit P 27

(٨) Op. Cit P 28

وذلك حتى تخلت عن دورها تماماً في التجارة بعامة وفي تجارة الملح خاصة خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لصالح مدن أخرى في المنطقة مثل ودان التي استأثرت بكل تجارة الملح القادم من الدجيل^(١)، بل أن البعض أعطى لها كل الدور في اقتصاد وتجارة الصحراء^(٢) وقال آخرون أن والاته قد حلت محل أودغست في تجارة العبور كلها^(٣) كما قرر فريق ثالث أن أدرار قد أغتصبت دور أودغست المبكر في تجارة الملح والعبود والذهب^(٤). والخلاصة أن دور أودغست في تجارة الملح قد ورثته في أواخر العصور الوسطى وأوائل الحديثة مدن أخرى ازدهرت فيها تجارة الملح نتيجة لظهور مناجم جديدة لهذا المعدن وخاصة في الدجيل وصدرته لبلاد السودان وخاصة إلى تمبكتو مثل ودان وأدرار ووالاتا وتاجنت والدجيل.

- **أوليل :-** مدينة تقع في صحراء صنهاجة الممتدة في ديار جدالة على الساحل ، وقد اشتهرت بأنها مدينة "معدن الملح"^(٥) استغلت مناجمها منذ فترة مبكرة استخراجاً وتجارة وذلك منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على الأقل^(٦). وكان ملحها أساس لتجارة هامة متسعة مع الجنوب وبلاد السودان عامة ، فيقرر البكري وغيره^(٧) أنه من أوليل تحمل الرفاق الملح إلى ما جاورها ، ويثبت آخرون^(٨) أن ملاحه أوليل مدت جميع بلاد السودان بالملح وذلك عن طريق البر والبحر أيضاً فيذكر الإدريسي في نزته^(٩) " أن المراكب تأتي إلى مرسى هذه المدينة على المحيط لتحمل بالملح وتسير به إلى سلى وتكرور وغانة وسائر بلاد ونغارة وكوغة وجميع بلاد السودان ". وقد قام أهلها بدور فاعل في استخراج الملح وتجارته ببلاد السودان إذ

(١) Op. Cit P 29

(٢) Ibid

(٣) Ibid

(٤) Ibid

(٥) انظر : ابن حوقل، صورة، ص٩١، الإدريسي : نزهة ح١ ص١٠٨. العمري : مسالك ح١ ص٥١٤.

(٦) McDougall:Op. Cit P 20

(٧) المغرب ص ١٧١، مجهول : الاستبصار ص٢١٤.

(٨) الحميري : الروض ص٦٤ العمري : المسالك ح١ ص٥١٤.

(٩) ح١ ص١٦.

يقول ابن سعيد^(١) أن أوليل " سراج مدن البحار وعيش أهلها من السمك وتجارتهم بالملح ويصعدون به في المراكب إلى البلاد التي على شطوط النيل " ولاشك أنه يقصد السير في نهري السنغال ثم نهر النيجر وفروعه في بلاد السودان ، وقد استمر هذا الدور لأوليل حتى أواخر العصور الوسطى رغم أن هذا الدور توارى قليلاً أمام الدور الذي قامت به تغازي في تجارة الملح مع السودان بداية من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري بفضل قبيلة مسوفة^(٢)

- والاته " ايوالاتن " : وهي في الأصل قرية بربرية سونكية صغيرة قريبة من أودغست ، انتقل إليها التجار المسلمون من غانة بعد تحرش ملك غانا بهم وعذب بعضهم^(٣) فصارت بهم مركزاً تجارياً هاماً بعد أن نمت وتطورت من القرية إلى المدينة وكانت معبراً مهماً إلى بلاد السودان مثل أودغست وذلك لموقعها على الطريق الرئيسي للتجارة بين سجلماسة والسودان^(٤) بل يذكر Levtzion^(٥) أنها حلت محل أودغست كنهاية رئيسية لطريق القوافل الصحراوية القادمة من الشمال مع مطلع القرن الثالث عشر. وكان يقطنها السودانيون والمغاربة كذلك حيث هاجر إليها كل المغاربة التجار الذين كانوا يعيشون في غانة بعد أن أنهار ملك غانة القديم بل ويقال أنهم هم الذين أسسوا هذا المركز التجاري الذي يبعد عن كومبي صالح عاصمة غانة بـ ١٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي^(٦).

ويؤكد إقامة المغاربة بها أن ابن بطوطة^(٧) في رحلته كتب إلى صديق له بها وكان من مدينة سلا ليؤجر له منزلاً قبل الوصول إليها وأكد لنا كذلك أهميتها في تجارة الملح بين المغرب والسودان إذ خرج منها ابن بطوطة^(٨) ولا يحمل سوى الملح والخرز وبعض البضائع الأخرى

(١) بسط ص ٢٤

(٢) راجع في ذلك، ابن بطوطة الرحلة حـ ٢ ص ٧٧٣، Levtzion: The Sahara, P 652.

. McDougall: Op. Cit, P 2I

(٣) راجع 2- 351 PP Levtzion: The Western

(٤) نيقولا زيادة: المغرب والسودان ص ٥٠-٥١ .

(٥) Op. cit PP 370-3

(٦) فيج : تاريخ غرب أفريقيا ص ٥١.

(٧) رحلته حـ ٢ ص ٧٧٦.

(٨) المصدر السابق ص ٧٧٩.

للمقايضة بها في بلاد السودان ويجب أن نتذكر هنا أن مدينة والاته كانت المقر الجنوبي الأقصى لشركة إخوان المقرري^(١) حيث كان يقيم فيها اثنان منهم كبوابة رئيسية من بوابات التجارة مع بلاد السودان ولها دور فاعل في التجارة عامة وتجارة الملح خاصة إذ يذكر Levtzion^(٢) أن تجارها كانوا يجلبون الملح الواصل من الدجيل إلى تاجنت ويقومون بتوصيله إلى تمبكتو ، فضلاً عن المتاجرة به في المدينة إذ يذكر ابن بطوطة^(٣) أن الملح يحمل إليها من الصحراء أحمالاً على الجمال يباع فيها الحمل الواحد بعشرة مثاقيل إلى ثمانية. وظلت المدينة هكذا طوال القرون المتأخرة من العصور الوسطى حتى تركها التجار شيئاً فشيئاً وذهبوا إلى تمبكتو وجاو^(٤).

وكما كان هناك مدناً مغربية في الصحراء وعلى أطرافها مثلت مراكز هامة في تجارة الملح وتصديره إلى بلاد السودان وجدنا على أطراف السودان الغربي وداخله كذلك مدناً كانت لها أهمية كبرى أيضاً في تجارة الملح وتوزيعه على ما جاورها أو بعيداً عنها من مناطق السودان الداخلية والذين كانوا في أشد الحاجة إلى الملح عن غيرهم من سودان الشمال ونذكر من هذه المدن من الشرق إلى المغرب:-

- نيساني :- من المراكز الهامة التجارية تقع في منطقة إلتقاء نهر النيجر مع السانكاراني^(٥) ويرجع الفضل في ازدهارها إلى تجارة الملح القادم من الشمال من بالما وفزان^(٦) وقد كانت في مرحلة من المراحل عاصمة لمملكة مالي الإسلامية حيث أشير إليها باسم مالي في هذه المرحلة^(٧).

(١) راجع ما سيأتي ص ١٠٦ .

(٢) OP. cit P 450

(٣) رحلته ح ٢ ص ٧٧٣

(٤) ابن الوزان الزياني: وصف ص ٥٣٦ .

(٥) فيج: تاريخ غرب أفريقيا ص ٥٤

(٦) الهادي مبروك: مملكة مالي ص ٧٥ ..

(٧) راجع بوفيل : الممالك ص ١١٦ ، الهادي مبروك: المرجع السابق ص ٧٥ ، فيج : المرجع السابق ص ٥٤ .

- جاو "كوكو" :- من المدن الهامة في بلاد السودان التي انتشر فيها الإسلام منذ نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي^(١)، وتبعد عن تمبكتو بحوالي ٤٠٠ ميل^(٢) ينكر عنها البكري^(٣) "أن تجارة أهلها بالملح وهو تقدمهم كذلك " وقد كانت أكثر السلع التي تحمل إليها مع الودع والنحاس المسبوك^(٤) ويتأكد من واصف أفريقي^(٥) أن التجارة فيها قد استمرت مزدهرة حتى القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي حيث يذكر أن التجارة كانوا يتجولون دائماً في المنطقة ببضائعهم كما كان يقصدها عدد لا يحصى من السود الذين يجلبون كميات كبيرة من الذهب ليشتروا به أشياء و سلع متعددة مجلوبة من أوروبا والمغرب أفاض في ذكرها وذكر من بينها الملح الذي كان العشر^(٦) منه يساوي ديناراً في هذه البلاد. وكان الملح وشدة الاحتياج إليه قد دفع حكام الصنغاي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى أن يحفظوه في المخازن الملكية^(٧) وذلك لندرته عندهم وهوما يعني عندنا أن الحاجة إليه دفعتهم لتشجيع تجار المغرب على جلبه إليهم وحمله إلى العاصمة جاو فيما بعد القرن الرابع الهجري باستمرار.

(١) الهادي مبروك: مملكة مالي ص ٧٥.

(٢) على ما يذكر ابن الوزان في وصف أفريقيا ص ٥٤٣ وإن كان المحقق يذكر أنها تبعد بحوالي ٤٥٠ كم تقريباً وليس ٤٠٠ ميلاً التي توازي ٦٥٠ كم . راجع هامش ٥٢ ص ٥٤٣.

(٣) المغرب ص ١٨٣.

(٤) البكري: المغرب ص ١٧٣، الاستبصار ص ٢٢٢.

(٥) ابن الوزان ص ٥٤٤.

(٦) يقصد العشر الإيطالي الذي يساوي عشرة أوتال أي ما يوازي ٣,٣٩ كجم راجع ابن الوزان: وصف هامش ٥٦ ص ٥٤٤.

(٧) هوبكنز : التاريخ الاقتصادي ص ٩٢.

- **جنبي** ^(١):- تقع جنوب غرب تمبكتو على نهر بانى ^(٢) وقد مثلت هي وتمبكتو نقلاً اقتصادياً في مملكة مالي لما كانت تتقلانه من بضائع الشمال المغربي إلى بلاد السودان وخاصة من الملح ^(٣)، الذي ازدهرت تجارته بها وكان من السلع ذات القيمة المرتفعة جداً ^(٤) وخصوصاً الملح القادم من تغازي والذي كان يبادل بالذهب فيها فيذكر السعدي ^(٥) : " أنها سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقى أرباب الملح من معدن تغازي وأرباب الذهب من معدن بيط" ^(٦) وذلك لكثرة هذا المعدن فيها لأنها كانت ذات موقع هام لمصادر الذهب في الجنوب فهي تقع في بداية الطريق التجاري المتجه صوب الجنوب والجنوب الشرقي حيث مناجم الذهب في لوبى وما وراءها من مناطق منتجة للذهب ^(٧).

وهو ما كان سبباً في رخائها الإقتصادي الذي جذب إليها التجار من الشمال المغربي والرفاق من كل الآفاق الحاملين للملح وتجارة المغرب فوجدوا فيها البركة " فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثير وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله" ^(٨).

- **غانسة**:- مدينة من مدن السودان الغربي تقع جنوب أودغست صار اسمها علماً على مملكة غانة السودانية وقد كان موقعها يماثل مدينة كومبي صالح الحديثة عاصمة غانة ^(٩) وقد ارتبط

^(١) تأسست هذه المدينة في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري يقول عنها السعدي : كانت إحدى مدن أفريقيا الهامة وفيها تجار أكثر من المغرب ، راجع تاريخ السودان ص ١٢ راجع كذلك بوفيل : الممالك الإسلامية ص ١٣٤ ، عبد الرحمن زكي: المسلمون في غرب أفريقيا - ٢ - مطبعة يوسف القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ١١-١٢.

^(٢) فيج : تاريخ غرب أفريقيا ص ٥٥.

^(٣) راجع السعدي : تاريخ السودان ص ١٢ ، الهادي مبروك : المرجع السابق ص ٤٦ .

^(٤) المرجع السابق .

^(٥) نفسه

^(٦) فيج : المرجع السابق

^(٧) نفسه.

^(٨) السعدي : المرجع السابق.

^(٩) راجع إبراهيم على طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر - مصر سنة ١٩٧٠ ص ٣٤ - ٣٦ ك ، مادهو باتيكار : الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب

اسمها عند الكتاب المسلمين بإنتاج الذهب وكثرته^(١) فيها ولكن غانة لعبت دوراً تجارياً في غاية الأهمية بالنسبة لتجارة الملح حيث كانت القوافل المغربية تصل إليها حاملة البضائع ولاسيما الملح لمبادلتة بالذهب^(٢) إذ كان الملح يأتي إليها من المغرب وصحرائها وبالذات من تغازي^(٣) وأوليل^(٤) وقد شكل الملح لغانة وملوكها أهمية عظيمة كونوا من ورائه أموالاً طائلة حتى صار يضرب بهم المثل في الغنى وكان يهادي من ورائه من ملوك السودان وخاصة ملوك كوغه^(٥) ولا شك أن ذلك لتحسين العلاقات من أجل تجارة الملح ومبادلتة بالذهب الذي كان مدخراً عندهم تبراً خالصاً يزيده ملوكهم واحد بعد الآخر^(٦) ، إذ كانوا يبيعون هذا الملح بثمن مرتفع وربما بلغ الحمل من الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلثمائة دينار^(٧). وهو دليل قوي على أن غانة كانت من مراكز تجارة الملح وتوزيعه على بلاد السودان الداخلية^(٨). كما كان غناها بالتبر ومجاورتها لأرض التبر سبباً لجلب التجارة واجتماعهم فيها ومنها كانوا يخرجون إلى بلاد التبر الذي من أجله جاءوا من الشمال حاملين الملح وغيره^(٩).

أفريقيا ، ترجمة وتعليق ومراجعة ، أحمد فؤاد بليغ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة سنة ١٩٩٨م. ص٧٨-٧٩.

^(١) راجع ابن حوقل : صورة ص٩٨ ، اليعقوبي: تاريخ م ١ ص ١٩٤ ، البكري: المغرب ص١٧٦-١٧٧ ، مجهول : الاستبصار ص٢٢١ ، ياقوت: معجم البلدان ح٢ ص١٢ ، ابن سعيد: بسط الأرض ص٢٦ ، القزويني : آثار البلاد ص٤٢ ، ٥٧ ، ابن الوردي : تاريخه ١٥٨ ، أبو الفدا : تقويم ص١٧٨ ، الدمشقي: نخبة الدهر ص١١١ ... وغيرها.

^(٢) ابن حوقل: صورة ص٩٨ .

^(٣) البكري : المصدر السابق ص١٧١ ، الحميري : الروض ص٥٨٤.

^(٤) البكري : المصدر السابق ، الإبريسي: المصدر السابق ص١٦ .

^(٥) ابن حوقل: المصدر السابق .

^(٦) نفسه

^(٧) نفسه

^(٨) راجع : Levztion: Op. Cit P 671

^(٩) راجع اليعقوبي: المصدر السابق ص١٩٤ ، القزويني : المصدر السابق ص٤٢ ، ٥٧ . راجع كذلك ابن

الوردي : المصدر السابق

- التكرور: مدينة ومملكة تقع إلى الغرب من غانا لا يعرف عنها إلا القليل رغم أن اسمها عند المسلمين كان الأكثر شيوعاً وخاصة بين الجغرافيين^(١) ومدينة تكرر مدينة عظيمة مشهورة على نهر السنغال الذي يقسمها نصفين^(٢) وكان لأهلها النشاط الملحوظ في التجارة بين المغرب وبلاد السودان إذ كانوا يرسلون الذهب والرقيق إلى بلاد المغرب^(٣) ويذكر بوفيل^(٤) أنهم كانوا أكثر اهتماماً بتجارة أخرى وهي تجارة الملح الذي استورده من أوليل ليوزعوه على منطقة واسعة من السودان الغربي ولذلك شواهد في مصادرنا إذ يذكر الإدريسي^(٥) أن ملح أوليل كان يحمل بالمراكب إلى جميع السودان وكان من بينها مدينة التكرور .

- وانجارا: مدينة الذهب في السودان، السر الأكبر الذي شغل بال الكتاب قديماً وحديثاً^(٦) والتي لم يستطع المتعاملون في ذهب السودان من مسلمين وأوربيين فيما بعد معرفة مكانها على وجه التحديد^(٧)، فلم تكن معروفة إلا لفئة قليلة من الوسطاء السودانيين أنفسهم والذين حرصوا على كتمان هذا السر على التجار المتعاملين معهم^(٨) فيما عرف باسم التجارة الصامتة^(٩) والتي

(١) البكري : المصدر السابق ص ١٧٢، الإدريسي : المصدر السابق ، أبو الفدا : تقويم ص ١٤٣،

القزويني : المصدر السابق ص ٢٦ ، ابن سعيد : بسط الأرض ص ٢٤.

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق

(٣) بوفيل : الممالك ص ١١٢

(٤) الممالك ص ١١٢

(٥) نزهة ج ١ ص ١٦

(٦) راجع بوفيل : الممالك ص ٢٤٧ وما بعدها.

(٧) وإن كان البعض اجتهد في تحديد مكانها حديثاً فيرجع بوفيل (الممالك ٢٥٢) أنها تشمل منطقتين من أربع مناطق اشتهرت بإنتاج الذهب لمدة طويلة وهي بامبوك التي تقع بين السنغال الأعلى وأتهار فاليمي Falme وبوري Bure عند ملتقى نهر النيجر الأعلى بفرعه المسمى تنكيسو ولوبي على الفولتا العليا واشانتى في داخل ساحل الذهب ، وهاتين المنطقتين هما بامبوك وبوري فيقول "في كل المناسبات لا يوجد مكان للشك من أن بامبوك وبوري معاً كونا وانجارا التي عرفها الجغرافيون العرب مع أن لوبي كمكان لوانجارا لها ادعاءات لا يمكن استبعادها . ويقطع فيج (تاريخ غرب أفريقيا ص ٤٥) أن طريق فزان- بلاد السودان الذي ينتهي عند الجانب الشرقي لاحتواء النيجر فيصل مباشرة إلى مناجم الذهب الرسوبية في أودية النيجر الأوسط وفي أودية السنغال وكان العرب يسمون هذه المنطقة باسم وانجارا التي كانت أقرب نقطة على نهر النيجر من الشمال الأفريقي بل وتمثل خط مواصلات طبيعي إلى مصادر الذهب.

(٨) بوفيل : المرجع السابق ص ٢٤٧.

كان أحد أطرافها يقدم الذهب وهم أهل وانجارا والطرف الآخر وهم التجار من السودانيين ومن وصل إليهم من المغاربة الذين يقدمون إليهم ملح مغرب وصحراواتها .

ومن هنا لا يسعنا إلا أن نأخذ إلا بما أتى به الإدريسي^(٢) في نزّهته عن موقعها العام إذ يذكر أن أرضها متصلة بمملكة غانة وذلك من شرقها وأن بين غانة وأول بلد ونقارة ثمانية أيام^(٣) وينكر من عمالتها مدينة كوغة^(٤) التي حدد مدة السير إليها من غانة بشهر ونصف^(٥)، وعليه فقد كانت وانجارا بلد متسع على هيئة جزيرة تحيط بها مياه النيل "التجير وفروعه" من كل جهة سائر أنحاء السنة طولها ثلاث مائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلاً^(٦). وشهرة هذه الجزيرة الكبرى جاءت من كونها بلاد الذهب الخالص "التبر" الموصوفة به كثرة وطيباً^(٧) وهو غلة أهلها وعليه يعولون ولذلك هم أغنياء لكثرتهم بأيديهم^(٨) ولهذا أمها تجار المغرب وغيرهم بالخيرات" المجلوبة إليهم من أطراف الأرض وأقاصيها^(٩) ولكن كان أهم ما يحتاجه أهل وانجارا ويفتقرون إليه افتقاراً شديداً هو الملح والذي تجهز به التجار المغاربة والسودانيون الوسطاء من الصحراء إليها فيذكرها الإدريسي^(١٠) ضمن المدن التي كان يصلها ملح أوليل، ولا شك أن أملاح المدن الأخرى مثل تغازي وتاوديني والدجيل وغيرها قد وصلت إلى وانجارا وذلك بعد أن توارى دوراً أوليل قليلاً في أواخر العصور الوسطى ، ولم يكن الملح بالسلعة التي يستغنى عنها أهل وانجارا ولذلك آثروه على غيره من السلع فيؤكد بوقيل^(١١) "أن منتجي الذهب في وانجارا لم

(١) راجع ما سيأتي صـ ١١٨.

(٢) صـ ٢٣ ، ٢٤

(٣) المصدر السابق صـ ٢٤

(٤) المصدر السابق صـ ٢٧ ، ١٠٥

(٥) المصدر السابق صـ ٢٧

(٦) الإدريسي : المصدر السابق صـ ٢٤

(٧) المصدر السابق صـ ٢٣

(٨) المصدر السابق صـ ٢٥.

(٩) الإدريسي : المصدر السابق .

(١٠) المصدر السابق صـ ١٦.

(١١) الممالك الإسلامية صـ ٩٣.

يكونوا يبادلون به غير الملح" ومن هنا أقبلوا على استخراج الذهب واستهانوا بكمياته الكبيرة مقابل الملح إلى حد أنهم كانوا يبادلونه وزنة بوزنة^(١)

ويشير بعض المحدثين^(٢) إلى أن أهل وانجارا كانوا يعملون بدور الوساطة في تجارة الملح بين التجار القادمين من الشمال وهم المسلمين والوسطاء السودانيين وبين دواخل السودان البعيدة وهوما يعني الدور الرائد لوانجارا في تجارة الملح في السودان إذا كانت مركزاً للاستهلاك فضلاً عن الاتجار .

- تمبكتو:- مدينة ذات شهرة كبيرة ومكانة خاصة في التجارة بين المغرب وبلاد السودان وقد أهلها موقعها على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى على منحني نهر النيجر للعب هذا الدور التجاري ولهذا كانت حلقة وصل بين المغرب والسودان فكانت ملتقى للقوافل القادمة من الشمال وتجار السودان من الجنوب^(٣) ومن هنا كانت التجارة تمثل المصدر الرئيسي لسكانها الذين هياؤا كل أسباب الراحة للتجار القادمين من الشمال فتحولوا إليها منذ تأسيسها^(٤) بعد أن كانوا يقصدون والاته^(٥) وقد أمها تجار صنهاجة جميعها^(٦) وتوافد عليها تجار درعة وسوس وسجلماسة وفاس^(٧) وفزان وغدامس وورجلة وطرابلس وتوات وغيرها^(٨) ولهذا عرفت بميناء الصحراء^(٩) الذي

(١) البكري : المغرب ص ١٧٤ ، العمري : مسالك ح ٤ ص ١٢٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ح ٥ ص ٢١١ . محمد عبد الفتاح إبراهيم : صفحات من التاريخ الأفريقي أفريقيا في السنغال إلى جوبا ، القاهرة سنة ١٩٦١ ص ٩٥ .

(٢) راجع : Kevin shillington:History of Africa, Mecomillen,1999 P 98, Levtzion: Western PP 369. 375

(٣) محمد عبد الفتاح : المرجع السابق ص ١٠٤ ، McDougall:Op.Cit ، P 374, Levtzion Op.Cit, p21

(٤) اختلف في وقت تأسيس المدينة وأغلب الآراء تذكر أنها تأسست أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي على أيدي طوارق مقشرون راجع الهادي مبروك : مملكة مالي ص ٩١ .

(٥) الهادي مبروك : المرجع السابق ص ٩٦

(٦) من مسوفة وجدالة وامتونة السعدى : المرجع السابق ص ٢١ راجع الهادي مبروك : المرجع السابق .

(٧) السعدى : المرجع السابق ، بوفيل : الممالك الإسلامية ص ١٢٠ .

(٨) السعدى : المرجع السابق ، حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ١٨٣ ، الهادي مبروك : المرجع السابق .

(٩) محمد عبد الفتاح : المرجع السابق ص ١٠٤ .

حطت فيه بضائع الشمال وكان على رأسها الملح مدار التجارة البيئية بين المغرب والسودان وأكثر ما كان يأتيها من تغازي^(١) وقد ذكر شاهد عيان أن الحمل التغازي^(٢) (٤ ألواح) كان يباع بـ ٨٠ دينار^(٣) ثم من تاوديني إذ ترددت عليها قوافل الملح من هاتين الجهتين ليحمل بعد ذلك إلى داخل السودان عن طريق الوسطاء أو عن طريق تجار المغرب أنفسهم . فلا عجب بعد ذلك أن يقول فيج^(٣) عنها وعن مدينتي جاو وجني "أنها مثلت شبكة التجارة في السودان الغربي".

ج- اهتمام الحكام بتجارة الملح مع السودان:-

بين مراكز تجارة الملح واستخراجه في بلاد المغرب والصحراء وبين مراكز تجارته في أطراف الصحراء الجنوبية وبلاد السودان ترددت القوافل التجارية التي تحمل الملح كسلعة رئيسية في بضائعها أو تحمله مفرداً ولذا أسميناها قوافل الملح وسلكت الطرق بين هذه المراكز التي يمكن أن نطلق عليها أيضاً طرق الملح وبالذات فيما بين الصحراء والسودان وذلك لازدهار تجارة الملح المقابل لذهب السودان تلك السلعة التي صارت قوافلها أشهر القوافل في فترة الدراسة بعكس الذهب رغم شهرة تجارته فما وجدنا بين أيدينا من مصادر أو فيما كتب حديثاً في النشاط الاقتصادي بالمغرب وعلاقته بالسودان مكتوب تحدث عن قافلة الذهب أو لأي سلعة أخرى كانت تصدر أو تأتي إلى المغرب ، وذلك من قبيل أن القافلة التجارية الصحراوية في الذهاب والإياب كانت تحمل سلعا متعددة ، ولكن كانت هناك بعض السلع قد حازت نصيب الأسد في هذه القوافل التجارية العابرة للصحراء جنوباً أو شمالاً مثل الذهب الذي كان يعبر الصحراء شمال ولكن مع سلع أخرى مثل العاج والدقيق وغيرهما ومع ذلك لم نجد قافلة تسمى قافلة الذهب، وذلك بعكس الملح القادم من الشمال قد غلب اسمه على القوافل التي تحمله وغيره من السلع أو كانت تحمله مفردا وخاصة من مدن الصحراء المنتجة له إلى السودان ولهذا حق لنا استعمال اسم قوافل الملح على القوافل المتجهة إلى السودان والتي ما بقي لنا إلا الحديث عنها والتي ما كانت لتترو إلا لأهمية السلعة التي كانت تحملها خصوصاً وكما سنعلم أنها تعرضت لمخاطر ومشاق وطول الطريق أي مصاعب جمة ، كما كان استمرارها أيضاً مرتبطاً إلى حد كبير باهتمام الحكام على كلا الطرفين نظراً لأهمية السلعتين المتاجر بهما أو المتبادلين خاصة

(١) الوزان : وصف ص ٥٤٠.

(٢) ابن الوزان: المصدر السابق .

(٣) تاريخ غرب أفريقيا: ص ٦٤٠.

وهما الذهب الذي يحتاجه حكام المغرب والملح الذي كان ملوك السودان في حاجة ماسة إليه، وإذا كانت العلاقات في مجملها طيبة من أجل المحافظة على ديمومة سير القوافل بين المنطقتين وبذل حكام الطرفين مجهودات كبيرة من أجل ذلك^(١) نلمسه جيدا منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إذا أن مصادرنا قبل ذلك القرن قد أمدتنا بمعلومات ذات أهمية عن الملح وتجارته مع السودان وقوافله التي تحمله وإن كان ذلك لا يتفق وجود هذه التجارة كما ذكرنا آنفا ، إلا أن مصادرنا أفصحت بعد ذلك عن القوافل التي تعبر بحر الصحراء من مدن المغرب أو موائنه على هذا البحر إلى المؤاتى على الشاطئ الآخر حيث مرتكزات تجارة الملح ومدن توزيعه ولاشك أن ذلك راجع إلى ازدياد الطلب على الذهب من جانب الحكام المسلمين تلك المادة الثمينة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بتوفير الملح الذي ازداد الطلب عليه أيضاً في بلاد السودان^(٢) إلى حد أن حاولت إحدى دول السودان وهي مملكة غانة كسر احتكار تجارة الملح من جانب قوى الشمال المغربي من زناته وذلك بالاستيلاء على المدينة الرئيسية في هذه التجارة وهي مدينة أودغست وتحقيق لها ذلك^(٣) ولكن بعد وقت قصير خرجت من الصحراء قوة من صنهاجية غيرت مجرى الأحداث ومسار الأمور بالمنطقة وهي قوة المرابطين والتي استطاعت أن تحتكر طرق التجارة إلى السودان الغربي وفرضوا أنفسهم لحماية المتاجر التي تعبرها من المغرب إلى السودان^(٤) كما أن طريق المحيط زادت أهميته وبدأت القوافل تسلكه وهو يمر بديار جداله ولمتونه^(٥) فكانت النتيجة أن تحكمت قبائل المرابطين بهذه الطرق بل واحتكرت التجارة بين المغرب والسودان^(٦) بل وناضلوا مملكة غانة وغيرها من الممالك الزنجية دفاعاً عن

(١) راجع Levzion : The sahara, P 650

(٢) راجع Levzion: Op.Cit p 667, Baril Davidson : Africa in hiatory Themes and outlines, London (S.D) p 75,, philip Curtun and Othrs: Op. Cit, p 94

(٣) ابن خلدون : العبر م ص ٢٦٤ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٩-٧٠ فيج: تاريخ غرب أفريقيا ص ٤٧-٤٨ .

(٤) راجع هوبكنز : المرجع السابق ص ١٦٩-١٧٠

(٥) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقه من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٩٦م ط ٢ ص ٨١.

(٦) حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٤٧ ، ٨١.

الثروات التي تأتيهم من هذه الطرق التجارية ولما لبثوا أن انتزعوا مدينة أودغست من غانة^(١) وهو الأمر الذي وفر الأمن والأمان في الطرق السالكة إلى الجنوب لقوافل التجارة ونزید علی ذلك أن رجال المثلثين مثل قبيلة لمطة بسطوا نفوذهم على المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نون محتلين بذلك موقعاً ممتاز يسيطر على الطريق التجاري الهام الذي يسير بجوار البحر^(٢) وأنشأوا مدينة نول لمطة التي أصبحت من أهم المراكز التجارية وخاصة لقربها من مراكز إنتاج الملح في المنطقة تلك السلعة الهامة لبلاد السودان والتجارة معها^(٣) وقبيلة جدالة إلى الجنوب من مضارب لمطة والتي وصلت ديارها إلى قرب حوض السنغال وبذلك سيطرت على النهايات الجنوبية للطرق التجارية الهامة بين الشمال والجنوب^(٤) أما قبيلة مسوفة فقد امتدت ديارها بين سجلماسة في الشمال وأودغست في الجنوب ممتدة شرقاً حتى تصل إلى تادمكة وكوكو فسيطرت بذلك على الطريق الجنوبي بين سجلماسة وأودغست حتى زمن ابن بطوطة^(٥) وفرضوا أنفسهم كأدلاء وتجار ومستخرجين للملح من مراكزه في الصحراء عن طريق عبيدهم والتي كانت في نفس الوقت على طرق التجارة المتجهة إلى السودان وقوافلها^(٦) مما زاد الأمان للتجار في المنطقة وصدق أحد المحدثين^(٧) حين قال "ضمنت دولة المرابطين لتجارة القوافل كل شروط النجاح"، ونضيف لذلك أنها ضمنّت لنفسها مورداً هاماً جداً للذهب الذي يأتيها من الجنوب ساعدها في ضرب دينار كان له قيمته العالمية المعتبرة^(٨) وذلك بفضل تجارة الملح مع

(١) البكري: المغرب ص ١٦٨ ، حسن محمود: المرجع السابق ص ٧١ ، ٨١ ، ١٢٢ عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ، ص ٢١.

(٢) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ١٧٢.

(٣) راجع حسن محمود : المرجع السابق ص ٨١.

(٤) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ١٧٢ ، قيام دولة المرابطين ص ٤٧.

(٥) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٧.

(٦) عن دور قبائل المثلثين في تجارة الصحراء راجع، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ - ٤٨ ، ص ٨٠ - ٨١. فيج : تاريخ غرب أفريقيا ص ٥٥.

(٧) محمد زنبير : المغرب في العصر الوسيط ، Levtzion: The sahara P 650

(٨) إذ كان ذا وزن عال ما بين ٤,١٠ إلى ٤,٧٢ وهي الأوازن التي عرفت بها مشاهير الدنانير في عالم العصر الوسيط مثل دينار عبد الملك بن مروان والدنانير الأغلبية وقد تميز هذا الدينار المرابطي والذي عرف بنفس الاسم في أوروبا الغربية بنسبة الذهب العالية فيه والتي وصلت إلى ٩٥% ولهذا انتشر انتشاراً واسعاً

السودان وفي هذا الصدد يذكر مكدوجال^(١) أنه إذا كان الملح في السابق للهدايا والتوايا الحسنة لكنه أخيراً صار ضرورياً لمواد الطعام والتصدير المريح ومصدر للضرائب وفي بعض المناطق استخدم ملح الصحراء كعملة متداولة فكانت للسيطرة عليه والتحكم فيه ضرورة استراتيجية للحكومات وهوما فطن له المرابطون كما رأينا ومن بعدهم الموحدون الذين خلفوا المرابطين في الاهتمام بطرق التجارة وتوفير الأمان لمزتاديها بشتى الطرق الممكنة^(٢) ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الضرب على أيدي قطاع الطرق ولصوص القوافل فيسروى معاصر لهذه الفترة "لقرن السادس الهجرى / الثانى عشر ميلادى وهوابن حمويه السرخسى^(٣) عن شاهد عيان وهو أحد الفقهاء وقوله دخلت على السيد أبى الربيع سليمان^(٤) بقصر سجالماصة

في عالم العصور الوسطى كعملة محلية ودولية بحيث صار العملة الوحيدة المعترف بها في الغرب المسيحي في جميع الميادين وكان إقبال الناس عليه كبيراً ولهذا عثر على كميات كبيرة منه في شمال إسبانيا وغرب فرنسا وقد استمر استعمال هذا الدينار في أوروبا الغربية حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجرى، عن الدينار المرابطى وانتشاره وخصائصه راجع صالح بن قرية :انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى ، ضمن ندوة الغرب الإسلامى والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى ، تنسيق محمد حمام ، منشورات كلية الآداب ، الرباط سنة ١٩٧٠ ص ١٧٥-١٨٠، الحبيب الجناحى: المجتمع العربى الإسلامى (الحياة الإقتصادية والاجتماعية) ، سلسلة عالم المعرفة ٣١٩ لسنة ٢٠٠٥ ص ٢٢٥-٢٢٦ راجع كذلك Levzion: The Western, P 348

Op. Cit PP 20- 21^(١)

Levtzion: Op. Cit p 348^(٢)

^(٣) هو أبو أحمد عبد الله بن عمر بن حمويه السرخسى المولود سنة ٥٧٢هـ، شيخ الشيوخ بدمشق، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له مؤلفات وكتب عدة منها "أصول الأشياء والسياسة الملوكية" وكانت له رحلة إلى المغرب حيث كانت أمه منها بدأها سنة ٥٩٣هـ وبقي في المغرب حتى وفاة يعقوب المنصور ثم عاد إلى الشام سنة ٦٠٠هـ راجع ترجمته ، أحمد بن علي المقرئ التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، ح ٣، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت سنة ١٩٩٧ ط ٢ ص ٩٩ وما بعدها.

^(٤) هو أبو الربيع سليمان بن عبد المؤمن بن علي، كان شاعراً وقائداً حربياً شارك في الأعمال الحربية ضد بني غانية ومن ولاية بني عبد المؤمن التاجحين في بجاية ثم في سجالماصة، حسن السياسة يقظاً ، وصفه السرخسى "بهي المنظر ، حسن المخبر ، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية" وأورد له بعض الأشعار راجع ما كتبه عنه السرخسى وسيرته من المقرئ : نفح الطيب ح ٣ ص ١٠٥ - ١٠٧.

وبين يديه أنطاع عليها رعوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار من سلجماسة إلى غانة وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس^(١) .

ومن وسائل توفير الأمان لقوافل التجارة أيضا الحرص على إقامة علاقات ودية مع ملوك السودان في دولة مالى ومن تبعهم من ملوك وذلك حرصا على استرسال التجارة والجلالية في السفر بين المغرب والسودان وليس أدل على ذلك عندنا من رسالة بعث بها سابق الذكر أبو الربيع سليمان وكان يلى مدينة سلجماسة وما يليها إلى ملك السودان "مالى" بغانة^(٢) ينكر عليه تعويق التجار ويعكس فلسفة الموحدين من وراء حسن سياسية الجوار وحسن معاملة التجار فيقول له " نحن نتجاوز بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان ونتفق على السيرة المرضية ونألف على الرفق بالرعية ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة إلى البلاد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكننا لا نستصوب فعله ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتى مثله والسلام"^(٣) .

وقد سار ورثة الموحدين ببلاد المغرب على منوال أسلافهم في حفظ ورعاية طرق التجارة الموصلة إلى بلاد السودان فرغم الخلافات التي كانت بينهم إلا أن تجارة السودان جمعتهم على الاهتمام بها نظرا إلى أهميتها بالنسبة لاقتصاد دولهم فبالنسبة للحفصيين يشير ابن خلدون^(٤) إلى علاقتهم الطيبة المستمرة مع ملوك السودان وخاصة مع ملوك زغاوة والكانم فيقول "كانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها " ويبدو أن الحفصيين رضوا بتلك المهادنة حرصا على

(١) المقرئ : المصدر السابق ص ١٠٧

(٢) وهو Sumanguru Konto وهو من أسرة Niak hate التي خلفت قبيلة الـ Diafonke في حكم غانة ويذكر أنه تحرش بالتجار من المسلمين وعذب بعضهم فهرب التجار من غانة إلى Biro وهي قرية سونكية صغيرة عرفت بالاسم البربري والاته بعد ذلك راجع Levztzion :The Western Maghrib PP 351-2

(٣) المقرئ : المصدر السابق ص ١٠٥

(٤) تاريخه ج ٦ ص ٢٣٥ .

التجارة البيئية بينهما والمحافظة على المكاسب من ورائها ^(١) واستمر ذلك حتى آخر دولتهم ومعه استمرت القوافل والتجارة بين الطرفين .

أما عن الزيانيين بئلمسان فإن قصة شركة إخوان المقرى ^(٢) تدل دلالة واضحة على حسن العلاقات والجوار بين الطرفين واستمرار التجارة وسير التجار بين الدولتين حتى إن إخوان المقرى اتصلوا بملك التكرور فأكرم مثنوهم ومكن مقيمهم فى والاته من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصدق الأحب والخلصة الأقرب وصار يكاتب من بئلمسان منهم يستقصى منهم مآربه فيخاطبه بمثل هذه المخاطبة ولم تقتصر مخاطبتهم على ملوك التكرور بل خاطبهم أيضا ملوك المغرب ويذكر حفيدهم المقرى صاحب النفح أنه ^(٣) "عنده من كتبه أي ملك التكرور وكتب ملوك المغرب والملوك الزيانيين ما ينبئ عن ذلك" ونتيجة لكل ذلك يقول المقرى ^(٤) "قلما استوثقوا من الملوك تذللت لهم الأرض للسلوك فخرجت أموالهم عن الحد وكانت تفوق الحصر والعد" .

ومما يذكر فى اهتمام بنى زيان بأمور تجارة الصحراء أن أبا حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن (٧٠٧-٧١٨هـ / ١٣٠٧-١٣١٨م) أوجب حفظ أمن التجار الذين يسلكون الطريق إلى السودان ^(٥) لأنه كان عارفا بشئون التجارة ويكرم أهلها ويتمنى لو أنه بقى فى بلاده تاجر فكان يقول "لولا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع" ^(٦) وفى هذا إشارة صريحة على ازدهار التجارة البيئية بين المغرب الأوسط وبلاد السودان برعاية بنى زيان وملوك السودان.

أما عن سلاطين بنى مرين من المغرب الأقصى فقد كان لهم اهتمام خاص بالتجارة مع السودان من أجل ذلك كانت لهم علاقتهم السياسية مع ملوكها طيبة جدا وكان يتبادلون السفارات

(١) للمزيد راجع منى سيد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالدولة الحفصية. ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) المقرى : نفح حـ ٥ ص ٢٠٦.

(٣) م ٥ ص ٢٠٦

(٤) نفسه

(٥) Levzion : Op.Cit . p369

(٦) نفسه

في الانتصارات والانكسارات مما يدل على عمق العلاقات الطيبة ومنها على سبيل المثال لما تمكن السلطان أبو الحسن المريني من الاستيلاء على تلمسان ٧٣٢هـ / ١٣٣٤م بادر معاصره منسا موسى بإرسال وفدا من أهل مملكته للتهنئة بهذا الانتصار فقابل أبو الحسن المريني الوفد بكل ترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بكريم رعايته^(١) ولكن أثناء وجود الوفد وردت أخبار بوفاة منسا موسى فحزن السلطان المريني لذلك وتعبيرا عن هذا الحزن ومجاملة للسلطان الجديد أرسل وفدا برئاسة كاتب الديوان محملة بالهدايا الثمينة من تحف المغرب وخزائن دار السلطان^(٢) وتوطيدا لتلك الأواصر رد منسا سليمان الملك الجديد بسفارة إلى السلطان المريني أبي الحسن^(٣) واستمرت هذه السفارات بين الطرفين مدلة على حسن العلائق وطيب الجوار^(٤) ولذا صارت القوافل بين الشمال والجنوب في أمان تام دون خشية الخلافات السياسية التي قد تلحق بهم الإضرار ثم أن بنى مرين حرصوا كل الحرص على تأمين طرق التجارة ودأبوا على الضرب على أيدي كل من تسول له نفسه الاعتداء على الأموال وينكر في ذلك أن السلطان أبا يوسف يعقوب توجه سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م إلى منطقة درعة في الطريق إلى بلاد السودان لتأديب بعض القبائل العربية التي تعتدى على الأموال الناس بل نقلهم معه إلى مراكش وجعلهم تحت رقابته^(٥) كما سهروا على تأمين الطرق بين المدن المختلفة^(٦) حتى قال ابن مرزوق^(٧) "فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله" ولهذا كله سارت القوافل في أمن

(١) ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٢٣٩ ، الناصري : الاستقصا ، ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، الناصري : المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٣) الهادي مبروك : مملكة مالي ص ١٤٧ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، للمزيد عن هذه العلائق الطيبة راجع محمد عبد العال أحمد : منسا موسى

سلطان التكرور ورحلة حجة الشهيرة ، القاهرة سنة ١٩٨٧م ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٥) ابن أبي زرع : الأتيس المطرب ص ٤٠١ .

(٦) وذلك من خلال ما عرف عندهم باسم الرتب وهي عبارة عن خيام تقام على مسافات متساوية تقدر بإثني

عشر ميلا للحراسة وتوفير الزاد والطعام ورتبوا كذلك فرقا عرفت باسم الغرباء مهمتها حراسة الطرق

وخدمتها راجع ابن مرزوق : المسند الصحيح للحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق

ماريا خيسوس بيغيرا ، تقديم محمود بو عياد ، الجزائر ١٩٨١ ص ٤٢٩ .

راجع الملحق رقم (٥) .

(٧) ابن مرزوق : المصدر السابق

وأمان وازدهرت معها تجارة الملح بين المغرب والسودان وما بقي لنا إلا أن نتحدث عن قوافلها .

د - قوافل الملح* :-

توافرت إذا العوامل التي شجعت التجار السفار من المغامرين للاتجاه إلى الجنوب في رحلاتهم الطويلة فبعد الإرادة القوية والشجاعة اللازمين لمواجهة أخطار الصحراء تتوفر لهم الأمن والأمان في الطريق بفضل اهتمام الحكام والحرص على تجارة الجنوب فتتطلق القوافل بعد اجتماع التجار وبعد أخذ قرار السفر يوقروا أحمالهم على الجمال^(١) ذلك الحيوان الذي صار أساسا في تجارة القوافل لقوته وشدة تحمله^(٢) تلك الجمال التي تختلف أعدادها من قافلة إلى أخرى^(٣) ولكن كلما كانت القافلة كبيرة العدد من التجار والإبل كان من الأفضل وهو ما حرص عليه السفار ، لان ذلك يتيح لهما خلال الطريق الطويل التغلب على الكثير من المخاطر وبالذات من الطبيعة الصعبة للمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم كما يتيح لهم ذلك حسن التنظيم وتوزيع الاختصاصات بين أفراد الركب حتى بين الإبل التي خصص بعضها لحمل البضائع والبعض الثاني لحمل قرب المياه والثالث لحمل الطعام وزاد الطريق^(٤) وهكذا .

وفي العادة كانت تتطلق القوافل في الصباح الباكر ويغدو الركب في السير ويجدون في ذلك إلى أن تشتد الحرارة حين ذاك تتوقف القافلة من أجل الاستراحة^(٥) وكانوا يتخيرون أماكن تتوافر

(١) يذكر المؤرخون المحدثون أن الجمل تواجد في بلاد المغرب والصحراء قبل الفتح الإسلامي وأنه كان موجوداً منذ القرن الأول قبل الميلاد وكان معروفاً خلال القرون الأولى المسيحية في شمال أفريقيا وتوسع المسلمون في استعماله وقال البعض عن استخدامه للجمل أنه كان أعظم ابتكار أدخله المسلمون في النقل ، عن الجمل وتاريخه في الشمال الأفريقي راجع فيج: تاريخ غرب أفريقيا ص ٤٢ ، يوفيل : الممالك الإسلامية ص ٧٥ ، هوبكنز : التاريخ الاقتصادي ص ١٤٢ ، ١٥٨ ، كيرلاتسكي: تاريخ الملح ص ٤٠ .

(٢) راجع : هوبكنز: التاريخ الاقتصادي ص ١٤٢ - ١٤٣ ، Kevin shillington: History of Africa .P78-79, 81.

(٣) فيذكر الإدريسي على سبيل المثال أن التجار كانوا يسوقون ما بين السبعين إلى المائة جمل راجع النزهة ج ١ ص ٢٣٢ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج ٢ ص ٧٩٧ .

(٥) الإدريسي : المصدر السابق ص ١٠٧ .

فيها المياه للتزود والكأ والعشب للإبل حتى تنقوت^(١) ثم تتطلق القافلة بعد ذلك جادة في السير حتى يغشاها الليل فتحط الرحال من جديد إلى الفجر^(٢) وهكذا تكون أيام الرحلة الطويلة التي لا تقل عن عشرة أيام وتزيد عن شهور عدة يؤخذ ذلك من تحديد ابن حوقل^(٣) الأوقات بين المدن الرئيسية في شمال المغرب والمنطلق منها إلى الجنوب فمن فاس إلى سجلماسة ثلاثة عشر مرحلة ومن سجلماسة إلى أودغست شهران ومن زويلة إلى فزان خمس عشرة مرحلة.... إلخ وهكذا حتى تصل القافلة إلى مدن موانئ الصحراء الشمالية سجلماسة مثلا فهناك من التجار من يبيع إلى تجار القوافل المتجهين إلى الجنوب أو لأهل مدينة سجلماسة ويعود إلى الشمال مره أخرى ومنهم من يحمل بضائعهم من الملح وغيره ويشارك في قافلة جديدة متجهة إلى السودان رغم الأرض الموحشة الأقطار المجهولة المسالك في هذا الطريق إلا أن التاجر يسلكها رغم خطرها وما يحمله على ذلك إلا الفائدة العظيمة في السودان فأنهم يتوجهون بما لا قيمة له عندهم ويعودون بالذهب الصامت وقر ركائبهم^(٤) لتقطع القافلة الجديدة شهـورا أخرى عبر الصحراء والفيافي الموحشة التي لا أنيس فيها^(٥) فيذكر أنه بين زويلة ومـيرندا داخل السودان شهران^(٦) ومن فزان إلى زغاوة شهران^(٧) ومن سجلماسة إلى أودغست شهران^(٨) ومن أودغست إلى غانة بضعة عشر يوما^(٩) ومن غانة إلى كوغة شهر ومن كوغة إلى سامة دون الشهر^(١٠) ويحدد لنا صاحب تحفة الألباب^(١١) هذه الشهور التي تستغرقها

(١) الإبريسي : المصدر السابق ص ١٨ ص ١٠٧ ، ابن بطوطة : الرحلة ج ٢ ص ٧٧٤.

(٢) الإبريسي : المصدر السابق ص ١٠٧.

(٣) صورة الأرض ص ٩١.

(٤) العمري : مسالك ج ٤ ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٥) المصدر السابق ص ١٠٧.

(٦) ابن حوقل : صورة ص ٩١.

(٧) ابن حوقل : المصدر السابق.

(٨) نفسه.

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه.

(١١) أبو حامد الغرناطي: تحفة ص ٤٢.

الرحلة بستة أشهر كاملة يقطعها أهل المغرب من بلادهم إلى بلاد السودان في هذه الصحراوات.
إلخ.....

ويلاحظ انه عند نهاية المرحلة الأولى في الطريق إلى السودان وعندما تحط القوافل رحالها في الموانئ شمال الصحراء ان الملح في هذه القوافل كان سلعة ضمن سلع القافلة ولكن عندما تبدأ مرحلتها الثانية من هذه الموانئ يكون الملح على رأس هذه السلع فيذكر العمري^(١) عن سجلماصة أن " فيها يدخل التجار إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع ويذكر آخرون^(٢) أن التجار يسافرون من مدينة سجلماصة إلى مدينة على حدود السودان يقال لها غانة وجهازهم الملح وعقد الخشب والصنوبر وغيرها من السلع أو يكون هو الأوحده في القافلة على الأقل منذ أن تحط هذه القوافل رحالها في مدن إنتاج الملح في الصحراء كمدينة تغازي على سبيل المثال التي كان عمالها يستخرجون الملح على هيئة ألواح ويحتفظون به حتى تأتي القوافل لتشتريه منهم وتمكث على الأقل ثلاثة أيام أي الوقت اللازم لتحميل الملح^(٣) ولكن السؤال لماذا يحرص التجار المسافرون إلى السودان على حمل الملح بهذا الشكل؟

لاشك ان هناك أسبابا موضوعية تدعت أولئك التجار إلى فعل ذلك نجملها فيما يلي :-

١- إن التاجر السفار على درجه كبيرة من تنظيم أموره وترتيب أحواله حرصا على الربح وتجنبنا للخسارة ومن ثم كان يرنو ببصره دائما للسلعة التي تجلب إليه الربح، ومن خلال أسفاره المتتالية يعرف حاجة سوق كل بلد يحط فيه فيحمل إليه ما يحتاجه هذا السوق ووصل البعض في هذا الصدد إلى تكوين شركات تجارية لها مقرات في مدن التجارة الرئيسية في طريق السودان كانت على اتصال دائم ببعضها البعض وذلك من أجل تنظيم القوافل وتحميلها بالسلع التي يحتاجها السوق ومعرفة الأسعار ومدى ارتفاعها أو انخفاضها كل ذلك لضمان الربحية العالية والمثل الواضح عندنا في ذلك شركه إخوان المقرى أجداد المقرى صاحب نفح الطيب أيام الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط وهم خمسة من ولد يحيى بن عبد الرحمن أبى بكر بن على المقرى عقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو ما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ووزعوا أنفسهم على مدن التجارة الرئيسية إلى السودان آنذاك فكان أبو بكر ومحمد الجدين

(١) مسالك ح ٤ ص ١٢٩.

(٢) راجع ياقوت : معجم البلدان ح ٢ ص ١٢.

(٣) ابن الوزان: وصف أفريقيا ص ٥٤٠.

المباشرين لصاحب النفح بئلمسان وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلى وهما الشقيقان الصغيران ببايوالاتن "والاته"^(١)، يقول المقرئ^(٢) فكان التلمسانى يبعث إلى الصحرواى أى الذى بوالاته بما يرسم له من السلع أى السلع التى عليها الطلب فى السودان ويبعث إليه الصحرواى بالجلد والعاج والجوز والتبر، أما وظيفة من بسجلماسة يمددها معا بالأسعار وأحوال التجارة فى البلدان فكان كلسان للميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبها بأحوال التجار وأخبار البلدان "وذلك حتى اتسعت أموالهم وارتفعت فى الضخامة أحوالهم"^(٣) ولهذا ربحت تجارتهم فى السودان وغيرهم من التجار لأنهم وجدوا سوقا متعطشة لهذه السلعة الهامة وهى الملح ولذا صاروا على يقين بأن هذه ستباع ولا ترد ولن يخسروا من ورائها ولهذا أقبل الجميع على حملها مع غيرها أو مفردة ومما يثبت لنا كل ذلك عمليا حسبة بسيطة أجراها أحد المحدثين وهو Devisse على أساس النص الذى ذكره ابن حوقل لما يحمله الجمل الواحد من الملح وهو حسب تقديره ما بين ١٢٥:١٥٠ كيلو بحوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دينار يقول ديفيس "أنا إذا أمام ملح يساوى ثمننا غالبا جدا فإذا قدرنا أن الدينار يزن قيمته المتوسطة ٣,٨٠ جرام يكون حمل الجمل يساوى فى حده الأدنى ٧٦٠ جرما من الذهب وفى حده الأعلى ١١٤٠ جراماً"^(٤).

٢- إن حسن التنظيم ومعرفة أحوال بلاد السودان من جانب التجار جعلهم يدركون جيدا أن ملح بلاد السودان قليل وينتج عندهم فى مناطق من الصعب الحصول على ملحها وبالذات الأكثر بعدا عن المغرب الذين انعمهم الملح عندهم ومصادره الرئيسية بعيدة عنهم^(٥) فيذكر العمرى^(٦) عن مملكة مالى أن الملح عندهم موجود بخلاف الجوانيين ومن ثم حرص التجار على حمل الملح الذى ارتفعت أسعاره كلما ازداد توغل التاجر فى بلاد السودان كما سنرى.

(١) راجع المقرئ : نفح الطيب حـ ٥ صـ ٢٠٥

(٢) المصدر السابق

(٣) نفسه

(٤) راجع محمد زنبير : المغرب فى العصر الوسيط صـ ٤١٢.

(٥) هوبكنز: التاريخ الإقتصادي صـ ٩٢، نياني : المرجع السابق صـ ١٨١.

(٦) مسالك الأبصار ، م ٤ صـ ١١٣ .

٣- فطن التجار المسلمون أن السودانين كانوا يفضلون الملح الصخري عن ذلك الجريش الذي كان يحمله تاجر الملح من الشمال^(١) ومن ثم لجأ أغلبهم إلى التصرف فيما معهم من ملح مدن الشمال إلا إذا كان ما معه صخوريا ثم يصحب قوافل السودان ليشتري غيره من مقاطع الملح الصخري المنتشرة في الصحراء الذي كان مقدرا جدا ومطلوبا داخل السودان^(٢)، ليحمله إلى بلاد السودان ويبادل به هناك بالذهب ويمكن أن نزيد على ذلك أن الملح الصخري لا يفسد بطول الطريق كالملاح الجريش^(٣) فلا يسبب أية خسائر لهذا التاجر ومن ثم أقبل على حمله دون غيره حتى من السلع الأخرى.

كما أن هذا التاجر أدرك أهمية الملح وخاصة الصخري منه لأهل السودان لأن منهم من كان يستعمله نقودا ويتصرف به بعد تقطيعه أو تشكيله^(٤) ومن هنا لم يخش بوار تجارته بل كان ينظر إلى المزيد من الأرباح من حمل هذه السلعة النفيسة والرائحة تجارته داخل السودان. لكل هذا واصل التجار رحلاتهم من خلال القوافل بعد أن يتم تحميل الملح وخاصة الصخري منه من مناطق إنتاجه المنتشرة في الصحراء مثل تغازي أو تاوديني حيث كان الجمل الواحد يحمل لوحين اثنين^(٥) أو أربعة ألواح^(٦) وهو ما يدفعنا إلى القول بأن الجمل كان يحمل حسب قوته واعتبارات المسافة واعتبارات أخرى ترجع إلى المشتغلين في استخراج هذا الملح ما دلتنا عليه إحدى فتاوى الونشريسي^(٧) من أنهم كانوا يحملون الجمل لوحين أحدهما على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيسر ويسمون ذلك حمل ملح وهي أحمال مختلفة الأنواع ومختلفة في الكبر والصغر موزنة كانت أو تقاس بالشبر فيقولون مثلاً خمسة أشبار في طول اللوح وثلاثة

(١) الهادي مبروك: مملكة مالي ص ١٣٧ ويذكر المؤلف أنه زار مدينة تمبكتو ورأى أن أهل تمبكتو على هذا الحال حتى الآن بل أن سعر الملح الألواح أغلى من الملح الجريش، راجع هامش ١ ص ١٣٧.

(٢) Fisher: Op.Cit p 86, Mcdougall: Op. Cit, P 20

(٣) Ivor Wilks: Wangara, Akan and Portuguse in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, (II) The Struggle for Tarde, in Journul of African history Vol 23, Cambridge University Press, Great Britain, 1982. P 463

(٤) ابن بطوطة : رحلته ح ٢ ص ٧٧٣.

(٥) نفسه.

(٦) ابن الوزان الزيتاني : وصف ص ٥٢٦.

(٧) المعيار ح ٥ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

أشبار في عرضه فهي ليست غليظة جداً ولا رقيقة جداً وسطاً كما تعارف بينهم ، وفي كل الأحوال تسير القافلة في طريق طويل جداً أو ربما في أوقات صعبة في صحارى وفيافي وبرارى منقطعة قليلة المياه والمرعى يقول ابن حوقل ^(١) "وبين المغرب والبلاد التي ذكرت وبلاد السودان مفاوز وبرارى منقطعة قليلة المياه متعذرة المرعى لا يسلكها التجار وحسب قوله إلا في الشتاء ، تخفيفاً للمعاناة أو لأنه فصل تتوقف فيه الملاحة البحرية فيتجه التجار إلى الملاحة البرية والقوافل كما ذكر جواتيائين ^(٢) ، ودل على ذلك بكثرة القوافل التي كانت تمر بسجلماسة في هذا الفصل وعددها بثلاثة قادمة من الجنوب ^(٣) ولكن ذلك يعنى عندنا عدم الارتباط بوقت للإنتلاق والسفر وإلا متى تعود هذه القوافل إلى الجنوب ؟ ومن نزهة الإدريسي ^(٤) يتأكد لدينا أن تلك القوافل كانت تسير في الصيف والخريف والربيع كذلك كما أن هناك شواهد كثيرة عند غيره من الجغرافيين والرحالة يؤكد على أن تلك المسالك تسلك في غير الشتاء فينقل أبو الفدا ^(٥) عن ابن سعيد " وغربي أودغست صحراء يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش والوهج وربما هبت عليهم ريح جنوبية فتقشفت مياههم بقربهم " وقد لمس ابن بطوطة بنفسه تلك المتاعب في رحلته إلى السودان ٨٥٣هـ / ١٤٤٨م والتي يتأكد منها أنها صيفية فهو يستعد من فاس لتلك الرحلة الشاقة بعلف جماله أربعة أشهر كاملة ^(٦) وسار في رقعة جماعة من تجار سجلماسة قاطعين الصحراء ^(٧) حتى وصلوا إلى مدينة الملح تغازى بعد خمسة وعشرين يوماً وأقام بها عشر أيام ^(٨) استقوا منها ورفعوا معهم الماء استعداداً لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشر أيام لا ماء فيها إلا النادر فإذا وجدوا مكاناً يصلح

(١) صورة الأرض ص ١٠٠ .

(٢) دراسات في التاريخ الإسلامي والتنظيم الإسلامية ، تعريب وتحقيق د/ عطية القوصي، الكويت سنة ١٩٨٠ ص ٢١٩ .

(٣) نفسه

(٤) راجع الصفحات مثلاً ص ١٠٧-١٠٨ ، راجع كذلك Roland Oliver, Anthony Atmore: The Africa in Middle ages, P 7 .

(٥) تقويم البلدان ص ١٥٥-١٥٦ .

(٦) رحلته ح ٢ ص ٧٧٣

(٧) نفسه

(٨) نفسه

للرعى رعوا فيه الدواب^(١) وقطعوها حتى وصلوا إلى تاسر هلا حيث تنزل القوافل القادمة من الشمال لاشتغالها على الماء حيث استراحوا ثلاثة أيام وأصلحوا أسقيتهم وملؤوها بالماء وخطبوها بالتلايس خوف الريح أن تجفها^(٢) ومن هذا المكان أرسلوا دليلهم لينتقمهم إلى إيواتن حيث يخبر الناس ليخرجوا للقائهم بالماء على مسيرة أربعة أيام يقول ابن بطوطة^(٣) وربما هلك صاحب التكشيف وهو الدلال في هذه الصحراء الممتدة بين تاسر هلا وإيواتن فلا يعلم أهل إيواتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم في تلك الصحراء النائرة رمالها وفي آخرها قابلهم الناس بالماء^(٤) ولكنهم بعد ذلك دخلوا صحراء شديدة الحر ولذا كانوا يسبرون من صلاة العصر ويسرون ليلاً حتى الصباح وذلك حتى وصلوا إلى إيواتن بعد سفر متواصل استمر شهرين كاملين منذ خروجهم من سجلماسة^(٥) ويؤكد لنا ما يلاقيه تجار الملح من متاعب ابن الوزان الزياتي^(٦) إذ أعطانا جزءاً آخراً من الصورة حيث يذكر أنه حول الآبار غالباً ما ترى جلود حيوانات وعظام لأخرى نافقة من شدة الجهد والتعب ولم يقتصر ذلك على الحيوانات بل شمل ذلك أيضاً الإنسان حيث كانت تهب في فصل الصيف الرياح الجنوبية العاصفة التي تطمر الآبار بالرمال فلا يجد لها التجار أثراً ولذا كان فيهم من يموت عطشاً وتنتثر جثثهم هنا وهناك تحرقها أشعة الشمس المحرقة. ولكن أولئك المغامرين من التجار تغلبوا على تلك المشاكل وخاصة مشكلة المياه وقتلتها بسبب انطمار الآبار وتكثيف الرياح لقرب المياه رغم حفظها بأنهم كانوا يحتالون بأن يصطحبوا معهم جمالاً فارغة من الأحمال ويعطشونها قبل ورودهم الماء الذي يدخلون منه في تلك البراري ثم يوردها على الماء فتتهل منه حتى تمتلأ أجوافها ثم يشدون أفواهها كي لا تجتر فتبقى الرطوبة في أجوافها فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء نحروا جملاً جملاً وترمقوا بما في بطونها وأسرعوا بالسير حتى يردوا مياه

(١) المصدر السابق ص ٧٧٤.

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) المصدر السابق ص ٧٧٥.

(٥) المصدر السابق ص ٧٧٦.

(٦) نقلاً عن بوقيل : الممالك ص ١٩٨.

أخرى يحملوها منها في أسقيتهم^(١) وهكذا حتى وصلوا إلى الموضع الذي يحجز بينهم وبين أسواق الملح وأصحاب التبر^(٢) ولعل ما يؤكد لنا معاناة تجار الملح وقوافلهم في الصحراء^(٣) ويثبت لنا كذلك انتظام هذه القوافل دون انقطاع ما قاله السلطان المنصور السعدى المتوفى ١٠١٢هـ/١٦٠٣م لمن حوله والذين عارضوا حملته على السودان متعللين بالبعد البين واتساع الصحراوات التى لا ماء فيها ولا مرعى وأخطار الطريق^(٤) "إنكم تتحدثون عن أخطار الصحراء التى نجتازها مثل الوحدة القاتلة وقلة الماء و المرعى ولكنكم نسيتم أن التجار الذين لا يملكون استعدادا كاستعداد الجنود يقطعون هذه الصحراء فى انتظام راكبين وراجلين ولم يتوقفوا يوما عنها"^(٥) كما أكد كلام المنصور السعدى ما ورد عن انتظام القوافل طوال العصور الوسطى فى المصادر وكتب للرحلات مثلما جاء عند ابن حوقل^(٦) فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى "وسالكتها أى الصحراء فى حينه متصل السفر دائم الورد و الصدور" وذلك رغم الصعوبات ورحلة ابن بطوطة تثبت لنا وثائقيا وعمليا استمرارية هذه القوافل اذا تنبأنا أن الرجل سلك طريق الصحراء أثناء رحلته إلى بلاد السودان مع رفقة وتجار من مدينة سجلماسة ، وكذلك سفرة ابن الوزان فى بداية العصور الحديثة تؤكد عدم انقطاعها ، وتأتى رحله بارث Barth فى القرن التاسع عشر لتتمتع استمراريتها طوال العصور الحديثة إذ وصل الرجل إلى بلاد السودان فى صحبة إحدى قوافل الملح من بالما والمكونة من ثلاثة آلاف حمل بغير والذي أكد أنها رحلة سنوية وقدر الواردات من ملح النطرون بما لا يقل عن حمولة ألفي بغير^(٧) ويورد هوبكنز^(٨)، أن تلك القوافل استمرت حتى أواخر القرن

(١) القزويني: آثار البلاد ص ١٩ راجع كذلك أبو الفدا : تقديم ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) القزويني: المصدر السابق .

(٣) وعلى الرغم من هذه المعاناة إلا أننا لم نسمع عن قافلة كاملة تاهت فى الصحراء أو قضى عليها العطش مما يدل على التنظيم الجيد والاستعداد التام من جانب التجار لهذه الرحلات الشاقة بعكس ما حدث فى العصور الحديثة فيذكر أنه فى سنة ١٨٠٥م هلكت قافلة مكونة من ألفي رجل و ٨٠٠ جملاً فى الطريق من تمبكتو إلى تغازي وذلك لقلة الماء وعطش رجالها وجمالهم. راجع بوقيل : الممالك الإسلامية ص ٣٠٤.

(٤) راجع الفشتالى : مناهل الصفا ص ١٢٦-١٢٧

(٥) الفشتالى : المرجع السابق ص ١٢٧ التناصري السلاوي : الاستقصا، ح ٢ ص ١١٣.

(٦) صورة الأرض ص ١٠٠.

(٧) راجع عبدالله عبد الرازق إبراهيم : الإسلام والحضارة ص ١٨٣

التاسع عشر ما بين تمبكتو وتاوديني والعكس وكانت تشتمل خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف جمل وتحمل ما بين أربعة وخمسة آلاف طن من الملح من تاوديني .

وتكتب أوديت بوبنادو ١٩٣٧م بما يؤكد انتظام هذه القوافل حتى القرن الماضي فقد كتبت عن رحلتها الشخصية واشتراتها في إحدى قوافل الملح المتجهة من تمبكتو إلى تاوديني والعكس ، واصفة نفس الطريق بمتاعبه وما يحدث لقافلة الملح ورجالها وما تحمله القافلة وكيفية السير حتى الوصول إلى مكان مناجم الملح وكل صغيرة وكبيرة في هذه القافلة منذ أن تخرج من تمبكتو باستعداداتها حتى تصل إلى مناجم الملح في تاوديني تلك الرحلة التي استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة لتقطع ٧٥٠ كم تصل بعدها إلى مناجم الملح حيث رأت مئات الجمال القادمة والراحلة من تاوديني محملة بالملح إلى تمبكتو، في تفاصيل لم تزد كثيرا عما كان يحدث لقافلة العصور الوسطى من تنظيم وإعداد وأحداث طريق وان كانت قد أفادتنا أن الأدلاء في الصحراء سواء كانوا في العصور الوسطى أو الحديثة يهتدون ليلا بنجم بلهادي في الوصول إلى مناجم الملح دون بوصلة وتتساءل لماذا البوصلة ما دامت هذه النجمة في مكانها منذ عشرات ومئات القرون؟^(١) وذلك كما كانوا في العصور الوسطى إذ أخبرنا أبو حامد الغرناطي أن هؤلاء الأدلاء كانوا يهتدون بالنجوم والجبال في القفار^(٢)

وفي كل الأحوال كان تجار الملح يصلون به إلى مراكز تجارة الملح الجنوبية في السودان. المذكورة آنفا والتي كانت من خلال وسطائها يوزعون الملح على بلاد السودان بطريقتهم الخاصة^(٣)، والذي لا شك عندنا فيه أن بعضا من التجار المغامرين من المغاربة والمسلمين

(١) التاريخ الاقتصادي ص ٩٣.

(٢) أورينت برس: مناجم الملح الصخري، اكتشفها البربر واعتنقوا الإسلام، منتديات العراق، iraq.iraq.ir للمزيد من التفاصيل عن قوافل الملح الحديثة هذه ومزاحمة الشاحنات لها راجع الملحق رقم (٦)

(٣) تحفة الألباب ص ٤٢

(٤) وقد قاموا بدور الوساطة التجارية هذه على سبيل المثال السونك Sonnke الغانيين الذين كانت مواقع ديارهم متوسطة بين حقول الذهب في بامبوك وأعلى النيجر وبين الصحراء . راجع Kevin Shillington: Op.Cit p 26, McDougall: Op.Cit P 82- 3 كما قام بدور أهل واتجارا في الغرب وديولا في الشرق والوساطة بين أهل الجنوب السوداني البعيد وبين أهل الشمال ، حيث كانوا يترددون بالملح وغيره إلى الجنوب ثم يحملون الذهب إلى والاته وتادمكة وتمبكتو وجاوجني Shillington: op. Cit, P 98, Levzion: The Westren Maghrib P 369, 375

تعدى هذه المرتكزات التجارية إلى الجنوب^(١) محاولاً للوصول إلى مصادر الذهب فى بلاد السودان أو المعاملة المباشرة مع منتجى الذهب ومبادلته بالملح والحصول على أكبر قدر منه وهو ما تؤكد له أسعار الملح المترجعة الارتفاع كلما اتجهنا جنوباً وذلك لتقدير السودانين للملح وعظم أهميته فى حياتهم فإذا كان ابن بطوطة^(٢) يذكر أن حمل الملح يباع فى مدينة والاته بسعر يتراوح ما بين ثمانية إلى عشرة مثاقيل من الذهب فإنه يباع فى مدينة مالى بسعر يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين مثقال ذهب وربما انتهى إلى أربعين مثقال ليخبرنا ابن حوقل^(٣) أن حاجة أهل السودان للملح كانت ماسة ولذلك بلغ سعر حمل الملح فى داخل بلاد السودان وأراضيه ما بين مائتين أو ثلثمائة دينار ويذكر ابن الوزان الزياتي^(٤) أن ثمن الرطل من الملح وصل سعره إلى نصف دينار فى المناطق الداخلية بالسودان حيث ينعدم الملح. كما كان سكان الغابات يشترونه بثمن أعلى^(٥) بل يذكر الشنقيطى^(٦) أن حاجة السودانين إلى الملح جعلتهم يضحون بكل شئ حتى الأنفس فبعدما يتحدث عن أن تجارة أهل شنقيط الرئيسية كانت فى الملح يذكر أنهم كانوا يسافرون به إلى بلاد السودان ليحصلوا فى مقابلة على كل شئ فى السودان من خيل وثياب وزرع وكذلك عبيد فكان العبد يقدر بمقاس قدمه أو حذائه من الملح فيكون له ذلك قيمة وعندما اتسعت تجارة الملح وكثر وصوله إلى السودان صار الثمن المألوف للعبد أو الأمة حمل جمل الملح ولكن يذكر ما هو أشد. وأفظع على الإنسان وهوانهم كانوا يبيعون أولادهم فى الملح ، ولا ريب أن ذلك كان فى المناطق الأكثر فقراً إقتصادياً والأشد حاجة إلى الملح ، كما كان فى المناطق التى كانت يتصارف فيها أهل السودان بالملح دون الذهب والفضة فكان الملح أغلى من

(١) فيسجل الإدريسي عند حديثه عن ونقارة (وإنجارا) وجمع أهلها للذهب من جزيرتهم أنه بعد جمع الذهب كان أكثر ما يشتريه منهم أهل وارجلان والمغرب الأقصى . راجع نزهة حـ ١ ص ٢٤ ويتأكد ذلك من رحلة ابن بطوطة الذي قابل العديد من الشخصيات المغربية وحتى الشرقية والمصرية فى العديد من المدن التى جابها فى بلاد السودان وقد تعامل مع بعضهم وضيّفه البعض الآخر وسار فى قوافل آخرين راجع الرحلة حـ ٢ ص ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٩٥ ، ٧٩٧ الخ

(٢) رحلته حـ ٢ ص ٧٧٣ .

(٣) صورة ص ٩٩ .

(٤) وصف التقاسيم ص ٦٥٧ .

(٥) نياني : تاريخ أفريقيا العام ، م ٤ ص ٦١٧ .

(٦) أحمد أمين الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، مصر ١٩١١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤

ذلك بكثير وإذا كان المقدسي^(١) قد عمم هذا الأمر على كل السودان ثم خص فيهم القرماطيون الذين تعاملوا بالملح فقد خص البكري^(٢) منها مدينة سلى القريبة من التكرور وكذلك أهل جاو أو كوكو ولا شك عندنا أن هؤلاء هم الذين كان يتعامل معهم التجار المسلمون بوزنة من الملح مقابل وزنة من الذهب^(٣) وفي بعض الأحيان كما يذكر أبو حامد الغرناطي^(٤) مقابل ضعفه أو أكثر وذلك تبعا للسوق والكمية إذ يقول " فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزناً بوزن الذهب وربما وزناً بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقتهم " وذلك في تجارة أطلق عليها التجارة الصامتة بين الطرفين تلك التي كان أول من أشار إليها المسعودي في المروج^(٥) واستمرت حتى أواخر العصور الوسطى بل في العصور الحديثة وذلك نتيجة حرص السودانيين على الملح من ناحية وعلى عدم معرفة غيرهم لمصادر الذهب وحقوقه من ناحية ثانية وملخص هذه التجارة كما أفادتنا مصادرنا أنها طريقة تعارف عليها الطرفين واتفق على الالتزام بها متى جاء تجار الملح من الشمال ووصلوا إلى المنطقة أو الموضع الذي يحجز بينهم وبين منتجى الذهب حيث تنتشر جداول الأنهار وتكثر الجزر التي يعيش فيها السودانيون^(٦) وعند الوصول عند الشواطئ كان التجار من المغاربة يضربون الطبول يدعون بها السودانيين العراة الذين كانوا يعيشون في كهوف تحت الأرض لا يخرجون منها إلا في حضور تجار الملح الذين يعرضون الملح أكواما على ضفة النهر ثم يتوارون بعيدا عن أنظار السودانيين والذين كانوا بدورهم يخرجون ويضعون أكواما من الذهب إلى جانب أكوام الملح ثم ينسحبون إلى كهوفهم فيأتي التجار ليأخذوا ما وضع مستخرجي الذهب^(٧) ويتراجعوا ضاربين طبولهم ليعلنوا انتهاء هذه السوق الوقفية^(٨)

(١) أحسن التقاسم ص ٢٤٢.

(٢) المغرب ص ١٧٣ ، ١٨٣

(٣) راجع البكري: المغرب ص ١٧٤ ، العمري ، مسالك ح ٤ ص ٧٦.

(٤) تحفة الألباب ص ٤٢ .

(٥) ح ٢ ص ٢٧٢.

(٦) راجع بوفيل ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٧) راجع العمري: المسالك ح ٤ ص ٧٦ ، القلقشندي: صبح ح ٥ ص ٢٩١

(٨) بوفيل : المعالك الإسلامية ص ١١٠.

نون أن يعرف التجار مصدر هذا الذهب أو أن يتكلموا مع الزنوج أو يروهم وينكر بوفيل^(١) أن التجار في إحدى المرات حاولوا اكتشاف مصدر الذهب عن طريق أحد أسر الزنوج الذين استنطقوه كرها ولكن الأخير فضل الموت على أن يقول كلمة واحدة فكان نتيجة ذلك أن توقفت التجارة ثلاث سنوات ثم عادت من جديد لأن السودانيين لم يكن عندهم وسيلة أخرى للحصول على الملح فاستمر السر واستمرت معه التجارة الصامتة بين المسلمين والسودانيين بنفس الطريقة حيث جاء وصفها على لسان كاداموستو Cadamasto^(٢) أحد قواد هنري الملاح خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي فيخبرنا عن قوافل الملح التي تخرج من تغازي وتساقر إلى الجنوب حيث تمبكتو فمالى حيث ينقل الملح على ظهور الجمال إلى رعوس الرجال في المنطقة المعدة للتبادل بين التجار والسودانيين والتي لا تصلح لسير الجمال فتكثر ألواح الملح إلى قطع صغيرة ويحمل كل رجل قطعة وينقلونه إلى مسافات بعيدة حتى يصلوا إلى مكان على الشاطئ حيث يتقدمون ويكوم كل رجل ملحه على مجداف بعد أن يضع علامة عليه ويتراجعون قرابة نصف ميل فيأتي الزنوج في قوارب كبيرة ويبدو أنهم قادمون من الجزيرة وإذا ما رأوا الملح يضعون قدرا من الذهب أمام كل كوم ويعيدون أدراجهم تاركين الملح والذهب^(٣) ويقول كادامستو "إني حصلت على هذه المعلومات من تجار كثيرين من العرب وصنهاجة وكذلك أشخاص يمكن أن يوثق بهم"^(٤).

وكل هذا يعكس لنا أهمية الملح في التجارة البينية بين المغرب والسودان العربي ويعكس مدى حرص الطرفين على استمرار تجارتهم بحاجة السودانيين إليه والمسلمين للسلعة التي يبادلونها بها وهي الذهب ولكن يجب أن ننوه في النهاية إلى أن الذهب لم يكن السلعة الوحيدة التي يقايض بها الملح بل كان التاجر المسلم الجوال في بلاد السودان يحتاج دائما على الزاد والطعام والذي

(١) المرجع السابق.

(٢) أحد قواد ورجال البحر الذين أرسلهم الأمير هنري الملاح إلى هذه المناطق في محاولة لاكتشاف مناجم الذهب في هذه المنطقة وإن كان غرضهم المعن لدعاء هو نشر الإنجيل بين السكان في هذه المنطقة راجع

بوفيل : المرجع السابق ص ٤٢

(٣) راجع بوفيل : المرجع السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٣.

لا يستطيع توفيره إلا إذا كان معه ملحا أو حليا من الزجاج أو ودعا ففى رحلة ابن بطوطة (١) بمالى لم يكن يحمل معه سوى الملح والحلى الزجاجية ويشتري بهما الزاد والطعام ويؤكد كل ذلك ما أثبتناه سابقا من أن أهل السودان كانوا يتصارفون به ويتبايعون وكان هذا مدعاة للطرفين من المغاربة والسودانيين إلى تقدير الملح كقوة شرائية تفوق قوة الذهب نفسه والنتيجة النهائية ازدهار تجارة الملح واستمرارها بين الطرفين متخطية المصاعب الطبيعية والعوائق السياسية التى انتابت تاريخها الطويل بين الجانبين.

٣- أثر تجارة الملح الخارجية على المغرب الإسلامى:-

وقد يتساءل البعض عن مردود وجود الملح واستخراجه والاتجار به خارجيا على بلاد المغرب والواقع أن ذلك كان من الأسباب الرئيسية فى التطور الإقتصادى لبلاد المغرب لكونه دعامة أساسية من دعائم هذا الإقتصاد وسلعة ضرورية كان الطلب عليها فى ازدياد مستمر خارج بلاد المغرب ومن ثم كانت أساسا قويا لازدهار النشاط التجارى بين المغرب وأوروبا وبين أوروبا والمغرب من ناحية وبلاد السودان من ناحية ثانية وذلك النشاط الذى عاد على الأطراف المشاركة فيه وخاصة بلاد المغرب بالعوائد والفوائد المادية التى بها وعليها سائر الأنشطة وبها تبنى حضارات الدول ولم لا ؟ وقد كان الملح لبلاد المغرب وأوروبا خاصة سبب فى رواج سلع كانت تقاس بها قوة الدولة من عدمها ألا وهى الذهب الذى كان المعدن الأساس فى سك النقود وعمل دور الضرب وسريان نشاط الدول من عدمه وكان إذا توقف جلبه من مصادره توقفت القوة السياسية عن ضرب سكاتها وقل نشاطها العام مثلما حدث مع البرتغال التى توقفت عن سك عملتها خمسين سنة كاملة فيما بين سنتي ١٣٨٣-١٤٥٠م بسبب توقف تجارة الذهب وندرته فى هذه السنوات (٢) أى أن الملح لم يكن إلا سلعة إستراتيجية عانت بالانحسار الكبير على بلاد المغرب والدول التى تاجرت معها فيه ومن هنا وجدنا الملح سببا للتنافس الشديد بين القوى التجارية الأوربية والصراعات المحتكمة على الفوز بتجارته بل واحتكارها والذى فازت به مدينة البندقية لتصير قوة سياسية كبيرة أساس لقتصادها الملح والمورد الذى اعتمدت

(١) الرحلة ح ٢ ص ٧٩٥.

(٢) Levtzion: The Westren Maghrib, P 450

عليه في نهضتها الحضارية^(١) وما يهمننا في ذلك أن صراعها مع زميلاتها الأوروبيات وبالذات أخواتها الإيطاليات على هذه السلعة الهامة كان لها مردود سياسى واقتصادي إيجابي على بلاد المغرب الإسلامي حيث كان الملح من الضرورات التي أجبرت هذه القوى السياسية والتجارية على تحسين علاقتها السياسية والإقتصادية بالقوى السياسية في بلاد المغرب والذي كان من أهم مظاهره المعاهدات التجارية المعقودة بين الطرفين والتي وفرت في كثير من الأحيان الاستقرار السياسى لبلاد المغرب أولا ومنع القرصنة الأوروبية وتوقف أعمال الجهاد البحري الإسلامي في البحر المتوسط ثانيا وكل هذا أفضى في النهاية إلى المردود الإقتصادي الكبير على بلاد المغرب ومن ناحية أخرى فإن الملح مثل الكفة التي يمكن أن توازن بها القوى السياسية ببلاد المغرب الخلل في الميزان التجاري بينها وبين أوروبا بل الكفة الراجحة في هذا الميزان بسبب حاجة أوروبا وقواها السياسية والتجارية لهذه السلعة الهامة وعن طريق غير مباشر فإن الملح لعب نفس الدور بالنسبة لسلعة الاستراتيجية أخرى وهي الذهب الذي كانت أوروبا في أشد الاحتياج إليه وما تيسر لهم الحصول عليه من مصادره الأصلية ببلاد السودان إلا في أواخر العصور الوسطى ومن ثم لعب المغرب دور الوساطة الذي لا بد منه ومن هنا كان لابد من تحسين العلاقات من أجل استمرار هذه التجارة بين الطرفين.

وعلى مستوى آخر لعبت مداخل الملح وتجارته دوراً هاماً في إنماء الاقتصاد المغربي بصفة عامة من خلال العشور والضرائب المفروضة على هذه التجارة^(٢) التي كثرت منافذها على الساحل المغربي كما رأينا حيث نشط التجار الأوربيين الداخلين ببضائع أوروبا والخارجين منها بالملح وغيره من بلاد المغرب والمثل الواضح في ذلك ميناء تفتته مرسى بلاد حاجة على المحيط الذي كان به مكس للضرائب ومنفذ للضريبة على الملح خاصة والمصدر إلى أوروبا^(٣) زد على كل ذلك أن الوساطة التي لعبتها بلدان المغرب بين أوروبا والسودان الغربي قد أدى إلى تنشيط التجارة عامة بين بلاد المغرب والسودان وتجارة الملح بخاصة وذلك لحاجة السودانيين إليه فنشط استخراج الملح واهتم بمناجمه المختلفة المنتشرة في الصحراء وعلى

(١) كيرلاتسكى : تاريخ الملح ، ص ٧١.

(٢) ابن حوقل : صورة ص ٧٦.

(٣) الوزان الزياني وصف ص ١٢٠ .

السواحل وذلك من أجل إعداده للتصدير إلى بلاد السودان ومبادلته بالذهب الذي كان جزءاً معتبراً في التجارة البيئية بين أوروبا وبلاد المغرب الإسلامي.

أما بالنسبة إلى مردود الملح وجوداً أو استخراجاً وتجارة مع بلاد السودان على المغرب فقد أعاد الملح وتجارته حقيقة على بلاد المغرب بالخير العميم والفوائد الوفيرة إذ هانت كل الصعوبات والمشاق التي كان يلاقها التجار في القوافل المتجهة إلى الجنوب أمام الربح الوفير والذهب الخالص الذي كان يأتي به هؤلاء التجار مقابل الملح وإذا كانت أوروبا تضع المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع حكام المغرب من أجل ضبط الأسعار واستغلال مناجم الملح بما يفيدها في تجارتها ويعود عليها بالأرباح الوفيرة ويعود بعض نفعه على بلاد المغرب مما يعنى المشاركة غير المتكافئة في الأرباح إلا أن تجارة الملح مع السودان كانت بأيدي المغاربة الذين كانوا يقطعون الفيافي والصحاري ويتجهون إلى بلاد السودان متى يشاءون ويبيعون هذا الملح بأسعار تحكموا هم فيها وكانت كما رأينا مرتفعة وصلت إلى وزنة من الملح بوزنة من الذهب وذلك لعظم أهمية الملح عن السودانيين عامة في الطعام والتجارة والمعاملات وكثرة الذهب عندهم وهذا مما نشط العلاقات عامة بين المغرب والسودان على مر العصور الوسطى بالذات في القرون المتأخرة الأمر الذي أدى إلى النفع الكبير للمغرب والسودان والصحراء نفسها فبالنسبة للمغرب فقد أدى طلب الملح على الملح في بلاد السودان إلى نشاط البحث عن المناجم واستخراج الملح من أجل تصديره وادي ذلك إلى الراجح التجاري الداخلي فضلاً على النشاط التجاري المستمر مع بلاد السودان والذي جنت القوى السياسية من وراء قوافله الأموال الكثيرة نتيجة ما يؤخذ من عصور على هذه التجارة فالقافلة المتجهة إلى السودان غالباً ما تمر بمستقرات ومدن حضارية تستفيد منها وتفيدها فيذكر ابن حوقل^(١) مثلاً عن إجدابية أن أميرها وصاحب صلاتها كانت له لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان^(٢) ووصفه أيضاً لمدينة سجلماة يجسد لنا المنفعة المتبادلة بين الحكومات وتجار القوافل وفي النهاية الراجح التجاري إذ يذكر أن هذه القوافل كانت تجتاز سجلماة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين يقطعون هذا الطريق هم وأولادهم وتجارهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم

(١) صورة ص ٧٠.

(٢) فينبأنا موريس لومبار أن ما بجيبه الفاطميون من وراء تجارة القوافل مع السودان خلال القرن العاشر بلغ أربعمئة ألف دينار سنوياً راجع الإسلام في مجده الأول ص ٣٣٥.

غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابعة قلما يداينها التجار في بلاد الإسلام سعة حال ولقد رأيت سكا كتب بدين لأحد تجار سجماسة على آخر بأودغست وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار^(١) أما بالنسبة للحكومات فينبأنا عن ذلك بقوله " ولم يزل المعتر أيام ولايتها وهو أميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع بها ويشترى من إيل وغنم وبقر إلى ما يخرج عنها ويدخل من نواحي أفريقيا وفاس والأندلس والسوس وإغامت^(٢) أما بالنسبة للصحراء المغربية وأهلها فقد عادت عليهم تجارة الملح وقوافلها بالخير العميم إذ من خلال البحث عن الملح واستخراجه نشأت مستقرات ومحطات اقتصادية منتجة ومستراحات هامة للقوافل نافعة في هذا الطريق الموحش صعب الاجتياز بين المغرب والسودان فلم تكن تغازى وتغازى الغزلان أو تاوديني أو الدجيل والعجيل إلا نتاج تجارة قوافل الملح زد على ذلك ما كان يحفر في هذه الصحراء من آبار على طول الطريق اهتم بها الحكام^(٣) والبدو^(٤) والتجار أنفسهم^(٥) كان سببا من أسباب التيسير على التجار بسلوك هذا الطريق مما أدى إلى قطع الوحشة والتغلب على المصاعب الناتجة عن نقصان المياه والمرعى وفوق كل هذا وذلك فإن تجارة الملح كانت سببا في الرواج الإقتصادي

(١) صورة الأرض ص ٩٦.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) وذلك منذ فترة مبكرة من الوجود الإسلامي ببلاد المغرب فيذكر عن عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي حكم المغرب ما بين ١٢٧* ١٣٨ هـ / ٧٤٤ - ٧٥٥ م. أنه حفر آباراً في الطريق الممتد من تامدلت إلى مدينة أودغست إحداها يسمى بئر الجمالين وكان عمقها أربع قامات وأخرى بعد مراحل بعد ماء نزر يقال له تازفي احتكرها في حجرأ أدعج أصلب طولها أربع قامات وبعدها بمرحلة مباشرة حفر بئراً آخرأ يسمى ويطوفان وهي كبيرة لا تتزف ماؤها ثلاث قامات راجع البكري : المغرب ص ١٥٦-١٥٧ ، وعن مجهودات

ابن حبيب في هذا المضمار راجع Levztion: The Sahara and Sudan P 642

(٤) فالطوارق هم الذين حفروا العديد من آبار الصحراء وحافظوا عليها من أجل سقى الرعاة ورجال القوافل المارة ، ورغم أن السيطرة على الآبار والمراعي مثار نزاع بين أبناء هذه القبائل إلا أنها لم تكن سبباً أبداً في التأثير السلبي على التجارة الضرورية لحياتهم راجع يوفيل: الممالك الإسلامية ص ٧٣.

(٥) ونذكر في ذلك إخوان المقرئ أشهر التجار مع بلاد السودان الذين عملوا على تنظيم تجارتهم في الصحراء والغاية بها "فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار واتخذوا طبلا للرحيل ورأية تقدم عند المسير " المقرئ : تفح ح ٥ ص ٢٠٥.

بالصحراء وانتعاش أهلها مالياً إذ أن هذه التجارة الراحبة جذبت إليها الصحراويون للعمل بها استخراجاً ودلالة وتجارة حيث أخذت قبائل الصحراء من الطوارق بكل أسباب المشاركة في هذه التجارة إذ استخرجوا الملح من مناجمه وأعدوه للتصدير إلى بلاد السودان وحملته قوافلهم واتجهت به جنوباً للمتاجرة مع أهلها وذلك على مدار العصور الوسطى والحديثة ومن أشهر الأمثلة في ذلك قبائل مسوفة^(١) والهجار الطوارقية^(٢) ومن لم يعمل منهم في استخراج الملح والاتجار به عمل دلالاً للقوافل في عملية سميت بالتكشيف كان لها دور رئيسي في تجارة القوافل^(٣) وقد علق بهذه المهنة العور والعميان منهم وكانوا يتقاضون مقابل هذه الدلالة مبالغاً كبيرة وصلت إلى مائه متقال ذهباً^(٤) بل إن هؤلاء البدو الصحراويين تحكموا في أحايين كثيرة من مراكز التجارة الملح المتجهة إلى الجنوب كتغازي سجلماسة وأودغست على سبيل المثال^(٥) وكل هذا در عليهم في النهاية خيراً كثيراً واستقراراً في حياتهم التي تعودوا خلالها المشاركة في تجارة قوافل الملح بفاعليه لأجيال متعاقبة وقرون طويلة وجنوا من وراء ذلك أموالاً وفيرة

(١) عن مسوفة ودورها في تجارة الجنوب والسودان راجع ابن بطوطة : الرحلة حـ ٢ ص ٧٧٧-٧٧٨

راجع كذلك Levzion: Op. Cit P 652

(٢) فالتجارة لها مكانة تاريخية عن طوارق الهجار ونظامه الإقتصادي والمادة الأولى في هذه التجارة هي الملح الذي شكل حجر الزاوية في التبادل التجاري بل والعملة الصعبة أيضاً لهذا التبادل في الصحراء كلها. فقد كانوا يرسلون خدمهم إلى منجم أمدرور لاستخراج الملح ثم ينقلونه على ظهور الجمال إلى المراكز التجارية على الحدود الشمالية لنهر النيجر وهناك تجرى المعاملات التجارية لمدة شهرين بالملح ، كما كانوا يمارسون حراسة القوافل وسيطروا على طرق التجارة الممتدة من أوزان حتى شمال نيجيريا عن هذا الموضوع راجع إسماعيل العربي: الحياة الإقتصادية والاجتماعية عند طوارق أهجار، مجلة الأصالة سنة ١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ. عدد خاص عن تاريخ منطقة الهوقار ص ٤٢ وما بعدها .

(٣) حيث كانت مهمة الدلال فيها ليس معرفة الطريق الصحيح بل كان يسبق القافلة قبل دخول المدن الكبيرة المحطات ليخبر أهلها بقدوم القافلة فيتقدمون إليهم بالمياه كما حدث مع قافلة ابن بطوطة قبل أن يدخل والاته راجع الرحلة حـ ٢ ص ٧٧٥.

(٤) نفسه

(٥) ألم ينبأنا ابن بطوطة في رحلته أن سكان ولاته وتغازي من قبيلة مسوفة راجع الرحلة حـ ٢ ص ٧٧٧. وهذه القبيلة لونها نجر إلى الخريطة نجدها تقطن المنطقة الواسعة الممتدة من تغازي في الشمال إلى والاته في الجنوب إلى جاو في الشرق. راجع كذلك McDougall: Op. Cit P 21

وازداد جاهها ونعمت بحياة ليست جاقية ولا غليظة على حد تعبير الدكتور حسن محمود (١) أما السودان أو جنوب الصحراء فقد كفتهم تجارة الملح المغربية الحاجة إليه وأعطتهم سلعه كانت معدومة عندهم وكانوا في أمس الحاجة إليها ومن هنا حرصوا على تجارة الملح وعدم توقفها مهما كانت الأسباب وقد كان هم الحكام الأول في السودان هو تخفيض سعر الملح دائما وكان رجال الجمارك يراقبون حمولات الملح في دخولها وخروجها مراقبة صارمة وذلك لأن الرسوم المفروضة على الملح تمثل نصيبا لا بأس به من مداخيل الحكام (٢) وهانت عندهم أكوام الذهب الذي أجهدوا أنفسهم في استخراجها والتقاطه في سبيل الحصول على الملح، زد على ذلك أن تجارة الملح وشده الحاجة إليه في السودان بنيت عليه مدنا وتأسست كما اشتهرت بسببه مدنا أخرى وهي المراكز الجنوبية لتجارة الملح التي نكرناها انفا وفوق كل هذا وذلك فقد أفادت تجارة الملح السودانيين أفادة عظمى بوصول الإسلام إليه عن طريق تجارهم الذين كانوا في الغالب قدوة بسلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم أمام السودانيين حكاما ورعية ولذا كانوا سببا في دخول أغلب حكام السودان ومن تبعهم في الإسلام (٣) ومع كل هذا فإن تجارة الملح حسنت العلاقات السياسية بين المغاربة ومن جاورهم من حكام السودان ورأئهم من حكام مسلمين كانوا أو كفارا ، والمثل لذلك جد صريح في علاقة دولة إنييه الصنهاجية بأودغست مع ملوك

(١) قيام دولة المرابطين ص ٤٧.

(٢) راجع ج . ت نياني: العلاقات بين مختلف المناطق ضمن تاريخ أفريقيا العام الفصل الخامس والعشرون المجلد الرابع أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر بإشراف نياني بيروت لبنان ص ١٩٨٨ ص ٦١٦ - ٦١٧.

(٣) راجع إسلام ملك السلماني وراء غانة وأهل بيته وعقبه على وخاصة على يد أحد المسلمين البكري: المغرب ص ١٧٨ وما أوصل الإسلام إلى كوغا إلا التجار المصدر السابق ص ١٧٩ للمزيد عن هذا الموضوع راجع حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة الغربية ص ١٧ وما بعدها إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة ص ٤١ وما بعدها ، طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، المكتبة العربية رقم ٦٦ . الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٥ ص ٦٦ وما بعدها ، طرخان : قيام إمبراطورية مالي الإسلامية ، مستخرج من مجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، العدد الأول سنة ١٩٧٠ ص ٢٦ وما بعدها . أحمد إلياس حسن: الطرق التجارية ص ١٨٢ وما بعدها

Philip Curtin and Others: African history from earliest time to independence, PP 78- 81, Michel Berit: Islam and Trade in the Bilad Al Sudan Tenth - Eleventh century PP 431- 439.

السودان كلهم وقد استمرت هذه العلاقات حسنة بين الطرفين طالما كانت المصلحة تقتضى ذلك فالسودانيون فى حاجة إلى الملح والمغارية فى حاجة إلى الذهب وذلك حتى أوائل العصور الحديثة إذ تدخلت بين الطرفين قوى أخرى شرقية وغربية وضعت نصب عينيها ثروات المغرب والسودان وضيقّت الخناق على الطرفين فى المتاجرة وتصريف المنتجات مما أوقع المنطقتين فى خلافات جعلت حكامها ينظرون إلى مصادر الثروة عند جاره بعين الطمع إذ كان ملح تغازى متاح للسفار من التجار وغيرهم لاستغلاله وحمله إلى بلاد السودان وغيرها من المناطق المجاورة لتغازى فلما تولى المنصور السعدى أمور السلطنة بالمغرب الأقصى رأى أن ذلك : تضییع لأموال المسلمين وأراد أن يضم تغازى التى كانت آنذاك فى ملك الصنغاي إلى بلاده فراسل من أجل ذلك إسكيا داود وطالبه بالتنازل له عن ملح تغازى وخراجه فأجابه أسكيا بأن أرسل إليه عشرة آلاف ذهبا هدية ، فكان ذلك سبب المحبة والوصلة ، ولكن بعد وفاة داود وتولية ابنه إسكيا الحاج محمد هاداه المنصور ولكن الأخير رد رداً سيئاً بالإغارة إلى أطراف المغرب فما كان من المنصور إلا أن أرسل قوة أحلت مدينة تغازى بملحها سنة ٩٩٤هـ / ١٥٨٦م وفرض ضريبة دينار على كل حمل ، فساعت العلاقات بين الطرفين خاصة بعد أن أمر الحاكم الصنغى رعاياه بعدم الذهاب إلى تغازى وجلب الملح منها ، وهو ما دفع المنصور السعدى لغزو السودان ، والنظر طمعا لذهبه ومصادره ^(١) وتم ذلك بالفعل سنة ٩٩٨هـ / ١٥٩٥ م مسقطا لدولة الصنغاي ^(٢) ومن هنا تأزمت العلاقة السياسية بين الطرفين لكن يجب أن نقرر فى النهاية حقيقة هامة وهى أن قوافل الملح رغم هذا استمرت حتى أوائل القرن العشرين متغلبة على الصحراء ومشاكلها والسياسة وتقلباتها ^(٣).

(١) عن هذا الموضوع: راجع الناصري: الاستقصا ج٢ ص١١١ وما بعدها .

(٢) عن هذا الموضوع وتفاصيله راجع السعدى : تاريخ السودان . ص ٧١ وما بعدها ، الفشتلى : مناهل الصفا ص١٢١ وما بعدها ، السلوى : الإستقصا ج٢ ص١١١ وما بعدها ، باتيكار : الوثيقة والإسلام ص١٥١ وما بعدها .

(٣) راجع الملحق رقم (٦)

خاتمة

نضع إذاً هذه المعلومات أمام من تجاهلوا تاريخ الملح فى عالم الإسلام لنقول إن عالماً الإسلامى لم يكن مجهولاً فى أى جانب من جوانب الحضارة وهذه المعلومات تخص منطقة واحدة من عالم الإسلام فما بالك لو بحثنا الموضوع فى كل هذا العالم العريض الممتد من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، إذ استجد المزيد عن تاريخ هذا المعدن النفيس شديد الأهمية لحياة الإنسانية . ويمكننا أن نلخص ما توصلنا إليه نتائج البحث فى النقاط التالية:-

١- إن الحاجة البيولوجية للملح دفعت المسلم بغريزته كغيره من البشر إلى البحث عن الملح من أجل الإستخدام فى طعامه وأغراضه الأخرى الحياتية.

٢- إن معرفة المسلم لله تبارك وتعالى والتفكر فيما خلق والتمسك بشريعته قرآناً وسنة أوصلت المسلم فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه إلى الإهتمام باستخراج ثروات الأرض ومنها معدن الملح.

٣- لم يهتم المسلمون بالملح لإصلاح الطعام وحفظه فقط بل دفعتهم غريزة البحث ومحبة المعرفة إلى الإهتمام بمعدن الملح ومعرفة كنهه وكيفية تكوينه وكثرة أنواعه ومن ثم تعددت مجالات استخدامه كيميائياً وطبياً وصناعياً بل وعلى المستوى السياسى والإقتصادى كذلك.

٤- نتيجة لإدراك المسلمين بالمغرب أهمية الملح فى كافة مناحى الحياة اهتموا بالبحث عن أماكن تواجد فرصدوا أماكن كثيرة منتشرة فى بلادهم من مشرقه إلى مغربه ساحلية وصحراوية لنضع بهذه النتيجة الحقيقة التى تجاهلها كيرلانسكى وغيره ألا وهى كثرة أماكن تواجد الملح الطبيعية فى عالم الإسلام ومن ثم لا يجب دراسة تاريخ الملح فى العالم بعيداً عن المصادر الطبيعية لهذه المادة فى عالم الإسلام وخاصة بلاد المغرب التى قل أن توجد فى مكان على وجه البسيطة وهو مارصدناه بتحديد هذه الأماكن جغرافياً من خلال مسح شامل لمنطقة بلاد المغرب من خلال مصادرنا الإسلامية.

٥- ولكثرة تواجد الملح طبيعياً أقبل المسلمون فى بلاد المغرب على استخراجهِ ومعالجته وإعداده للإستهلاك وذلك فى الملاحات البحرية التى يتواجد فيها الملح على سطح الأرض.

أما المناطق التى يتواجد فيها الملح تحت الأرض وهو الملح الصخرى فقد أبدع المسلم المغربى فى استخراجها عن طريق الحفر والتقطيع والإخراج كاستخراج الرخام تماماً. وقد أثبتنا بما لا شك فيه أن المسلمين فى المغرب استغلوا المياه المالحة المحيطة بالمغرب من الشمال والغرب

وكذلك المتواجدة فى الأودية المالحة والبحيرات المالحة وكذلك العيون المالحة ليهيئوا ملاحات يستخرجوا منها الأملاح بالتبخير الشمسى وعن طريق البرك التى كانوا أول من نبغ فيها فى العالم ليستخرجوا أنواع الملح الطيب الجريش والناعم.

٦- ترتب على اهتمام المغاربة باستخراج الملح وصناعته أن اكتفى المسلمون فى بلاد المغرب بملاحاتهم فى الاستهلاك المحلى وأن الملح كان سلعة فى الغالب قريباً من الملاحات لا تباع وتشتري وإنما كانت الملاحات الطبيعية ملكاً للجميع إلا ما هبى من جانب الأفراد ولهذا أثبتنا أيضاً وجود تجارة داخلية نشطة للملح نتيجة لزيادة الملح فى منطقة واقتار مناطق أخرى للملح مما شجع التجار على الانتقال به بين هاتين المنطقتين.

٧- لم يترتب على الإستهلاك المحلى قلة الإنتاج أو تناقصه بل كان العائد الغير مجزى بالنسبة للتجارة الداخلية شجع منتجو الملح على إيجاد أسواق خارج بلاد المغرب ودفع التجار السفار إلى حمله خارج البلاد بعدما رأوا حاجة أوروبا والسودان الشديدة للملح ومن هنا كان النشاط التجارى للملح خارجياً.

٨- ترتب على النشاط التجارى النشط مع الأوربيين وكثرة الطلب على ملح بلاد المغرب تنافس القوى الأوربية البحرية على ملح المغرب ومحاولات أغلبها احتكار تجارته فى المتوسط كالبنديقية وجنوة وغلبة البندقية فى النهاية على ما عداها فى هذا السبيل إن لم يمنع هذا مشاركة القوى البحرية الأخرى فى تجارته ونقله من بلاد المغرب إلى أوروبا كجنوة والقطلان بالإضافة إلى التجار المسلمين فلم تفتقر تجارة الملح رغم الصدامات المستمرة بين القوى السياسية والتجارية التى تصارعت من أجل الحصول عليه مرات وتصالحت وتعاهدات عليه مرات عديدة من أجل استمرار تجارته كسباً للأرباح وضماناً لاستمرار الحياة وتطورها .

٩- إذا كان إنتاج الأوربيين من الملح قليل واحتاجوا إلى ملح المغرب لسد النقص فإن أهل السودان لم يكونوا كذلك إذ افتقرت بلادهم وبشدة فى إنتاج الملح فاحتاجوا إليه وما كان أقرب من المغرب الإسلامى إليهم فاعتمدوا عليهم فى استهلاكهم لهذه المادة مستغلين كثرة إنتاج الذهب عندهم فبادلوه بالملح مضحين بالذهب حتى ولو وزنه منه بوزنة من الملح فصدق من قال " إن البشرية يمكن أن تعيش بدون ذهب ولكن ليس بدون ملح"، ولهذا فقد نشطت تجارة هذه المادة بين البلدين وترددت القوافل بين مراكز التجارة فى كلا البلدين طوال العصور الوسطى بل حتى فى العصور الحديثة رغم بعد المسافة ومشقة الطريق وكثرة المخاطر .

١٠- كان الملح سلعة استراتيجية فاقت للذهب في هذا المضمار عادت بالنفع الكبير على بلاد المغرب فمردود التجارة فيها كان إيجابياً على المستويين السياسي والإقتصادي ، فمن الناحية السياسية أجبرت حاجة أوروبا والسودان للملح في أحيان كثيرة القوى السياسية على المحافظة على علاقاتها الودية ببلاد المغرب مما أدى بصورة واضحة على استقرار الأحوال السياسية الداخلية وعلى الجانب الإقتصادي كان الملح الكفة التي ضبطت بها المغرب الميزان التجاري بل رجح الملح الكفة المغربية في العلاقات التجارية بينها وبين أوروبا والسودان فضلاً عن إنماء الاقتصاد المغربي بأشكال متعددة وصور شتى .

١١- أخيراً أوصى زملائي وإخواني الباحثين بالبحث والدراسة في تاريخ الملح في بقية مناطق العالم الإسلامي ونحن على يقين أنهم سيجدون المادة التي يستطيعون من خلالها معالجة موضوعاتهم وأطروحاتهم في هذا الصدد لتخرج في النهاية عملاً متكاملًا عن تاريخ الملح في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى لتسد فجوة في تاريخ الملح في العالم تركت عمداً أو جهلاً لطمس معالم هذه الحضارة الإسلامية وإسهاماتها في الحضارة الإنسانية.

الملحق

الملحق رقم (١)

جزء من قصيدة يذكر فيها الشاعر معادن الأرض وغيرها*

قال صفوان^(٢) يخاطب بشارا ، ويذكر معادن الأرض وغيرها :

زعمتَ بأن النار أكرم [عنصرا] ^(٣)	وفي الأرض نحا بالحجارة والزند ^(٤)
وتُخلَق في أرحامها وأرومها	أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القمر من لُج البحار منافع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الأرض في البحر كله	وفي الغيضة الغناء والجبل الصلد ^(٥)
وفي الحرة الرجلاء تُلقي معادن	لهن مغارات ^(٦) تبجسُ بالنقد ^(٧)
من الذهب الابريز والفضة التي	تروق وتُصبى ذا القناعة والزهد
وكل فلز ^(٨) من نحاس وأئك	ومن زئبق حي ونوشادر يسدي ^(٩)

(١) هذه قراءة م . ور . أما ك فنقول : بحابة وهو خطأ .

(٢) الأصل : صفان ، والصواب ما أثبتناه ، وهو صفوان بن صفوان الأنصاري المعترى معاصر لبشار بن برد ، وقد وجدت القصيدة كاملة في الجزء الأول من البيان والتبيين للجاحظ ، ص ٢٧ وما بعدها من طبعة الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، وهي طبعة غاية في الدقة والإتقان ، وقد اعتمدت عليها وعلى شروحها وتعليقاتها في تقوم هذه الأبيات وشرحها .

(٣) يياض في الأصل ، والتكيلة من البيان والتبيين ١ / ٢٧

(٤) الأصل : بالحمايا ، والتصويب من البيان والتبيين ١ / ٢٧ .

(٥) بعد هذا البيت ستة أبيات أسقطها المؤلف . راجعها في البيان والتبيين ١ / ٢٧

(٦) الأصل : مغايات .

(٧) الحرة أرض حجارتها سوداء . الرجلاء : التي لا يستطيع المشي فيها حتى يترجل فيها لحشوتها . تبجس

بالنقد : تتفجر بالذهب والفضة . (٨) الأصل : فار .

(٩) الفلز جواهر الأرض كلها . الآئك الأسرب ، وهو الرصاص القلعي الأسود . وقيل إنه القزدير

(القصدير) . وفي ملحق القواميس لدوزي أنه أوكسيد الرصاص Litharge, oxyde de plomb .

ووصف الزئبق بأنه حي لسرعة حركته . والنوشادر بضم الدال . ويقال أيضا نوشادر . وفي الفرق بين

الفرق ص ٤٠ : ونوشادر سندي (عبد السلام هارون) .

وفيه زرانيخ وكحل ومرتك^(١) ومن نرختيشا^(٢) غير كاب ولا مكد
 وفيها ضروب القار والشب^(٣) والمها^(٤)
 ترى العرق منها في المعادن^(٥) لا يحا
 ومن إثمدي جون^(٦) وكلسي وقصة
 وفي كل أغوار البلاد معادن
 فذلك تدبير ونفع وحكمة
 وواضح برهان على الواحد الفرد^(٧)

(١) كذا في الأصل وفي البيان والتبيين ، وصحته بالميم والقاف : مرقشيتا وهي الصيغة الأرمينية للفظ . وفي السريانية مكشيتا ، وأصل اللفظ غير معروف ، والغالب أنها ما يعرف الآن بالزيموت . فقد قال دوزي في ملحوظ القواميس أنها وردت في بعض التصوص مرقشيطه القصدير . وهي الزيموت bismuth . وجاء في القانون لابن سينا (١ / ٣٦٦) : حجر هو أصناف : ذهبي وفضي ونحاسي وحديدي . وكل صنف منه يشبه الجوهر الذي ينسب إليه في لونه . والفرس يسمونه حجر الروشنا أي حجر التور ، للمتعة للبصر .

(٢) لها جمع مهاة وهي البلورة التي تتألق لشدة لمعانها

(٣) المعادن هي الناجم .

(٤) الأصل : الرند ، والتصويب من البيان والتبيين .

(٥) الأصل : ومن الموجود ، والتصويب من البيان والتبيين .

(٦) البيان والتبيين : في معادن هندي .

(٧) ترك المؤلف بين هذا البيت والسابق عليه آيات داخلة في موضوع المعادن والأحجار ، ولهذا فقد رأينا أن تأتي بها هنا :

وكل يواقيت الأنام وحليها	من الأرض والأحجار فاخرة المجلد
وفيه مقام الخلل والركن والصفاء	ومسلم الحجاج من جنة الخلد
وفي صخرة الخضر التي عند حوتها	وفي الحجر المهي لموسى على عمد
مفاخر للطين الذي كان أصلنا	ونحن بنوه غير شك ولا جحد

وصخرة الخضر المشار إليها في البيت الثالث هي الصخرة التي نسي عندها الخوت . قال الله تعالى في سورة الكهف ﴿ إِذْ أَوْيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ ﴾ . والحجر المهي من أمهي الحجر أي ظهر ماؤه ، وهي إشارة إلى ضرب موسى الحجر بعصاه .

وبقيت من القصيدة كما وردت في البيان والتبيين أحد عشر بيتاً كلها هجاء لبشار وأصحابه ممن كانوا يهتمون بالزندقة .

الملحق رقم (٢)

البند الرابع

من الإتفاقية المعقودة بين أمير طرابلس وجربة المستقل عن الدولة الحفصية

أحمد بن مكى ومدينة البندقية فى ٩ يونية ١٣٥٦

TRAITÉS ENTRE CHRÉTIENS ET ARABES

النص باللاتينية

4. Item, quod dictus dominus Ameth teneatur et debeat dare, pro quolibet cassio salis Rassamahesii ¹ mensuras tres pro cassio, mensuratas cum mensura que noviter de Veneciis ad has partes per ducale dominium est transmissa, bullata et sigillata cum bulla comunis Veneciarum, que mensura stare debet in manibus consulis Venetorum. Et debet recipere et habere dictus dominus pro quolibet cassio salis predicti, miliaresios duos. Et pro arabis salinarum ², pro quolibet cassio salis miliaresios duos; et pro illis de camellis, qui salem ad mare defferunt ³, pro quolibet cassio salis, miliaresios duos; et pro illis de carabis qui ad navem salem deportant, pro quolibet cassio salis miliaresium unum et quartam unam miliaresii; quod totum ascendit ad summam miliaresiorum septem et quarte miliaresii. Et debent habere arabi saline, secundum consuetudinem, barile unum vini pro quolibet centenario cassiorum. Et debent habere arabi pro toto carico navis, saccos quatuor biscoti unius cantarii pro quolibet sacco, et rotulos viginti quinque casei, qui dividuntur secundum beneplacitum et mandatum patroni, de die in diem, donec navis complecte fuerit onerata. Et habere debent illi de carabis pro quolibet viaggio, quo vadunt caricati ad navem, rotulum unum panis, pro quolibet, et rotulos tres casei pro omnibus illis de carabis.

النص باللغة العربية

يتعين على السيد المذكور أحمد أن يرسل ثلاث شحنات من ملاحه رأس السبيل وذلك إلى جانب ما يتم جلبه على أيدي البنادقة وفق الإتفاقيات المحلية المقررة والتي تم الإتفاق عليها، ويكون الإشراف على جلب هذه الكميات تحت نظر القناصل البنادقة، ويجب كذلك على السيد المذكور أن يتولى تأمين الحصول على كمية الملح محل التعاقد والتي تزن سبعة آلاف وربع الألف من الأرطال، وكذلك الأمر بالنسبة للملاحات العربية التي يحمل منها كمية بنفس المقدار، كما يجب عليه حماية الإبل التي تحمل هذه الكميات من أماكنها حتى تصل إلى المراسى على البحر وتحط عنها تلك الحمولات وشحنها في السفن. ووفق المعتاد يلزم السيد المذكور بتجهيز سفينة في كل شحنة، إلى جانب تنازله عن خمسة وعشرين رطلا والتي يتم توزيعها وفق عمليات التسليم والتسليم المختلفة من يوم إلى آخر وحسب كل سفينة ينتهى تحميلها.

الملحق رقم (٣)

إقطاع أبي غيث الحكيمي الهناشير الواقعة بين القيروان وسبخة سيدي الهاني
وإزالة قبالة ملح السبخة

نص الظهير السلطاني :

الحمد لله والشكر لله ، هذه نسخة كريمة سلطانية متوكلية (موحدية) (11) حفصية نصها
الحمد لله وحده ، تصدق مولانا أمير المؤمنين المولى الهمام حامي الاسلام ، قاطع اهل الشرك
والجور وعبد الاصنام ، ذو العطايا الوافرة والصدقات الزاخرة والعلم المنشور والجيش المنصور ،
الكبير الأشهر مولانا أبو عبد الله (المنتصر) (2) بالله العلي العظيم القائم بوظائف الاسلام (الراجي)
(3) رحمة ربنا الكريم الرحمان وشفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في يوم الزحام ، على الشيخ
الحاج الصالح البركة المعتقد الافلح أبي رحمة غيث القيرواني الحكيمي ، اعاد الله علينا من بركاته
واقاض علينا من سحائب خيراته ، بالموضع المعروف بهنشير الزربية (4) والخزازية والعبيد (5)
وهنشير حمبار (6) وكيسان وقنزر وقريح (7) ، جميعها متلاصقة الحدود . يحد جميعها قبلة عيون
الربيع (8) وجوفا مجرى وادي القدام (9) وغربا طريقا الخضارة (10) وطريق الحاجب وبحيرة
الذيب ، شرقا سبخة أم الاصنام (11) وبحيرة السروقين (12) بجميع أعمار ذلك وأحكاره
وظائفه ولوازمه ، صدقة تامة (13) ما اختلف الملوان وتعاقب الجديان ، وعلى أولاده وأعقابهم
وأعقاب أعقابهم كذلك ما تناسلوا وامتدت (14) فروعهم في الاسلام ، إحسانا اليه وانعاما عليه
لتوثقه بحبل الله المتين وجريه على السبيل الواضح المستبين . ومرادنا منه قراءة الفاتح (كذا) والدعاء
الصالح ولتجلنا [الأنعم] (15) رعاه (16) الله .

ورفعنا يد سعد (17) الظاهري عن تعاطي (أمور سبخة أم) (18) الاصنام وملحها (19)
الرقع التام ، وأبجنا الانتفاع بملحها (20) وغيره لجميع المسلمين على مرور الليالي والأيام الى
انقراض الزمان لا يعارضهم فيه معارض بوجه ولا يحال من الأحوال . وأعطينا في ذلك مالا
(21) من كسبنا ، حين نزول عدو الدين بالحضرة العلية ، دمرهم الله وخذلهم ، وقصده بذلك جزيل
الثواب والسلام .

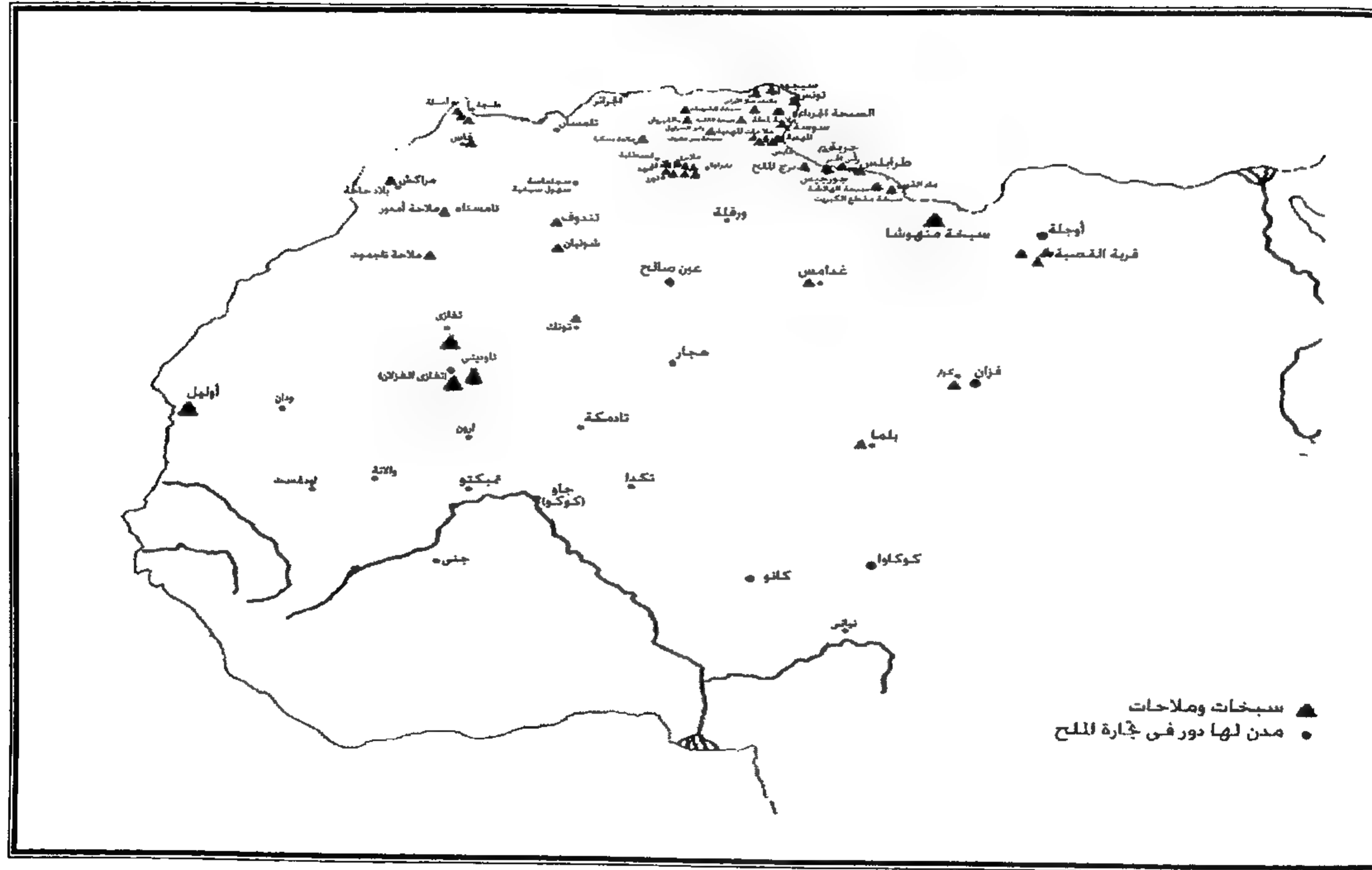
وذلك (....) المشهورة منه الكتاب لجميع العمال و [القواد] (22) والفقهاء وأهل (....) جميع
عمله على الدوام .

وبطرة ذلك بخط اليد الكريمة المولوية (23) الحفصية السلطانية ، تحت ما وقع به
عنى (24) ، وبخطه أيضا ، يليه ختمه المعلوم : توكلت على الله .
مؤرخ ذلك بقرة شهر ذي الحجة عام سبعة وسبعين وستمئة هجري .

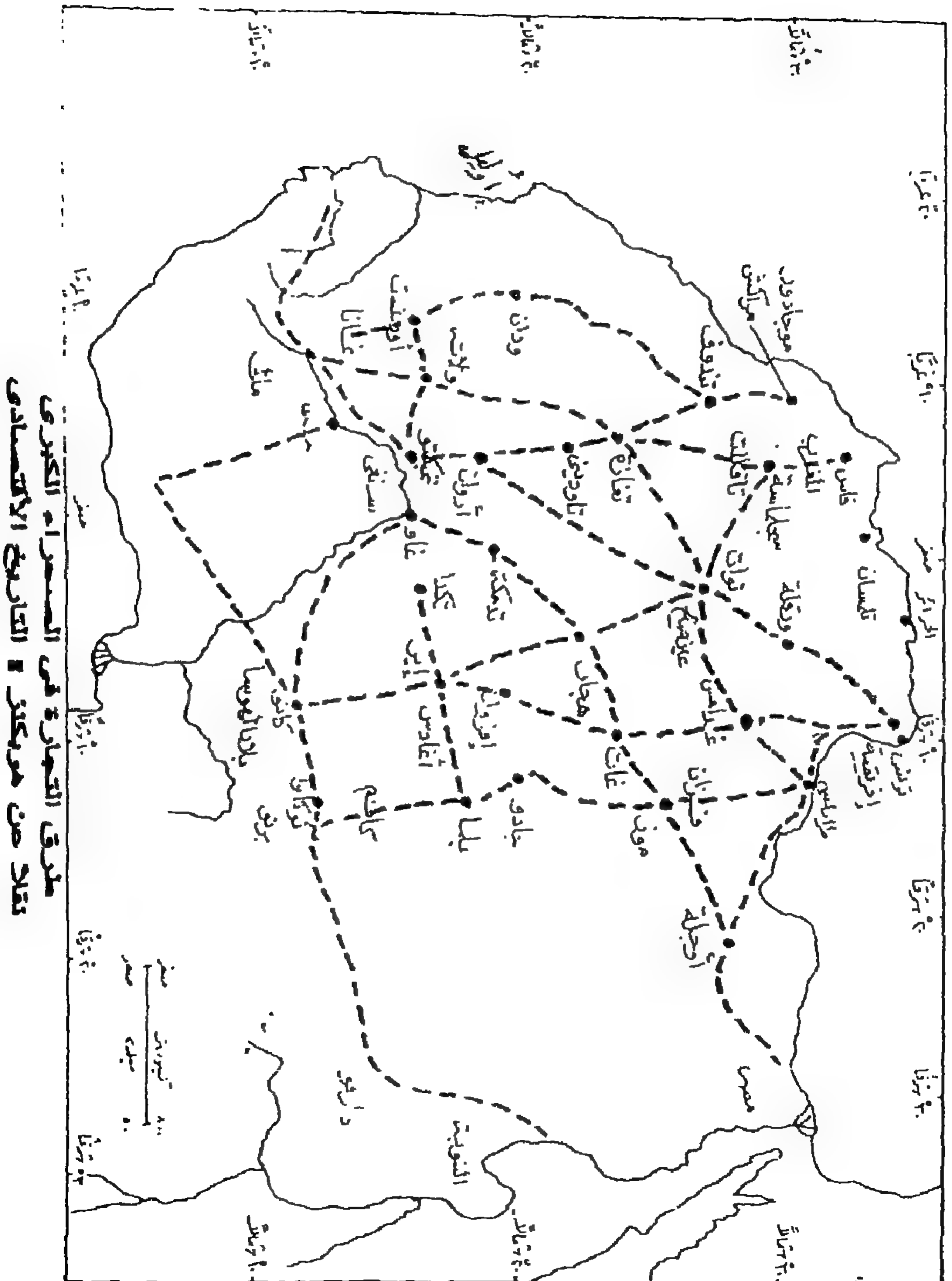
* اعتمدنا في تحقيق هذه الوثيقة على نسختين . الأولى وردت في الرزنامة التونسية ، 1324 هـ ، ص 58-59 .
والثانية في تاليف محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، تونس 1974 ، ص 177 . وقد
أطلقنا على الأولى تسمية ر ، والثانية ج

(1) لم ترد في ج (2) في ج . المصر (3) ساقطة من ج (4) في د . الزربية . (5) في ج : العبية . (6) في ج . الخبر ،
ر حمبار وقد أثبتنا الاسم أثناء معاينتنا للموقع الذي ما زال يحمل نفس التسمية (7) في ج بنزر ومريخ (8) في
ر الربيع . (9) في ج القدام (10) في ج الخضارة . (11) في ج . سلنجة أم الاصنام . (12) بحيرة السروقين
(13) في ج ثابتة (14) في ج امتدن (15) في ج الانعمة وفي ر الاقعد (16) في ج . رحمة (17) . في ج
بوسعه (18) بياض في ج (19) في ج محلها (20) في ج بمحلها (21) ساقطة من ج . (22) في ج بجميع
المهود والبلاد في ر لجميع العمال والبلاد (23) ج المولدية (24) في ر تمتعنا رقم فيه عني

الملحق رقم (٤)
خريطة (١)



خريطة (٢)



الملحق رقم (٥)

(١) وثيقة لقبالة ملاحه وفقه القبالات في الملح

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع الأحواض التي بملاحه قرية كذا من عمل كذا وحدود جميع الأحواض كذا بمناقعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها وأقيبتها وسواقيها ونصيبها من شرب بئر هذه الملاحه بعد معرفتهما بقدر ما تعاندا فيه القبالة ومعرفة الشرب قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار كذا وكذا شهراً أولها كذا أو لعام أوله كذا بكذا وكذا ديناراً دراهم فإن كان دفعها المتقبل ذكرت ذلك وإن كانت منجمة أو تندفع قبالة كل شهر أو كل عام عند انقضائه ذكرت ذلك ثم قلت: وفلان مصدق في الاقتضاء دون يمين تلزمه في دعوى القضاء ونزل المتقبل فلان في الأحواض المحدودة وصارت بيده فإن كانت القبالة بملح قلت بكذا وكذا مدنياً من ملح أبيض جريش طيب وهو الغليظ أو رقيق أبيض نقي طيب غاية بكيل كذا يدفعه المتقبل فلان إلى المقبل فلان عند انقضاء أمد القبالة ثم تكمل الوثيقة على ما تقدم.

قال محمد بن أحمد: وتجوز قبالة الملاحه بالملح لأن الملح ليس يخرج منها وإنما يتولد فيها بصناعة بجلب الماء إلى الأحواض ويتركه للشمس فيها حتى يملح وليس هذا كالشجرة التي من طبع الأرض إنباتها تكلف العمل فيها أو لم يتكلف وما قاله رواية في «العتية».

قال محمد بن أحمد: ولولا الرواية في «العتية» لكان القياس ألا يجوز وقد عمرها بعض الشيوخ وقال تعطى أحواضا وما يكون منه الملح في ملح إلى أجل ولا يجوز تقديم القبالة فيها إذا لم يكن شربها مأموناً.

وقال محمد بن عمر: قد تكلم الناس فيها قديماً وعللوها وأسقطوها لأنها صريح المرواه التي ورد النهي عنها ولعجا كيف أدخلها العتبي في كتابه وما احتج محمد بن عمر أن الرطب بالتمر لا يجوز أصلاً والرطب قد يجلب إلى الحرس ويترك للشمس حتى يتمر كما يصنع بالملح. وقال محمد بن أحمد: وتجوز المعاملة في الملاحه على الأحرار، والعقد في ذلك:

دفع فلان بن فلان إلى فلان بن فلان جميع الملاحاة التي بقرية كذا بموضع كذا
(٨٥١ أ) وحدودها كذا ليسقى فلان أحواضها وسواقيها ويجلب شربها المعد لها من بئر هذه
الملاحاة إلى أحواضها ويقوم بجميع مؤنتها حتى يملح ويستخرج ويضعه في قئاتها المعد
لذلك ويكون ما يحصل فيه للعامل ثلثه أو ربعه ولرب الملاحاة فلان ما بقى لعام كذا وعليه
الاجتهاد في ذلك بأبلغ طاقته وعليه أداء الأمانة في سر أمره وجهره وعرفا قدر ما تعامل فيه
ونعاقدها وقدر شرب هذه الملاحاة وأحاطا علما بمبلغ ذلك كله وشرع فلان في العمل فإن
كان وقت العمل بعيداً سكت عنه ثم تقول: ولهما في ذلك سنة المسلمين في معاملاتهم
ثم تكمل الاشهاد والكتب نسحنان.

وتحوز قبالة الملاحاة بالفضة والذهب والعروض والسلع.

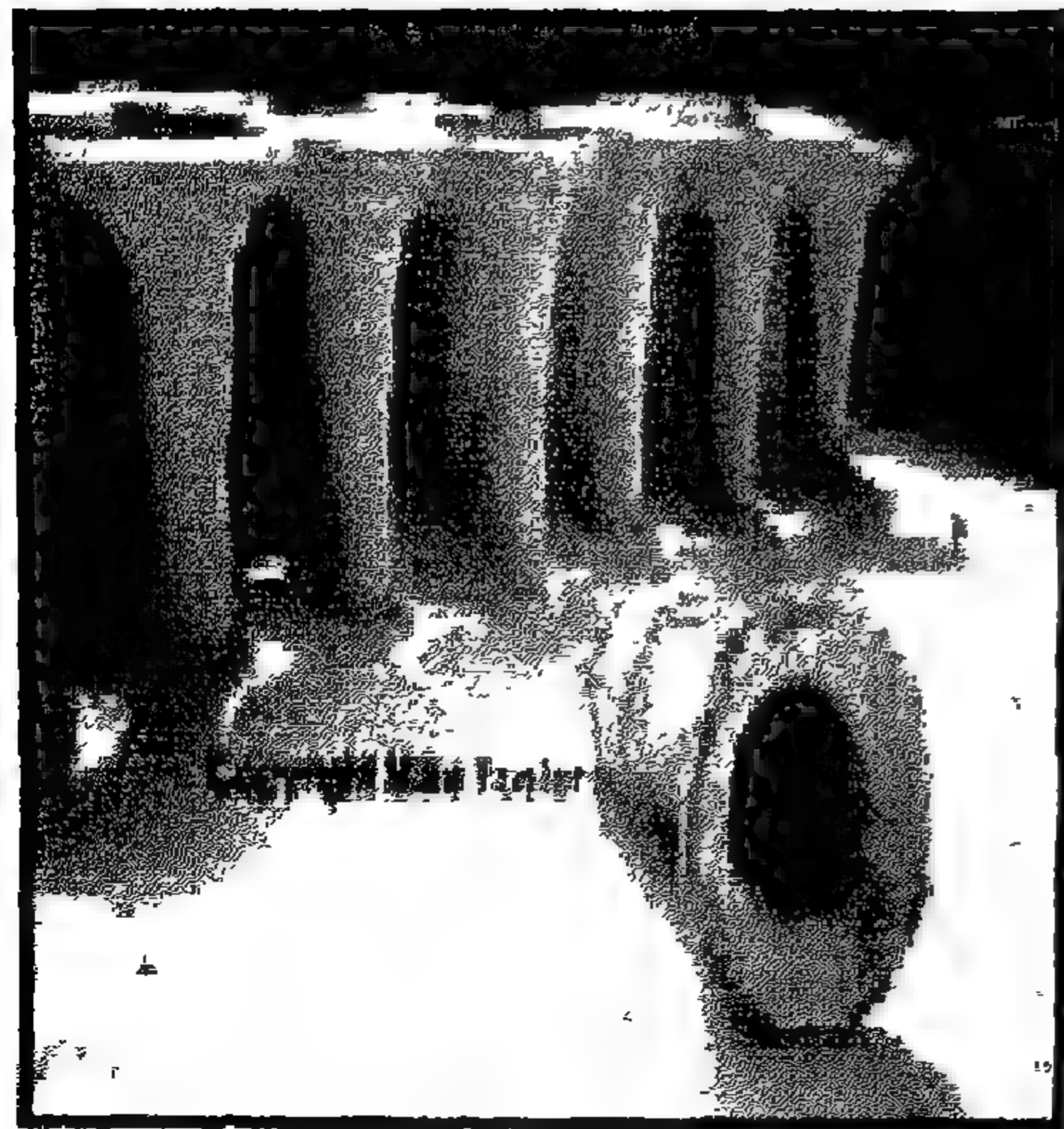
(٢) صور تمك اسنخراج اطلع وتجارته



صورة رقم (٢)



صورة رقم (١)



صورة رقم (٤)



صورة رقم (٣)



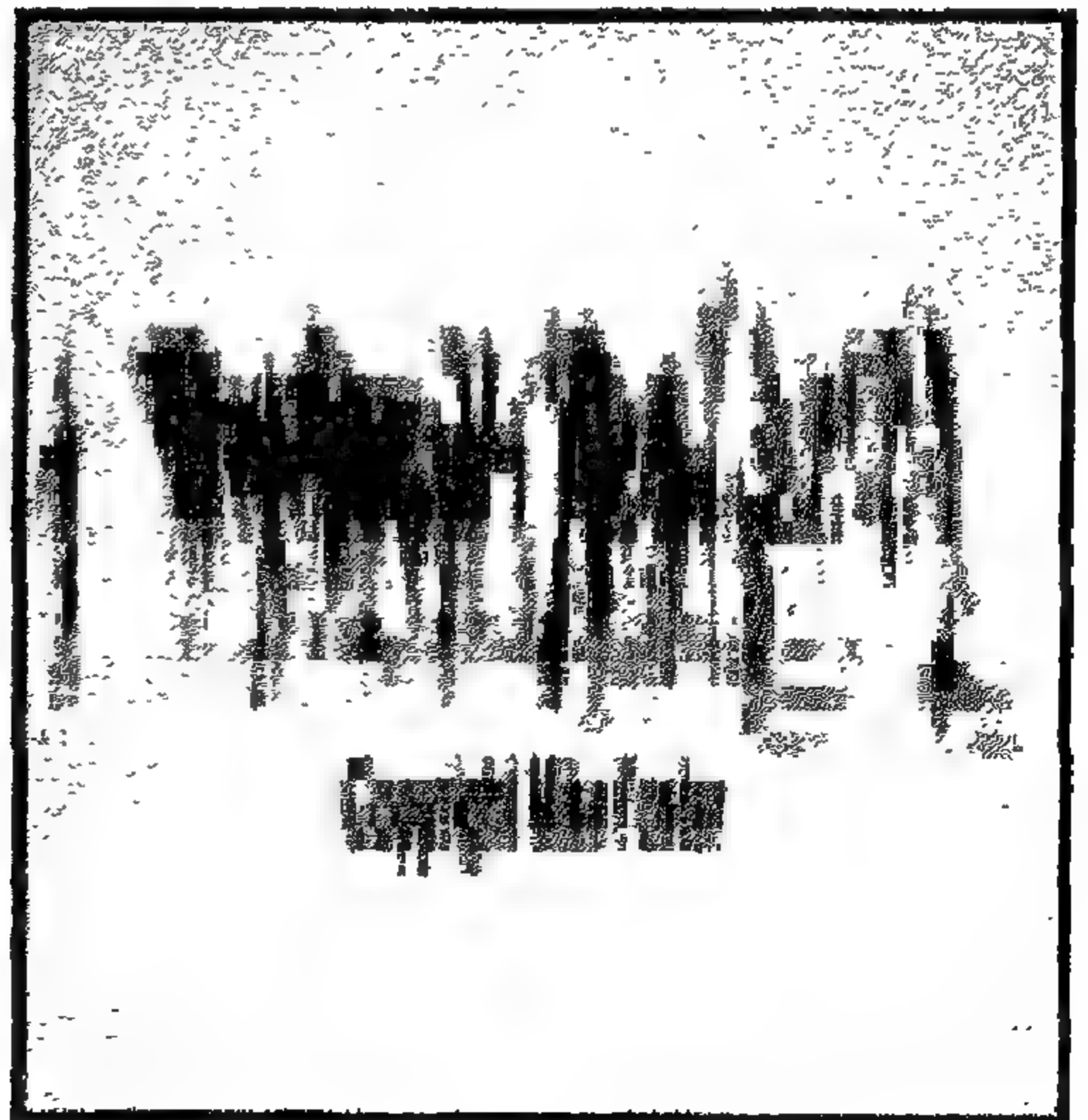
صورة رقم (٥)



صورة رقم (٦)



صورة رقم (٨)



صورة رقم (٧)

الملحق رقم (٦)

تقرير من أورينت برس بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠٠٥ عن قوافل الملح التي تبدأ في العمل من أكتوبر

حتى مايو بعنوان: مناجم الملح الصخري .. اكتشافها البربر واعتنقوا الإسلام

لعله صدام الثقافات بين الشاحنة والناقة قوافل تقطع ٧٥٠ كيلومتراً من مدينة تومبكتو في مالي إلى

مناجم الملح، وسط صحراء جدياء ووحدات قليلة رجال اعتادوا العطش وهم لا يتناولون الماء سوى

مرة واحدة كل ثلاثة أيام أحياناً، فيما قد تجد على الطريق هياكل عظمية لنوق نُفقت من شدة الإرهاق.

هنا تكون صبوراً جداً أو لا تكون، وكل هذا من أجل الذهب الأبيض الذي تتم مقايضته بالعسل

والأرز. الذين يستفيدون من كل هذا هم التجار. أما العمال فلا شيء أكثر من لقمة العيش.

قبيلة برايش البربرية أول من اكتشف الملح، واعتنقت الإسلام في العام ١٦٧٠ هنا تقاليد مثيرة في

تومبكتو.

قوافل النوق تتراجع لتحل محلها الشاحنات، كما لو انها ثقافة كبيرة تتلاشى أمام التكنولوجيا.

أورينت برس وضعت هذا التحقيق حول تومبكتو وصولاً إلى تلك الصحراء حيث يحظر المرض،

وحيث لا أحد يساعد أحداً:

يرتفع صوت الاذان معلناً انتهاء الليل، ثم تشرق الشمس غارقة في الغبار الكثيف الذي يملأ سماء

تومبكتو. ويتمزق صمت الرمال بصراخ الأطفال وثغاء الماعز. المشهد نفسه يتكرر مع كل فجر، منذ

قرون وقرون، في هذه المدينة الواقعة عند بوابات الصحراء، وليس أمام الراغب في زيارة

الصحراء سوى انتظار قافلة ينضم إليها وإلا...

تومبكتو، المدينة الأزلية، والتي طالما كانت مدينة السحر والغموض الذي جعل منها مدينة تاريخية

مميزة ومنذ أقدم العصور وحتى الآن، يعجز الزائر فعلاً عن إدراك مواطن سحرها: في شوارعها

أو أسواقها الرملية، في خضرواتها الهزيلة المتعفنة، أو في بهاراتها وتوابلها، أم في مناجم الملح أم

في نسائها اللواتي يبدون وكأنهن مازن هنا على حالهن منذ قرون غابرة سحر تومبكتو لا يمكن

إدراكه بالرؤية والمشاهدة، بل بالشعور فقط، كتب الرحالة الفرنسي سيرنو في القرن السابع عشر:

لا تستخدم عينيك بل قلبك لرؤية هذه المدينة..

قبيلة الملح

مناجم الملح هي أثمن وأهم الموارد الطبيعية في تومبكتو، لكن العمل في هذه المناجم شاق ومضن

ومخوف بالخطر، والأبرع فيه تاريخياً وإلى الآن هم أبناء قبيلة برايش. والبرابيش برابرة قدامى

اعتنقوا الإسلام منذ العام ١٦٧٠ وكانوا قد اكتشفوا مناجم الملح في تاوديني ازلاي، وبدأوا

باستخراجه منها منذ القرن السادس عشر، وهم مايزالون إلى الآن يطلقون اسم تلك المناجم على قوافلهم المتجهة إليها.

مواسم قوافل الملح تبدأ من تشرين الأول / أكتوبر حتى أيار/ مايو، حيث تكون حرارة الصحراء والمناجم أقل غلياناً من أيام الصيف، وحيث ينقلون محصولهم من الذهب الأبيض على ظهور الجمال التي هي بحق سفن الصحراء.

كتبت الرحالة اوديت بوينادو عام ١٩٣٧ بعدما كانت قد اشتركت في إحدى رحلات قوافل الملح من تومبكتو: العمل في مناجم أزلاي لا قدرة للنساء على القيام به، عمل يستغرق ١٢ ساعة يومياً، ويلزمه رجال أشداء وحتى الرجل الضعيف لا يقدر عليه، والعمل لا يقتصر على استخراج الملح من المناجم فقط، بل الصعوبة والتعب في نقله إلى خارج المنجم وفي تحميله على ظهور الجمال. تضيف: بعد كل ذلك على رجال القوافل أن يعانون مشقات اجتياز الصحراء في طريق العودة إلى تومبكتو، حيث يكون تجار الملح في انتظارهم لشراء محاصيلهم، ويأثمان زهيدة تكاد لا تساوي شيئاً بالقياس على ما يتكبدونه من تعب وخطر. !

تضم قافلة الملح عادة أربعة رجال وخمسين ناقّة، أما الطريق التي تقطعها من تومبكتو إلى مناجم تاو ديني الواقعة في قلب الصحراء فتبعد ٧٥٠ كيلومتراً. طريق صحراوية جرداء لا نبات فيها ولا مياه ولا شيء إلا الرمال ولأن الماء أثمن من الحياة في الصحراء، فرجال قوافل الملح اعتادوا على العطش بحيث لا يشربون سوى قطرات معدودة طيلة النهار، بل إن منهم من لا يشرب سوى مرة واحدة كل يومين أو حتى ثلاثة. أما بالنسبة إلى الطعام فتكفي الواحد منهم بضع قضمات من اللحم المقد والخبز اليابس الذي يحملونه معهم قبل الانطلاق.

النوق، وإن كانت معتادة بطبعها على مقاومة أقصى درجات العطش فهي قد تفقد قوتها وتتهار إذا لم تنل قوتها كل يوم، ولحسن الحظ أن في طريق المناجم بعض أعشاب برية طالعة من وسط الرمال وتكفي لسد رمق النوق الجائعة. ولهذه المسألة تأثيرها المباشر على مسار الرحلة، إذ حيثما تكون رمال الصحراء مزدانة بالأعشاب تسير القافلة بمعدل ست أو سبع ساعات في اليوم لافساح المجال أمام النوق لأخذ وجبتها، أما في الطريق الجرداء كلياً، فتسير القافلة بمعدل ١٢ ساعة يومياً ومن دون توقف.

والواقع أن رحلات الملح هي معاناة في منتهى القسوة، سواء للرجال أو للنوق، وليس غريباً رؤية العديد من الهياكل العظمية لنوق فقدت حياتها بفعل الإرهاق الشديد الذي يتسبب فيه نقل الذهب الأبيض.

تكون صبوراً أو لا تكون

مع غروب الشمس تتوقف القافلة وتحط الرحال، والاستراحة تستمر حتى بزوغ فجر اليوم التالي، وبرغم تعبهم النهاري، فإن رجال القافلة لا يضيعون كل وقت استراحتهم هباء، بل يجمعون ما تيسر من الأعشاب الصحراوية اليابسة ويجعلونها في حبال طويلة يستخدمونها في ربط النوق ببعضها، وفي تقوية سروجها إضافة إلى استخداماتها الأخرى في أمتعتهم الشخصية، كما يستخدمون لبثها، إذا كان نصراً بعض الشيء، في تجضير الدوخم، أي وجبة الاقطار الصباحية، وهي وجبة لذیذة فعلاً، يصنعونها من العسل الممزوج بالطحين إضافة إلى مواد أخرى بحيث تصبح الخلطة أشبه بالكريمة المخفوقة، خلال ذلك تكون وجبة العشاء قيد التحضير على قدور فوق مواقد صغيرة يصنعونها من الحجارة ويشعلون تحته وقود الأعشاب اليابسة. كل الأشياء، مهما كانت صغيرة أو عادية، تستغرق وقتاً طويلاً في الصحراء.. الصبر، والاثابة، من أدبيات الصحراء. وهنا تكون صبوراً جداً أو لا تكون أبداً.. المشهد نفسه يتكرر كل يوم، والمعاناة نفسها تتكرر كل يوم، ومع كل يوم جديد تبدو مناجم الملح أكثر بُعداً، ويبدو الوصول إليها كضرب من المستحيل.

بعد عشاء الأرز، كما بعد افطار خلطة العجين والعسل، لابد من كوب صغير من الشاي المساعد على الهضم وعلى تعديل المزاج، ومع أن المفاجآت نادرة الحدوث في الصحراء فلا بد من إبقاء النار مشتعلة طوال الليل، كما لابد من نويات حراسة قرب باب الخيمة عندما تحين ساعة النوم.

واحة أروان

بعد مسيرة ٢٥٠ كيلومتراً من تومبكتو، تنفرج أسارير القافلة، رجالاً ونوقاً، بالوصول إلى واحة أروان، حيث الماء والأعشاب النضرة، لكن مرحلة أخرى من العذاب تبدأ بعد الخروج من الواحة، حيث ينذر أو حتى ينعدم وجود الماء والأعشاب وخلال ذلك تتغذى النوق من الأعشاب التي سبق وحملها من الواحة.

لا شيء يوقف القافلة لدى انطلاقها في الصحراء، حتى إذا شعر أحد رجالها بأية عوارض صحية مهما كانت. القواعد صارمة جداً هنا: عليك أن تتغلب على جسمك وأن تصبر على العارض الصحي مهما كان شديداً وأن تتابع المسيرة على ظهر ناقتك لأن لا شيء يوقف القافلة رجال قوافل الصحراء لا يعترفون بالألم، ولا أحد يساعد أحداً في أي شيء. لأن على الجميع أن يتدبروا شؤونهم بأنفسهم.

بعد اجتياز حوالي النصف الأول من الطريق تتغير قوانين السير، يصبح بحدود الأربع عشرة ساعة يومياً مع اختصار شديد في وقفات الاستراحة لتناول الغذاء وبعض النوم، كما يمتد سير القافلة إلى

ما بعد الغروب وإلى ما قبل الفجر ، وبواسطة نجمة بلهادي تستدل القوافل على الاتجاه الموصل إلى
مناجم الملح بدون بوصلة أو غيرها، ولماذا البوصلة ما دامت هذه النجمة ثابتة في مكانها منذ
عشرات ومئات القرون؟!

400 منجم

الرحلة تستغرق إلى مناجم تاوديني ثلاثة أسابيع، وفرحة الوصول تنسي ضراوة التعب الرمال
وردية اللون بل شبه حمراء، وبالاقتراب من موقع المناجم ينجلي غبار السماء عن جبل ومئات
النوق من القوافل التي وصلت قبل غيرها أو التي تحمل محاصيلها استعداداً للعودة إلى تومبكتو.
عدد المناجم حوالي ٤٠٠ منحورة بفجوات يصل قطر الواحدة منها إلى عدة أمتار، ومن عمق
حوالي الخمسة أمتار يعمل الملاحون على استخراج كتل صخرية من الملح الصخري الأبيض
النقي، ثم يقطعونها إلى كتلتين عموديتين مكعبتين، زنة الواحدة منها حوالي ٣٥ كيلوغرام
وللمقاييس والأوزان حسابات خاصة تركز على حمولة الناقلة التي ستجتاز بها مسافة ٧٥٠
كيلومتراً وسط رمال الصحراء المضيئة.

وطبيعة العمل في مناجم الملح تتطلب خبرة وعناية فائقة الدقة، حيث أن أدنى حركة خاطئة قد
تسبب في تصدع كتلة الملح وانكسارها وربما في تفتيتها أيضاً وخسارتها في الرمال.

ملح مقابل - العسل

يوميات العمل في مناجم الملح في تاوديني/ تومبكتو لم تتغير منذ عشرات القرون، المعدات نفسها،
التعب والإرهاق نفسه، أغذية العمال نفسها، وسائل النقل نفسها، ولهيب الأرض والسماء نفسه لكن
كل شيء يهون من أجل هذه الحفنان السخية من الذهب الأبيض الخام.
بالوصول إلى أسواق تومبكتو تبدأ عمليات المقايضة، والأسعار شبه ثابتة: كتلة ملح وزنها ٣٥ أو
٣٠ كيلو غراماً تساوي ستة كيلوغرامات من العسل أو ثلاثة كيلوغرامات من الأرز. وإذا كان الملح
مصدر رزق العمال وعائلاتهم، فإن أرباحه الحقيقية تذهب إلى جيوب كبار التجار، والذين كانوا
حتى أواخر القرن التاسع عشر يستخدمون عبيداً من قبيلة هاراتن الذين يعملون في استخراج الملح
ونقله إلى تومبكتو مقابل إطعامهم فقط.

رسمياً وعملياً لا تعود ملكية مناجم الملح إلى أحد، بل بإمكان أي كان أن يأتي مع عماله ويستخرج
ما يشاء، كما بإمكانه أن يحفر منجماً جديداً إذا أراد، وفيما تصادف فريق عمل مؤلفاً من أبناء قبيلة
واحدة يعملون في المناجم كمجموعة واحدة، هناك أيضاً مجموعات من عمال أجراء، إضافة إلى
مجموعات صغيرة العدد ممن يعملون لحسابهم الخاص.

غزو الشاحنات

جميع عمال مناجم الملح من الرجال الأشداء والذين يقضون ستة أشهر متواصلة معزولين عن باقي العالم، حيث لا مراكز استشفاء حتى لأخطر الحالات الطارئة، وحيث لا وسيلة اتصال حتى جهاز راديو ترانزستور صغير، لا شيء هنا سوى الملح والرمل وسوى لهيب النهار وصقيع الليل، وسوى النوق ورجال الصحراء وفي الليل ينام العمال في مساحة واسعة من الخيم الصغيرة المنصوبة هنا وهناك، وأمام كل خيمة ألواح الملح التي يكون جرى استخراجها خلال النهار.

ومع إطلالة شهر أيار/ مايو ينتهي موسم العمل في المناجم ويبدأ تحميل النوق وتنظيم قوافل العودة إلى تومبكتو، وبالإضافة إلى النوق، بدأ كبار التجار يستخدمون في السنوات الأخيرة قوافل تعتمد طريقة السير ليلاً والاستراحة والنوم نهاراً، ومسافة الـ ٧٥٠ كيلومتراً التي تقطعها النوق في ٢١ يوماً، تقطعها الشاحنات في أربعة أيام فقط.

قوافل الشاحنات تهدد فعلاً بزوال وانتقراض قوافل النوق، لكن مناجم الملح لن تنقصر مهما طال الزمن، بل ستبقى ذهب تومبكتو الأبيض الذي يزيد من لمعان بريق المدينة الزاهية دوماً في التاريخ كما في الجغرافيا.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

-القرآن الكريم

-ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله كان حياً ٧٢٦هـ / ١٣٣٥م) :الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،تحقيق ومراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ م، الطبعة الثانية .

.....--: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة،الرباط سنة ١٩٧

-الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي من أهل القرن السادس) : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلدان ، عالم الكتب ، بيروت سنة ١٩٨٩
-الأبشيهي (شهاب الدين محمد أحمد بن الفتح الأبشيهي ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦ م) :المستطرف في كل فن مستطرف،دار الكتب العلمية،بيروت سنة ١٩٨٦ الطبعة الثانية

-الاصطخري (أبوإسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المتوفى في النصف الأول /العاشر الميلادي):المسالك والممالك ،تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال مراجعة محمد شفيق غربال ،الذخائر رقم ١١٩ الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة ٢٠٠٤.

-البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري ٢٥٦هـ/٨٦٩م): الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق دكتور/ مصطفى ديب البغا ، دار بن كثير اليمامة ،بيروت سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨م ، الطبعة الثالثة.

-البرزلي(أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي ت ٨٤١ هـ /١٤٣٨م): جامع مسائل الأحكام لما نزل بالمفتين و الحكام ،أجزاء ،تحقيق د/ محمد حبيب الهيلة ،دار الغرب الإسلامي بيروت ٢٠٠٢ م للطبعة الأولى .

-البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦هـ/١٢٢م) : تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل ، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة للنشر ، سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م الطبعة الرابعة .

-البكري(أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن مصعب البكري ت : ٤٨٧هـ /١٠٩٤م) : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، تحقيق دي سلان ،الجزائر سنة

١٩١١م .

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتي المعروف بساين بطوطة
ت ٧٧٩هـ / ١٢٢٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزءان ، تحقيق د/
علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥ هـ) الطبعة الرابعة .

- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)
: شعب الإيمان ، تحقيق محمد السعيد بسيوني ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠ هـ .

- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني ت ٧١٧هـ / ١٩١٧م) : رحلة التجاني :
قام بها في البلاد التونسية والقطر الطرابلس ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة
الرسمية تونس ١٩٥٨ م .

- الترمذي (محمد بن الترمذي السلمي ت ٢٩٥هـ / ٩٠٧م) : الجامع الصحيح ، سنن
الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث ، بيروت ، بدون .

- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ت ٤٢٥هـ / ١٠٤٧م) : يتيمة
الدهر في محاسن أهل العصر ، المجلد الثاني الجزء الثالث ، تحقيق محمد محيي الدين عبد
الحמיד ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م الطبعة الثانية .

- الجزنائي (أبو الحسن علي من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) : كتاب
تاريخ مدينة فاس المعروف بزهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق وتعليق ودراسة مديحة
الشرقاوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م) الطبعة الأولى .

- أبو حامد الغرناطي (الشيخ محمد بن عبد الرحيم المعروف بأبي حامد الغرناطي ت
سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩) : المغرب عن بعض غرائب المغرب ، ترجمة وتحقيق انغرد بيخارانو
، المجلس الأعلى للابحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد سنة ١٩٩١ .

- تحفة الألباب ، نشر وتحقيق Gabreil Ferrerd في Jornal Asiatique
Juillet-Septembre, 1925.

- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله عبد المنعم الصنهاجي ، ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) :
الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠م
الطبعة الثانية .

- ابن حنبل (الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ٢٤١هـ / ٨٥٥م) : مسند الإمام

أحمد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة بدون .

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي ت ٣٨٠هـ - ٩٩٠م) : صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ١٩٩٨ م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الحضرت ٨٠٦هـ - ١٤٠٦م) : كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، أجزاء طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٢ م .

- :..... المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، سلسلة التراث ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٦ م .

- الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب ت ٣٨٠هـ / ٣٨٧) : كتاب مفاتيح العلوم ، تحقيق فان فلوتن ، قدم هذه الطبعة د/محمد حسن عبد العزيز ، سلسلة الذخائر رقم ١١٨ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤ .

- الداعي إدريس عماد الدين المتوفى ٨٧٢ هـ / ١٤٨٨م : تاريخ الخلفاء الفاطميين . بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٩٨٥ الطبعة الأولى .

- أبو داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) : سنن أبو داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بدون .

- الداودي (الإمام الأعرف أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي ت ٤٠٢ هـ / ١٠١١م) : كتاب الأموال ، تقديم و تحقيق رضا محمد سالم شحاته ، مركز احياء التراث ، الرباط ١٩٨٨ .

- السبأغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج ٣ ، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التتوخي ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٨ م .

- الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري ت) : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزج سنة ١٩٢٣ .

- الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري ت سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) : أدب الكاتب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية ، مصر سنة

١٩٦٣ الطبعة الرابعة.

- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي ت ٥٢٠هـ / ١١٢٩م) : فتاوى ابن رشد ، تحقيق وتقديم وجمع وتعليق الدكتور المختار بن الطاهر التليلى ، دار الغرب الإسلامى بيروت سنة ١٩٧٨م الطبعة الأولى .

- الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق د/ محمد زينهم عزب ، القاهرة سنة ١٩٩٤ .

- الزركشى (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشى كان حيا سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) : تاريخ الدولتين الموحدية والخفصية ، تحقيق محمد ماضور ، من سلسلة تراثا ، المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٦٦ ..

- ابن سعيد : (أبو الحسن على بن موسى بن عبد الملك ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان برنيط ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ١٩٥٨ .

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) وآخرون : شرح سنن ابن ماجه ، مكتبة قديمى خانة ، كراتشى ، بدون .

- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المعروف بابن صاحب الصلاة ت ٥٩٤هـ / ١١٩٨م) : المن بالأمامة أو تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، تحقيق الدكتور عبد الهادي للتازي ، دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٧ .

- ابن الصغير (المالكي عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) : أخبار الأئمة الرسميين ، تحقيق د/حسن علي حسن ، القاهرة سنة ١٩٨٤ .

- الطبرانى (أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) : المعجم الكبير ، تحقيق حمدى بن عبد المجيد السلفى ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

- : المعجم الأوسط ، تحقيق طارق بن عوض ، وعبد المحسن بن إبراهيم ، دار الحرمين سنة ١٤١٥ .

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملى ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : جامع البيان فى تأويل القرآن ، أجزاء ، تحقيق أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ، سنة ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م الطبعة الأولى .

- عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م :رحلة عبد الباسط بن خليل إلى تونس من كتابه الزوض الباسم نشرها روبرت برنشفيج في Puplicacion de L,institute Orientales de le Faculte des Leteres d,Alger, VII Deux recits de تحت عنوان voyage indits en Afrique nord au XV siecle Abdal Basit.B.khalil et Adorne,Paris 1936 0
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ت ٢٧٥هـ / ٨٧١م) : فتوح أفريقية والأندلس ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٧.
- العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحلي ت ٥٠٠هـ/١٠٠٠م): رحلته المسماة الرحلة المغربية ،تحقيق محمد الفاسي،سلسلة الرحلات ٤،جامعة محمد الخامس،الرباط ١٩٦٨ .
- ابن عبدون (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي) :رسالته في الحسبة والقضاء،ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ،المعهد العلمي للأثار الشرقية ،القاهرة سنة ١٩٥٥.
- ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ح ٢،تحقيق س كولان، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٨٣ ، ح ٣ تحقيق ليفي بروفنسال دار الثقافة بيروت بدون ، ح ٤ (قطعة من تاريخ المرابطين تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧م، قسم الموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ،دار الغرب الإسلامي بيروت ،الدار البيضاء ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م الطبعة الأولى .
- ابن العطار (الفقيه الموثق محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م) :كتاب الوثائق والسجلات ،اعتنى بتحقيقه ونشره ب.شالميتا وف.كورينطي ،مجمع الموثقين المجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة /مريد ١٩٨٣ .
- ابن عمر (يحيى بن عمر الأندلسي الكناني ت ٢٨٩هـ /٩٠١م):أحكام السوق،تحقيق حسن حسني عبد الوهاب راجعه وأعدده للنشر فرحات الدشرأوي ،الشركة العربية للنشر والتوزيع ،تونس ١٩٧٥.
- العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ت ٧٤٩هـ/١٩٤٨م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، السفر الأول ،تحقيق عبد الله بن يحيى السريجي ،المجمع الثقافي ، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ،السفر الرابع،تحقيق د/حمزة أحمد

عباسي أبو ظبي الإمارات ٢٠٠٢ م.

- العياشي (أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ت ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) : رحلته المسماة ماء الموائد (ليبيا وطرابلس وبرقة) ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد وآخرون ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، ١٩٩٦ .

- عياض (القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، الجزء الثالث تحقيق عبد القادر الصحرأوي ، الرباط ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، الجزء الخامس ، تحقيق محمد بن شريفة ، المغرب ، بدون ، الجزء السادس تحقيق سعيد أحمد اعراب ، المحمدية ١٩٨١

- الفاسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ / ١٢٠٦ أو ١٢٠٧م) : المستفاد من مناقب للعباد بدينة فاس وما يليها من البلاد ، تحقيق محمد الشريف ، القسم الثاني النص ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان ، الرباط ٢٠٠٢ ، الطبعة الأولى.

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر المشهور بأبي الفدا ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : تقويم البلدان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧م

- ابن قتيبة (ابن قتيبة الفقيه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) : أدب الكاتب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية مصر ١٩٦٣م الطبعة الرابعة.

- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م) : الجامع لاحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود القزويني ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، بدون .

- ابن القطاع (أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع ت ٥١٥هـ / ١١٢١م) : كتاب الأفعال ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٣ ، الطبعة الأولى.

- القلقشندي (الشيخ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) : صبح

الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، الذخائر ١٣٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة يناير ٢٠٠٥ م.

- ابن قيم الجوزية (الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م): زاد المعاد في هدى خير العباد، الجزء الثالث، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار، الكويت سنة ١٩٨٧ م الطبعة الخامسة عشر.

- الكتاني (الشريف أبو عبد الله محمد بن حعفر بن إدريس الكتاني ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م م): سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس تحقيق عبد الله كامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٦ م.

- ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م): تفسير القرآن العظيم، أجزاء، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.

- ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المشهور بابن ماجه ت ٢٧٣هـ / ٨٨٦م): سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، بدون.

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان أفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم وسیر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم جزءان، تحقيق بشير البكوش، محمد العروسي المطوي، بيروت طبعة سنة ١٩٩٤م.

- مجهول: الاسبتصار في عجائب الأمصار، تحقيق د/ سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية سنة ١٩٥٨ م.

- : نكر مشاهير بعض أهل فاس في القديم بتحقيق عبد القادر زمامه، مجلة البحث العلمي، المركز الجامعي للبحث العلمي سنة ١٩٦٤م، ١٩٦٥م عدد ٣، ٤، ٥.

- : كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، نشره هويثي ميراندا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان التاسع والعاشر، مدريد ١٩٦١-١٩٦٢ م.

- المراكشي (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشي ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب "تحقيق محمد زينهم عزب، القاهرة سنة ١٩٩٤.

-.....:وثائق المرابطين والموحدين ،تحقيق حسين مؤنس ،مكتبة الثقافة الدينية ،
القاهرة ١٩٩٧ ط١.

- ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني
ت ٧٨١هـ/١٣٧٩): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة
وتحقيق ماريا خيسوس بيجيرا ،تقديم محمود بو عياد الجزائر ١٤٠١هـ/١٩٨١م

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م) : مروج
الذهب ومعادن الجواهر ، ج٢ تحقيق مفيد محمد قميحه دار الكتب العلمية ، بيروت سنة :
١٩٨٦ .

- مسلم (الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م) :
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون .
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري
ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار صادر ،بيروت، عن طبعة لندن
١٩٠٦م .

- المقرئ (نقي الدين أحمد بن علي المقرئ ت ٨٤٥هـ/١٤٤١-١٤٤٢م) :جني
الأزهار من الروض المعطار،تحقيق محمد زينهم عزب ،الدار الثقافية للنشر،القاهرة ١٤٠٦
هـ/٢٠٠٦ م .

- المقرئ (أحمد بن المقرئ التلمساني ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) : نفح الطيب في غصن
الأندلس الرطيب مجلدات تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت سنة ١٩٩٧م
- ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري : لسان العرب ، دار
صادر ، بيروت بدون .

- النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد شعيب النسائي ت ٣٠٣ هـ/٩١٥م): سنن النسائي
الكبرى ، تحقيق عبد الغفار بن سليمان البنداري وسيد كمروى حسن ، دار الكتب العلمية
،بيروت سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- النيسابوري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم
المعروف بالحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م): المستدرک علی الصحیحین ،دار الكتب
العلمية ،بيروت ١٩٩٠م .

- **النويري** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري ٧٣٣/١٣٣٢م) :نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر التاسع،سلسلة تراثنا ،نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ،القاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

- **ابن الوردی**(زين الدين أبو حفص عمر بن الوردی ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :تاريخ ابن الوردی ، نشر S.Hylander لندن سنة ١٨٢٣م .

- **ابن الوزان الزيياتي** (الحسن بن محمد بن الوزان الزيياتي أو جان ليون الاقريقي ٨٣٢هـ/١٤٢٩م) : وصف أفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية د/ عبد الرحمن حميدة ،سلسلة التراث ،مكتبة الأسرة ،القاهرة ٢٠٠٥ .

- **الونشريسسي** (أحمد بن يحيى محمد بن عبد الواحد بن على ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) : المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب ، أجزاء مجموعة من الفقهاء أشرف الدكتور محمد حجي دار المغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١ .

- **ياقوت** (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٦م) : معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، بدون .

- **اليعقوبي** (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب ت ٢٨٤هـ/٨٩٦م) : كتاب البلدان ضمن المجلد السابع من الأعلق لابن رسته، لندن سنة ١٩٨٢ .
-.....:تاريخ اليعقوبي ،المجلد الأول،دار صادر بيروت،بدون .

- **ابن يوسف الحكيم** (أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم الفاسي ،عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي): الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة ، حقه وذيله بجامع مفردات د/ حسين مؤنس ، دار الشروق القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

ثانيا:المراجع

- **ابن خلدون** (دكتور): العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ٥٢٤-٩٣٦هـ/١١٣٠-١٥٢٩م ، دار المعارف القاهرة سنة ١٤٠٥هـ/سنة ١٩٨٥م

- **إبراهيم حركات** (دكتور): النشاط الإقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي إفريقيا الشرق سنة ١٩٩٦م .

- **إبراهيم سعيد فهميم محمود (دكتور):** العالم العربي في نظر الرحالة الأوربيين مصنف آل اندروني كمصدر أوربي من تونس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الهجري دراسة مقارنة ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بعنوان أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب حصاد ٦ القاهرة سنة ١٤١٩هـ/سنة ١٩٩٨م.

- **أحمد الياس حسين:** الطرق التجارية عبر الصحراء حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، ماجستير سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

-: العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي فيما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين ، الثامن والحادي عشر الميلاديين دكتوراه ، قسم التاريخ، معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢م.

- **أحمد بن أبي الضيافة:** - إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الزمان الجزء الأول تحقيق لجنة من كتابه الدولة للشيثون الثقافية والأخبار ، تونس سنة ١٩٦٣م.

- أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء سنة ١٩٩٧ م، الأولى .

- **أحمد عزاوي:** رسائل موحدة مجموعة جديدة، جزآن ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة ، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٢ سنة ١٤٢٢هـ/سنة ٢٠٠١م .

- **إسماعيل العربي (دكتور):** الحياة الإقتصادية والاجتماعية عند طوارق أمجار مجلة الأصالة ، السنة الثامنة رمضان سنة ١٣٩٩هـ أوت سنة ١٩٧٩م عدد خاص عن تاريخ منطقة الهوقار بمناسبة إنعقاد الملتقى ١٣ للفكر الإسلامي بعاصمتها تمزاست.

- **أمين توفيق: الطيبى:** دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الجزء الثاني الدار العربية للكتاب سنة ١٩٩٧م.

- أورينت برس: مناجم الملح الصخري، اكتشفها البربر واعتقوا الإسلام ، منشورات العراق iraq.iraq.ir

- **بانيكار (ك. مدهو):** الوثنية والإسلام (تاريخ الإمبراطورية الرنجية في غرب أفريقيا ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ، المشروع القومي للترجمة رقم ٣٠ ، المجلس الأعلى للثقافة سنة ١٩٩٨ ، الطبعة الثانية.

- **برنشفيك (دوبار):** تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر ، جزءان نقله إلى العربية حمادى الساحلى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنة ١٩٨٨ ط١.

- **بوفيل (أ-و):** الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء . ترجمة دكتور زاهر رياض مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

- **جواتباين (س.د):** دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية ، تعريب وتحقيق دكتور عطية القوصى وكالة المطبوعات . الكويت سنة ١٩٨٠.

- **جوزيف نسيم (دكتور):** دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية سنة ١٩٨٨.

- **الحبيب الجناحى (دكتور):** المجتمع العربى الإسلامى (الحياة الإقتصادية والاجتماعية)، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٩ الكويت سبتمبر سنة ٢٠٠٥ م.

- **حسن أحمد محمود (دكتور):** قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٤١٦ هـ / سنة ١٩٩٦ م.

-: الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا دار الفكر العربى، القاهرة سنة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م.

- **حسين مؤنس (دكتور):** فتح العرب للمغرب ، القاهرة بدون .

.....: عالم الإسلام ، الزهراء للأعلام العربى ، القاهرة سنة ١٩٨٩ م.

- **دائرة المعارف الإسلامية:** المجلد السادس مادتي جربة وتونس والمجلد الحادي عشر مادة سبخة.

- **رضوان البارودى (دكتور):** جزيرة جربة التونسية دراسة فى التاريخ السياسى والحضارى فى العصر الإسلامى ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٩٠ م.

ـ روجيه لوتورنو : فاس في عصر بني مرين مترجمة تيقولا زيادة ، سلسلة مراكز الحضارة ، مكتبة لبنان ١٩٦٧

ـ **سمر عبد العزيز سالم (دكتور)** : أضواء على بعض المراكز التجارية في المغربين الأوسط والأقصى ندوة ضمن طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ ، حصاد ٨ ، اتحاد المؤرخين آداب القاهرة سنة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

ـ **السـعدي** (الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن أبي عامر السعدي: تاريخ السودان تحقيق هوداس وتلميذه بقوه ، المدرسة الباريسية لتدريس الآداب الشرقية ، باريس ١٩٦٤ ؛
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : بعض الأضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، م ٢٦ ج ٢ ، ١ مايو - ديسمبر ١٩٦٤ . ص ٥٢ .

ـ **سمير محمد إبراهيم عنيـم** : علاقات مصر التجارية بمدينة أمالفي في العصور الوسطى ، ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ حصاد ٨ اتحاد المؤرخين العرب القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

ـ **سليمان فياض** : عمالقة العلوم التطبيقية وإنجازاتهم العلمية في الحضارة الإسلامية ٢٠١ - ١٠٠٠هـ / ٨٠١ - ١٦٠٠م مكتبة الأسرة الأعمال الفكرية القاهرة سنة ٢٠٠١م

ـ **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة الأسكنرية ، بدون

ـ **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : أحمد مختار العبادي (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط البحرية الإسلامية المغرب والأندلس الجزء الثاني ، مؤسسة شباب الجامعة الأسكنرية سنة ١٩٩٣م .

ـ **سبحي لبيب (دكتور)** : الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية ، قانونية ضمن أعمال ندوة مصر وعالم البحر المتوسط إعداد وتقديم د/ رؤوف عباس حامد ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة سنة ١٩٨٦ ط ١ .

ـ **سالم بن قريـة** : انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القبرون الوسطى ، ضمن ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال العصور الوسطى ، تنسيق محمد حمام ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط سنة ١٩٩٥م الطبعة الأولى .

– **عبد الفتاح مصطفى غنيمه (دكتور):** ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثارها فى الحضارة الإنسانية ، الجزء الرابع ، جيولوجيا التعدين والمعادن ، ضمن سلسلة التواصل الحضارى ، الإسكندرية سنة ١٩٩٤م

– **عبد الله عبد الرازق إبراهيم (دكتور):** الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٨٤م.

– **عز الدين موسى :** النشاط الإقتصادي فى المغرب الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى دار الشروق ، القاهرة بيروت سنة ١٩٨٣ ط ١.

– **علي بن بالي القسطنطيني:** خير الكلام فى التقصي عن أغلاط العوام ، تحقيق د/ حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية .

– **فاضل أحمد الطائي (دكتور):** أعلام العرب فى الكيمياء ، الأعمال العلمية ضمن مكتبة الأسرة القاهرة سنة ٢٠٠٠م

– **الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ت ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م):** مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا ، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم ، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ٢٠٠٥ الطبعة الثانية .

– **فيج (جى - دى):** تاريخ غرب أفريقيا ، ترجمة وتقديم وتعليق د/ السيد يوسف نصر مراجعة د/ بهجت رياض صليب ، دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٢ ط ١.

– **كيرلانسكى (مارك):** تاريخ الملح فى العالم (الإمبراطوريات - المعتقدات ثورات الشعوب والإقتصاد العالمى ترجمة أحمد حسن مغربى سلسلة عالم المعرفة العدد ٣٢٠ الكويت أكتوبر سنة ٢٠٠٥م

– **لومبار (موريس):** الإسلام فى مجده الأول من القرن ٢ إلى القرن ٥ هـ / ٨-١١ م . ترجمة وتعليق اسماعيل العربى ، منشورات دار الآفاق ، المغرب سنة ١٩٩٠م.

– **لويس (أوشعبيالد):** القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ - ١٠٠٠م . ترجمة أحمد محمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غريال مكتبة النهضة المصرية القاهرة بدون .

- **محمد الأمين البراز:** حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي تأملات في رحلة ابن حبير ضمن ندوة الغرب الإسلامي تأملات خلال القرون الوسطى ، تتسيق محمد حمام ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة ١٩٩٥م الطبعة الأولى .
- **محمد حسن (دكتور):** المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس سنة ١٩٩٩م.
- **محمد زنجير (دكتور):** المغرب في العصر الوسيط الدولة - المدينة الاقتصاد ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط . سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٤ .
- **محمد الطالبي:** الدولة الأغلبية التاريخ العباسي ١٨٤ - ٢٩٦هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩م تعريب المنجي الصيادي مراجعة وتنقيح حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٩٩٥ ط ٢.
- **محمد عبد الرحمن مرجع (دكتور):** الجامع في تاريخ العلوم عند العرب ، منشورات عويدات ، بيروت باريس سنة ١٩٨٨م ط ٢.
- **محمد عيسى الحريوي (دكتور):** الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ، حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس ١٦٠ هـ - ٢٩٦ هـ دار القلم للكويت سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.
- **محمد غريب جودة:** عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب ، الأعمال الفكرية مكتبة الأسرة ، القاهرة سنة ٢٠٠٤م.
- **محمد فتحة (دكتور):** النوازل الفقهية والمجتمع ، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن ٦ إلى ٩ هـ / ١٢ - ١٥م منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء سلسلة الأطروحات والرسائل، الدار البيضاء سنة ١٩٩٩م.
- **محمد محمد عبد القادر (دكتور):** دويلة بني مدرار ١٤٠ - ٢٩٦ هـ / ٧٥٧ - ٩٠٨م ، القاهرة سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م.
- **محمود عبد الرزق إسماعيل (دكتور):** الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري - القاهرة سنة ١٩٨٦ ط ٢.
- **محمود مصطفى سليمان:** تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى، مكتبة الأسرة ، القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

- **مصطفى حسن محمد الكنانى (دكتور):** العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١ م / ٤٨٨ - ٥٦٧ م رقم ١ أضواء جديدة على الحركة الصليبية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب الأسكندرية سنة ١٩٨١ م.

- **مولاي عمر:** الماء والملح والكبش عند الأمازيغ مقالة منشورة فى موقع www.atlaselmagrebmaktooblong.com

- **ناجلا محمد عبد النبى (دكتور):** بمصرو البندقية ، العلاقات السياسية والإقتصادية فى عصر المماليك ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة سنة ٢٠٠١ م ط ١

- **نيانى (ج.ن):** العلاقات بين مختلف المناطق والمبادلات ضمن تاريخ افريقيا العام ، المجلد الرابع : افريقيا من القرن الثانى عشر إلى السادس عشر، بيروت سنة ١٩٨٨.

- **نعيم قدام:** أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام ، الجزائر سنة ١٩٧٥ ط ٢

- **المادى روجى إدريس:** الدولة الصنهاجية وتاريخ أفريقية فى عهد بنى زيرى من القرن السادس إلى القرن العاشر الميلادى ، نقله إلى العربية حمادى الساحلى، جزءان، دار الغرب الإسلامى بيروت سنة ١٩٩٢ ط ١.

- **هالة خيرى الدقاق:** دور قبائل المغرب الأوسط والأقصى فى حركة التجارة إبان القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، ماجستير معهد الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة سنة ٢٠٠٢ م / ١٤٢٣ هـ

- **هوبكنز (أ.م):** التاريخ الإقتصادى لأفريقيا الغربية ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع تقديم محمد عبد الغنى سعودى المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة سنة ١٩٩٨.

- **هونكة (زيغريد):** شمس العرب تسطع على الغرب" أثر الحضارة العربية على أوروبا ، نقاه إلى العربية فلروق بيضون وكمال دسوقي راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى. الخوري، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٩ ط ٢.

- **هيل (رونالد.و):** العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية ، لبنات أساسية فى صرح الحضارة الإنسانية . سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٠٥ الكويت يوليو سنة ٢٠٠٤ م.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- **Amari (Michele):** Diplomli Arabi Del .R. Archivio Floraantino , Testo Originale con la Tradeuizione Eillustrezton, Firenze 1863.

- **Arie(Rache)** : Espana Muusulmana (SiglosVII-XV)Tomo III en History de Espana, Dergida por Manuel Tumon de Lara , Editorial labor S.A. Barcelona 1984.
- **Brett (Michael)**: Islam and Tarde in the Bilad Al Sudan , Tenth - Eleventh Century A.D. In The Journal of African history . volume 24, Number 4. Combridge University press 1983.
- **Collins (Robert.O)**: African history , Text and Readings , New York 1971.
- **Curtin (philip) and others:-** : African history , from Eaerlest times to independence. London and New Yourk.1995
- **Davidson (Basil)** : Africa in history , Themes and outlines, London . (S.D).
- **Dufourcql(charles ammanuel)**: Prix et Niveaux de Vie dans Les Pays Catalans et Maghribins a la fin du XIII^e et du debut du XIV^e siecles , En L'Iberie Chretienne et Le Maghreb.XII^e - XV^e siec les , Variorum Hampshire, Great Britain . 1996.
-: Commerce du Maghreb Medieval avec l'Europe, en L'Iberie Chretienne et Le Maghreb,XII^e -XV^eSiecles , Varlorums Great Britain 1990.
- **Fisher (H.J)** : The Sentral Sahra and Sudan . in the Cambridge history of Africa . Volume 4 From c 1600 to c. 1790. Edited by Richard Gray, Cambridge University press . 1994
-:The Eastern Maghrib and Central Sudan , in the Cambridge history of Africa,volume 3,from c.1050 to c1600 ,Edited by Roland Oliver ,Cambridge,S.D.
- **Lalatrie (De mas)**: Traites de paix et de commerce et documents divers concernant Les Relations des chretiens avec les Arabes de L'Afrique Sptentrionale au moyen age, Paris 1866.
- **Levizton (Nehemia)**:- The Sahara and the Sudan from the Arab conquest of the Magraib to the Rise of the Almoravids. In the Cambridge history of Africa Volume 2 ,from c .500 Be. to Ad 1050- edited by J.D.Fage. Combridge University Press 1988.
-:The Western Maghrib and Sudan , in the Combridge history of Africa, volume from c.1050 to c. 1600 edited by Roland oliver, Combridge University
- **Malfante (Antonius)**:-: Tawat and the WesternSudan Tarde in African history,text and Readings, university of California, Santa Barhara , Random House, New york 1971.

- **Mcdougall (E. Ann):** The View from Awdaghust, War. Trade and Social change in the South Western Sahara from the Eighth to the Fiften Century , in the Journal of African history , Volume 26 , Number 1 , Cambridge University Press 1985.
-:- : Stories and of Salt, Slavery and life in the Sahara, University of Alberta 2001 ,from www.humanitiesulberta.ca
- **Oliver (Roland) and Anthony Atmore:** The African middle Ages, 1400-1800,Cambridge University Press, S.D.
- **Shillington (Kevin):** History of Africa , Macmlean 1995.
- Wilks (I vor):** Wangara , Akan and portuguese in the fifteen th and sixteenth Centuries (I) The Matter of Bitu, in the Journal of African History, volume 23 Number 3, Cambridge University Press 1982.
-:- Wangara , Akan and portuguese in the fifteen th and sixteenth Centuries part II : The Straggle for Tarde, in Journul ofAfrican history Vol 23, Cambridge University Press, Great Britain, 1982.

دار التيسير للطباعة والنشر بالمنيا
رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٨ / ١٤١٣٦
الترقيم الدولي I.S.B.N.
3 - 164 - 397 - 977
الملح وتجارته بالمغرب الإسلامي

632
51



Bibliotheca Alexandrina



0666371